المرتضى
لكتب السودانية

زوروا صفحتنا في الفيس بوك

www.facebook.com/sh143a

تجدوا فيها الكثير من الكتب

سلسلة روايات من السودان ٣

شـــاورما

رواية

عماد البليك

مومنت كتب رقمية™
لندن 2014

Shawarma

a novel by

Emad Blake

First Edition

Copyright©2014

Moment Digibooks Limited™

United Kingdom

All rights reserved

The views and opinions expressed by the author do not represent the views, beliefs or opinions of Moment Digibooks Ltd Enterprises and its employees.

www.momentdigibooks.blogspot.com

gdigibooks@outlook.com

http://www.lulu.com/spotlight/momentdigibooksltd

https://www.facebook.com/momentdigibooksl

Tel=00447715601634

Cover design: S.Waneli

هذا الكتاب مبنى ومعنى على مسؤولية المؤلف ولا تتحمل مومنت كتب رقمية ولا العاملين بها ولا المنضوين تحتها أية تبعات تنجم عن ذلك.

إليك **والدي** رحمك الله ففي سيرتك كفاحٌ استمد منه الأمل في مقاومة أوجاع الزمن

ابنك

عماد الدين

نسيت طعم الشاي الدافئ

ونسيت برودة الريح إذ تهب

فهيا لا تقفي هكذا

وابعثي الجيّد من ذكرياتي

من الشعر التركي المعاصر

1

سأقص عليك يا ولدي القصة التي سوف تحبها كثيرا.. حكاية كفاح طويل عاشه أبوك في هذه الحياة.. كنت أنت ثمرته.. سأخبرك بكل شيء في وقته المناسب.. فقط سأطلب منك أن تستمع لي جيدا.. أعرف أنك سوف تكون حسن الإنصات.. لا أحد يمكنه أن يخبرك بما جرى أفضل مني ولكن إذا قدر لهذه الحكاية الواقعية أن تكتب في كتاب ذات يوم فليس هناك أفضل من عمتك لتقوم بهذا العمل، بمحبة ودقة وإخلاص.. هي وعدت بذلك.. ستعرف من تكون هي في الوقت المناسب أيضا.. فهي ليست عمتك في الواقع.. لأنك سوداني ولأنها تركية.. لكنها هي عمتك أيضا لأنها تستحق ذلك.

المهم أن الصبي.. الذي هو أنا.. ومن أعلى القطار كان يطل على أحلامه البعيدة، كأنه سوف يصبح شيئا مهما ذات يوم.. ذات يوم ما سوف تفتح أبواب السماء رغم كل شيء.. يمتلك إحساسا كبيرا بذلك يكاد يغطي قلبه.. فلا شيء يشغله الآن سوى تأمل السحب التي يسابقها القطار في الاتجاه المعاكس.. هي في السماء.. وهو في الأرض.. وأنا على سطح ذلك القطار متهربٌ من دفع ثمن التذكرة لأنني لا أملكه.. فمن أين لفتى فقير بعشرة جنيهات..؟ والأهم أنني لا أفعل ما هو محرم، فهناك الكثيرون أمثالي بل من كبار السن الذين يسافرون أعلى سطح عربات القطار، وهذا يعني أنهم لن يدفعوا شيئا لمالكيه..

"هذا القطار تملكه الدولة يا ولدي"

قال رجل متقدم السن كان يجلس أمامي مباشرة، تلفح الريح الباردة في أمشير جسده، لكنه أفضل مني فقد كان يغطي وجهه بشال من القطن، لا يكاد يبين من الوجه سوى عينين صغيرتين وأنف صغير جدا وتضاريس لخدين صغيرين أيضا..

سكت الرجل قليلا، كان قد أشعل سيجارة من النوع الرديء.. ماركة أبو نخلة.. رسمت على ظهر العلبة نخلة صغيرة لها أربعة رؤوس برتقالية اللون.. هي تماما كالتي يدخنها والدي عندما يأتي في منتصف الليل سكرانا ويبدأ في ضرب أمي ليوقظ كل أهل الحي.. عاد الرجل للكلام مجددا:

"السفر على سطح القطار متعة يا ولدي.. والأهم أنه مجاني.. قل من يكون اسمك أيها الفتى"

أخبرته باسمي.. كان صوتي خفيضا.. ويبدو أن الرجل لم يسمعني بسبب الريح أو أن أذنيه مرهقتان من أوجاع العمر.. ولكي يدقق فيما قلت.. أرخى أذنه اليمنى قريبا مني.. وهو يميل نافثا دخان السجائر في وجهي دون أن يقصد ذلك.. كرر السؤال:

"قل لي ما اسمك يا فتى؟"

أخبرته مجددا حيث صرخت بصوت عال.. حتى يسمعني جيدا.. كان صوتي كلما ارتفع أسرعت رياح الشتاء الباردة لالتهامه.. إلى أين تأخذ الريح أصوات الناس؟.. كنت أفكر.. كيف

تبتلع الريح هذه الصرخات والقهقهات العالية لسكان سطح القطار؟ أين تذهب بها؟.. كان على امتداد البصر وبطول القطار الطويل جدا.. العشرات.. يأكلون، يضحكون، يثرثرون.. يدخنون.. يفعلون كل شيء.. إن سطح القطار ذلك الحي المعلق بين الأرض والسماء..

بعد أن عرف العجوز اسمي، عاد ليخبرني وأنا أركز في الإنصات لما يقول:

"مال الدولة حلال يا ولدي.. هذا القطار اشتروه من حقوقنا"

كان قد بدأ في سرد كلام كثير لم يكن يهمني أو أفهم فيه.. يذهب صوته ويأتي مع الرياح التي زاد لفحها.. كان يذكر كلمات مثل رئيس، وزراء، مزارعين، تجار.. كان يتكلم عن سرقات، فساد، ألاعيب، مؤامرات تحاك في الظلام.. هذه الأخيرة أعادت لي صورة والدي وهو يدخل علينا في آخر الليل، ساعة يكون الظلام في أشده، وحيث لا كهرباء في بيتنا ولا في باقي البلدة. منذ سنوات لم تضيء لمبة واحدة في بيت ولا في الشارع.. فقط كان هناك بيت واحد كبير يقع قريبا من النهر، في المساحة الفاصلة بين مزارع الفول والفاصوليا ومكاتب الحكومة المحلية حيث يعمل أبي سائقا هناك.. ذلك البيت الكبير والفخم، ذو الطابقين، هو الوحيد الذي يظل مضيئا بالليل والنهار.. لا يطفئون الإنارة أبدا.. يرتفع منه صوت مولد كهربائي يكون واضحا في ساعات منتصف الليل مع سكون البلدة إلا من صراخ ينبعث من بيتنا الذي لا يهدأ مع وصول والدي وشروعه في الواجب اليومي، أن يقلق راحتنا جميعا.

كان العجوز مستمرا في الثرثرة.. صوته يروح ويجيء.. في حين بدأت أعاني من البرد مع ارتجاف جسمي الهزيل خاصة أنني لم أكن أرتدي سوى بنطلون وقميص خفيف دون ملابس داخلية، وظننت أن الرجل سوف يتكرم علي بشاله لأتغطى به.. فالعادة أن يعطف الكبار على الصغار.. لكن ذلك لم يحدث.. لم أر منه شفقة رغم عباراته التي تأتيني من فينة لأخرى وهو يتحدث عن داء غريب أصاب الناس في هذا البلد.. يسميه الحسد تارة.. والأنانية تارة أخرى.. ثم يلخص القول:

"ضعف الإيمان.. ضعف الإيمان يا ابني"

كرر النتيجة.. الاختراع المدهش الذي توصل إليه والذي عزا إليه مصائب وتعاسة ذلك الشيء الغامض الذي يسميه الشعب، والذي هو وأنا جزء منه كما فهمت من الكلمات المبتلعة بواسطة الريح..

كنت سأموت من البرد.. لولا أن لطف الله.. فقد جاء صبي مثلي يتجول أعلى القطار.. يحمل كفتيرة شاي يصبه لزبائن السطح ويضع النقود المعدنية في جيبه.. كان له جيب كبير في وسط قطعة قماش من الدمور المتسخ، مربوطة بخيط غليظ عند كتفيه.. أعرف أن الشاي يقلل الشعور بالبرد.. فأمي كانت تستخدمه سلاحا لتدفئة أجسادنا الصغيرة في عطلات الشتاء ونحن نجلس تحت الشمس في بيتنا.. في ساعات الصباح الباكر إلى الضحى، قبل أن يدخل أبي أحيانا ليطلب إفطارا سريعا ومعه يكون الجحيم قد أتى.

لم أكن أملك مالا كما أخبرتك يا ولدي إذا لدفعت ثمن التذكرة ولسافرت داخل القطار، فأنا أحب بخلاف والدي التعيس أن أكون أمينا.. ولكن لحسن الحظ كانت معي قطع نقود معدنية صغيرة ما كنت اعتقد أنها ذات أهمية، كانت منسية في جيب البنطال أخرجتها وعددتها لاكتشف أنها كافية لشراء كوبين من الشاي، كان الثاني للعجوز الذي شكرني كثيرا. لا أعرف إن كان يحمل مالا أم لا ليقوم بالواجب قبلي.. لكن المهم أنه رفع يديه إلى السماء عاليا جدا.. وتمتم بكلمات لم أسمعها.. فهمت أنه دعا الله لي.. كان جزءا من وجهه وأعلى رأسه قد انكشف، فقد سقط الشال قليلا على كتفه.. كان شعره أبيض تماما.. يتساقط منه القمل.. تستطيع أن تراه واضحا من بياض المساحة التي يتحرك فيها.

اكتشف أنني كنت أراقب القمل الأسود وهو يتسكع في أزقة شعره الأبيض.. رمقني وهو يشعل سيجارة جديدة.. وقال لي:

"هذا بيته يا ولدي.. لن أطرده منه"

أنا نفسي كان رأسي وإلى قبل سنتين مليئا بالقمل.. وكانت أمي تجلسنا أنا وأخوتي تحت الشمس أيضا.. لتغسل لنا رؤوسنا بالجاز فقد سمعت نساء الحي يقلن بأنه أفضل وسيلة للتخلص من هذه الآفة، ولم يحدث أي تقدم إلى أن قرر القمل بنفسه أن يغادر رأسي..

كان القطار قد اقترب من محطة سيتوقف عندها.. مما استدعى الركاب على السطح أن يهرولوا سراعا للنزول هربا من شرطة السكك الحديدية التي تقبض عليهم لمخالفة الأنظمة.. وفعلت مثلهم.. كان ذلك يتطلب مهارات وحيل ليس لي بها خبرة من قبل.. كنت أراقب كيف يفعلون وأقلدهم.. أسرع العجوز للنزول بين عربتين من القطار بمهارة فائقة لا تعكس تقدم سنه، وتدلى عبر مساحة ضيقة في الجزء الواصل بين العربتين لينحشر داخل القطار.. كنت قد نجحت في أن أفعل مثله تماما.. لأجد نفسي وسط مجموعة كبيرة من البشر المتلاصقين.. رجال ونساء وأطفال، وخلفهم على ما يبدو، يقع أحد حمامات القطار القذرة.. فقد كانت رائحة عفونة تنبعث بقوة.. وكان علي احتمال هذا الوضع إلى أن تتوقف العربات عن الارتجاج ويخرج الجميع لتنفس الهواء النقي.

نزلت من العربة على أرض المحطة.. المحطات كلها بنسق واحدة بنيت منذ قرن وأكثر بواسطة الإنجليز ساعة دخلوا البلاد مستعمرين.. تميزها الأكواخ الصغيرة ذات السقوف الهرمية المدببة. كان العجوز بجواري.. لكنه لم يكن يتبعني.. كنت جائعا ولكن لم يكن معي ثمن الأكل. كان هنا باعة من النساء والرجال والأطفال يبيعون ساندويتشات الفول والطعمية والبيض المقلي وكان هناك باعة الشاي والعصائر رغم برودة الجو، لكنها في الغالب بالماء الحار. كانت رائحة شواء تنبعث من أمام رجل يجلس وأمامه صاج كبير يرمي فيه بقطع اللحم على الزيت الحار.. ميسورو الحال التفوا حول بائع اللحم خاصة أن الرائحة مغرية مع الجو البارد.. اكتفيت بأن اشتم.. اشتم فقط إلى أن صفَّر القطار لأسرع إلى الصعود مجددا إلى السطح، دون أن أعثر على صديقي العجوز.. فقد غاب عني.. وبدأت في مراجعة سطوح العربات من الشمال إلى الجنوب كان الناس مرصوصين

بحيث يصعب أن تميزهم لكثرتهم، وبقدر ما اجتهدت لم أعثر عليه.. لا أعرف أين ذهب.. وفي النهاية قررت أن أنساه لكني تذكرت أنه ترك مخلاة صغيرة معي وأنا أقف بجوار بائع لحم الصاج. كانت المخلاة لا تزال بيدي.. كيف سأعيدها إن لم أعثر عليه.. سيكون علي أن انتظر إلى المحطة التالية فحتما سوف يبحث عني مثلما أبحث عنه وسنتقابل.

فكرت أن أقطع أعلى العربات مشية وذهابا أفتش عنه وبدا لي ذلك صعبا بسبب اشتداد الريح الباردة بالإضافة إلى الزحام ما يهدد بسقوطي مع بدء القطار في السير بسرعة أكبر من انطلاقته الكسولة. نظرت حولي كان بعض ركاب السطح قد ناموا متقرفصين، كيف ينام الإنسان في هذا المكان، فعرض العربة ضيق، ما يهدد بالوقوع والموت.. سمعت في الماضي عن أخبار كثيرة من هذا النوع.. تحكي عن أناس سقطوا من القطارات لأنهم وقعوا في الخطأ أنهم قرروا النوم.. كان علي إذا أن أكون يقظا إلى أن تنتهي الرحلة التي كنت لا أعرف إلى أين ستقودني.

كنت قد قررت الفرار من بيتنا في ذلك المساء التعيس، ساعة عاد والدي مبكرا في الليل كغير العادة، وبدأ في تنفيذ الواجب اليومي ضرب أمي بقوة حتى أنها تعثرت وسقطت على الأرض وعندما حاولنا أنا وأخوتي أن نساعدها على النهوض، انقلب الوضع علينا، حيث انهالت سياط أبي على ظهورنا.. إخواني الخمس وأخواتي التسعة، كنت في الثالثة عشرة من عمري ودوني سنا كان هناك خمسة أولاد وثلاث بنات، أصغرهم رضيعة لم تتجاوز العام، نالت نصيبها من الضرب. كانت أمي تنجب بشكل مستمر ما أن تفرغ من الولادة حتى تحبل مرة أخرى، فوالدي لا يترك لها فرصة. ما أن يضربها في الليل إلا ويقع فوقها في أي موقع كان دون مراعاة لمشاعرنا أنا وأخوتي لأنه يكون قد أفرط في الشراب لا يعي ما يفعله ولم يكن لأمي أن تقاوم قوته كملاكم، فقد كان رغم السكر قادر على التماسك من الناحية الجسمانية، يصرع كل من يعترض طريقه.

كان الانتماء لأب مثله فضيحة. ففي المدرسة، وفي الشارع، والسوق وأزقة الحي، في أي مكان.. يعرف الجميع أننا أبناء ذلك الرجل غريب الأطوار وكان بيتنا مشهورا دون بقية بيوت الحي بعلاماته المميزة.. العويل الليلي.. وصراخ الجميع في أي وقت من اليوم.. فالسلوك الذي انتهجه رب البيت انعكس على الجميع في المطاردة والشجار والغضب والهياج لأتف الأسباب.. وكان حمل السكاكين أمرا عاديا في بيتنا، أن يطارد أحد أخوتي الكبار الآخر من الأولاد أو البنات بسكين.. ذلك مشهد يتكرر يوميا.. وأن يحمل أحدهم إلى المستشفى بعد أن يكون قد نزف كثيرا ذلك عادي أيضا.. مرة ضرب أخي الأكبر واحدة من أخواتي وقطع لها ما بين ردفيها. كان منظرا مؤلما لي، أحس بالوجع والامتعاض كلما استعدته في ذاكرتي وكأنه يحدث الآن أمامي، وأنا أرى الدم يتدفق أسود من أسفل مؤخرتها.

تقريبا كنت أنا الوحيد خارج هذه القاعدة.. حمل السكاكين والصراخ وقلة الأدب.. كان سكان الحي يشيرون إلي بوصفي استثناء ويقولون ذلك جهارا أمامي.. فلا شيء يدس بخصوص أسرتنا وأعمالها الرديئة.. يستغربون في كيف أنني استطعت أن أخرج مهذبا ومحترما من بين هذا البيت

العجيب. وأنا نفسي لم أكن أعرف السبب.. اعتقد أنه خيار الله أن أكون هكذا لكي أفر من جحيمهم لكي أبحث عن حياتي في مكان آخر.. وهذا ما حدث.. ففي اليوم الذي هربت، كنت قد تركت ورائي كل أمنياتي وأحلامي المعلقة بأسرتي والبلدة التي ولدت فيها وقضيت طفولتي المبكرة.. ومن ضمن ما خلفته هناك كان تفوقي الدراسي.. فقد كنت الأول في المدرسة، وكانت تلك معجزة أخرى أن أكون مميزا وذكيا في أسرة مصابة بالخبل والجنون كما كان المعلمون يتكلمون جهارا أيضا.

لا شيء يخفى في ذلك البيت.. كان أبي يمارس برنامجا محفوظا يبدأ بالخروج في الصباح الباكر.. فرغم أنه ينام متأخرا كان يحرص على الاستيقاظ حتى لو أنه نام ساعتين.. لديه طاقة خارقة لكنه كان يوظفها في أمور تافهة وفي تقريعنا وتهديد حياة أمي وحياتنا.. أول ما يفعله أن يقوم بتسخين ماكينة السيارة الحكومية ماركة لاندروفر القديمة التي كان لها صندوق خلفي ولونها ترابي. وقبل الانطلاق يكون قد أدخل خرطوم بلاستيكي في فتحة الجاز يمتص بفمه قليلا منه.. يبصق ثم يتركه يصب في جركانة بلاستيكية يعبئ نصفها ليبيعها.. كان هناك رجل يأتي إلينا يوميا في العاشرة صباحا لا يتأخر.. يأخذ الجاز ويقدم لأمي الجنيهات التي ما كانت لتتصرف فيها حتى تقدمها لأبي كما هي.. لأنها لو فكرت في صرف ولو جنيه واحد فهي تعرف مصيرها.. وعلى أية حال فهي ليست بمنجاة عن الضرب ليلا.

كان والدي في عمله كسائق مع الحاكم المحلي للبلدة صاحب البيت ذي الطابقين الذي لا تنطفئ الكهرباء عنه.. يبدو مخلصا له ومتقزما أمامه.. وكان الحاكم يحبه وينفق عليه المال الذي يضيعه أبي في متعه الخاصة.. لم يحدث أن هدده بالطرد من العمل أو بخصم راتبه.. لقد شاهدته كثيرا كيف كان يطأطئ رأسه في مكتب الحاكم وفي بيته أمام زوجته، ساعة يحضر الخضار واللحم والخبز لها في الصباح، والتي كانت شديدة الاستغراب مما يقال عن أبي في الحي كشخص غريب الأطوار، ومرة سألتني:

"أصحيح أنه يضرب أمك؟"

رأيت أن السؤال غير لائق.. فنظرت إليها ولم أجبها ففهمت أنني غير راض عما بدر منها. فمهما يكن هذا أبي وهذه أمي وهذا بيتنا..

في ذلك المساء.. حيث هربت.. كان والدي قد قرر أن يطردنا جميعا من البيت.. كان سكرانا.. وكثيرا ما يفعل ذلك ويعلن هذا القرار فنقضي نصف الليل في الشوارع أو مع الجيران الذي يشفقون علينا.. ثم نعود بعدها لممارسة الحياة كما هي. لكن في هذه المرة يبدو الأمر جديا.. فقد مضى أكثر من نصف الليل ولا جديد.. لم نر أمي تتقدم لتأخذنا إلى البيت.. ولم نسمع صوت أبي ينادينا في العتمة.. وكان مخي يشتغل بشكل غريب أنني كرهت البقاء في هذا المكان وفي هذا البيت بالتحديد.. وقلت لنفسي إنني لن استمر هنا.. لابد أن أهرب وأبحث عن حياة جديدة في مكان آخر، أين هو لم أكن أعرف ولم تكن لدي خطة واضحة.. المهم أن أنفذ ما يمليه علي تخيلي.

كان القطار قد اقترب من المحطة في البلدة.. ولم تكن تبعد الكثير عنا، أقل من كيلومتر.. هذا يعني أنني سألحق به.. وبالفعل صعدت في اللحظة التي انطلق فيها وجلست عند السطح بجوار صاحبي العجوز.. ورويدا كانت اهتزاز العربات يقل وسرعتها تزيد وكان لا يدور برأسي غير أمر واحد أن أنسى الماضي.. وقررت مع نفسي أنني سأذهب إلى العاصمة جنوبا، حيث توجد فرص للحياة كما أسمع من الناس.. حتما سأجد عملا أدبر به أموري.. الأهم أنني سوف أكون قد تخلصت من الأوجاع المستمرة مع هذا النكد اليومي.. ونسيت حتى تفوقي بالمدرسة.. فماذا سأفعل بها.. عاجلا أم أجلا سوف أغادرها لسبب ما.. فقد تكرر هذا المشهد مع أخواني.. فاستمراري في هذا الجو يعني أنني ذات يوم لن أكون قادرا على الاحتمال والصمود ولي في أخي الأكبر عبرة، فبعد أن كان متفوقا مثلي وكان مؤدبا، نفد صبره ذات يوم مع مضايقات أبي، فحمل السكين في البيت على البقية، وصار سكيرا كأبي ولا يفعل سوى أنه يطارد بنات الحي.. لن أجعل حياتي تمر بالمشهد نفسه.. كان هذا عهدي مع ذاتي عند سطح القطار.

واقع الأمر أن فكرة الهروب لم تكن جديدة كانت تراودني من مرة لأخرى خاصة مع شعوري المستمر بالغربة في هذا البيت.. أبي كان يستمر في أفعاله السيئة وأمي كانت لا تفعل شيئا تتخذ الحياد المؤلم.. أعرف أنها كانت تتوجع لكنها لم تكن قادرة على فعل شيء سوى ستر الحال كما تكرر القول دائما.. يعني لها ذلك أن تواصل العيش في هذا العذاب وأن تحفظ بيتها.. لا أدري أي بيت تتكلم عنه؟ هذا البيت أم آخر؟!..

كان القطار قد اقترب من المحطة الكبيرة بعد أن قطع مئات الكيلومترات في رحلة ظلت راسخة بذهني إلى اليوم.. كانت مصيرية ومجهولة العواقب لصبي كان يحلم بأن يجد ذاته بعيدا عن الجحيم.. قطع القطار عشرات المحطات، اكتشفت معها اتساع البلد الذي نعيش فيه.. كانت أول مرة لي أن أسافر خارج البلدة.. رأيت مناظر متنوعة، صحراء ممتدة بحدود الأفق البعيد تلامس السماء من كل جهة.. نهر يجري بمحاذاة السكة الحديد ولكن في الاتجاه المعاكس.. يختفي تارة ويظهر تارة أخرى.. مزارع خضراء.. أخرى قاحلة.. عربان يقودون جمال في مناطق نبت فيها العشب للتو.. أهرامات صغيرة متناثرة رؤوسها مهشمة كما لو أنها هبطت من كوكب فضائي.. سيارات صغيرة غاطسة في الرمال ورجال يشدونها بحبال في محاولة لإخراجها.. هذا هو بلدي.. بل جزء منه.. لا يساوي ربعه.. كما أدرك من معلوماتي الجغرافية في المدرسة. لدينا مليون ميل مربع.. ونحن بلد فقير.. يقولون هناك مساحات مغطاة بالغابات في الجنوب البعيد.. هل ترى سوف أراها ذات يوم كنت أسأل نفسي.. وأنا سارح في خواطري المشتتة لا أدرك كيف سيكون قدري؟ ما الذي سوف يحصل معي؟

دخلنا العاصمة.. المدينة الكبيرة، عرفت ذلك من العمارات الشاهقة التي بدأت تلوح أمامنا.. من زحام السيارات والناس.. والضجيج والدخان المتصاعد في كل مكان.. هنا الحياة ومنذ الوهلة الأولى تبدو فريدة لا تشبه ما يحدث في بلدتنا بالشمال.. فليس لدينا هناك مبان كبيرة وعالية

سوى ذلك البيت الذي يسكنه الحاكم المحلي.. وليس عندنا شوارع مسفلتة كالتي هنا.. كما أن الهواء أكثر صفاء.. لا تشعر بالاختناق.. والناس هناك يعرفون بعضهم البعض.. لو ضرط أحدهم لوصل خبره للجميع.. الوضع هنا مختلف.. يبدو الناس كأنهم في يوم القيامة.. كل يكلم نفسه، كأنهم مسرعون.. لأي سبب.. لا أعرف!.. كنت أراقب كل ذلك وأقارن من عند سطح القطار بين مسقط رأسي وهنا، قبل أن يبدأ الطقس المعتاد مع دخول المحطة بالنزول السريع إلى داخل العربات خشية الشرطة التي تبدأ في مطاردة ركاب السطح، فيتهاوى بعضهم ويتم القبض على البعض.. لقد شاهدت هذا مرارا في المحطات السابقة ونجوت منه.

كان تقليدي للعجوز الذي كنت أسير ظلا له سببا في نجاتي بالمرات الماضية، لكنه أين هو؟ لقد اختفي في المحطة قبل الأخيرة.. لم أكن أعرف أننا على مشارف المدينة الكبيرة إلا من حديث الركاب وهم يتنفسون الصعداء.. كل يلملم أغراضه وذكرياته عن أعالي القطار استعدادا لمهمة ما.. كم يا ترى منهم ليس في ذهنه من إدراك للقادم؟.. مثلي.. نظرت سريعا لا شخص في عمري.. كلهم كبار السن.. أقلهم يبدو في العقد الثاني من عمره.. وحدثت نفسي بأن أسرع لمغادرة السطح ودليلي للنجاة هذه المرة ما اختبرته من مهارات مع العجوز.

وفي اللحظة التي كنت أحشر قدمي اليسرى في المساحة المطاطة الفاصلة بين عربتين وأنا أتدلى عجولا في ظل مدافعات الجميع الذين كانوا يهرعون للنزول، كانت يد قوية قد أمسكت بي من أسفل وجرتني مثل حبل مربوط إلى حجر، فقد شعرت بجسدي يلتف في الهواء ثلاث مرات على الأقل قبل أن أقع على الأرض، في حين كان رجل آخر غير الذي أمسك بي يضغط على ظهري بحذاء ضخم.. ولم أعد أرى إلى أعلى مني فقد كان رأسي معفوسا إلى البلاط البارد في أرضية المحطة.. وبطرف عيني اليمنى وأنا أحاول أن أستدير رأسي بصعوبة بالغة، شاهدت شرطي القطار الذي كان يدوسني بلا رأفة، في حين كانت أنفاسي تتباعد وأشعر بالضيق الشديد، حتى ظننت أنني سأموت في الحال.

كان استقبالا سيئا.. ونهضت ليتم اقتيادي إلى مكتب صغير وراءه حجز بحديد مشبك، كان هنا المكان ضيقا واكتشفت أنني لست وحدي فهناك العشرات مثلي ممن تم القبض عليهم، الأمر الذي طمأنني، فما دام معك بشر فلن تشعر بالعزلة. المهم أن يكونوا أناسا طيبين ومحترمين كصاحبي العجوز حتى لو أنهم كانوا بخلاء.. كان الجوع قد ضايقني تماما وبطني تؤلمني وليس ثمة فرج قريب إلى أن ينتهي التحقيق مع المجموعة التي تقف في الصف أمامي.. وبعدها ماذا سيحدث لي .. الله أعلم.

كنت الصبي الوحيد بين المخالفين لأنظمة السفر.. ولم تكن من امرأة.. كلهم رجال.. وشعرت بالفخر أنني أصبحت رجلا أعاقب على جريمة ضد القانون لأول مرة في حياتي.. فقد سمعت أحدهم يسب ويلعن غير مبال بالشرطيين ولا الضابط الملازم أول كما يظهر من العلامة التي على كتفه.. كان الرجل يصرخ "أنها مفخرة لأي بني آدم أن يكون ضد القانون في هذا البلد".. وكان

آخرون صامتون في حين تمتم رجلان يؤيدانه بصوت مهموس لكنه مسموع للشرطي الذي كان يحرس الصف وهو يحمل سوطا بدأ به في ضرب الذين حاولوا إثارة الفوضى بعد كلام الرجل الثائر. حدثت بعض اللخبطة، ثم عاد الوضع للهدوء مع وقع السياط على الأبدان، ولم أنجو من الضرب.. كان مشهد أبي وهو يضرب أمي ويضربنا قد عاد أمامي مجددا مع وقعات السوط على جسدي الهزيل من العسكري الذي بدا لي كأنه يشبه والدي، حتى لكأنهما صبا في قالب واحد.. كان بشارب كثيف، حليق اللحية، له كرش مترهلة ومتمددة كالسهول التي عبر بها القطار.. كان يمسك بسيجارة ينفثها بيد في حين يضرب بالثانية متلذذا بفعله.

قال لي الضابط ساعة وقفت أمامه:

"سنطلق سراحك لو دفعت ثمن التذكرة.. هذا تكرما مني لصغر سنك"

أجبته:

"ولكن ليس معي..

نظر إلى مخلاة العجوز.. ما زالت معي.. لا أعرف كيف حافظت على وجودها طوال الوقت السابق، ولم تضع مع هذه المعمعات التي تعرضت لها.

قال لي وهو يشير إلى المخلاة:

"ماذا تحمل معك؟"

"لا أعرف!"

استغرب ردي.. بدا ذلك واضحا من خلال تعابير وجهه الذي تقطب جبينه العريض.. استدار من مقعده ليقف أمامي ويأخذ المخلاة مني بقوة مفرغا محتوياتها في الطاولة.. وقع أولا مصحف قديم ومن ثم مسبحة محلية الصنع من ثمار شجرة اللالوب.. لكنها من النوع الصغير.. ليس ذلك الطويل الذي يرتديه الدراويش في حلقات الذكر الليلية وهم يهيمون حبا في المصطفى.. ومن ثم سقطت رزمة من أوراق العملة.. كانت تلك مفاجأة لم أتوقعها.. كانت رقما كبيرا على ما يبدو.. ربما ألف جنيه فقد كانت كل ورقة من فئة العشرة جنيهات.. أظن أنها مائة ورقة جميعها.

ضرب الضابط على الطاولة بكلتي يديه.. كان مذهولا لرؤية المبلغ الضخم ولكن ليس أكثر دهشة مني.. أكان العجوز يحمل كل هذا المال ولا يدفع ثمن كوب شاي.. ولا يشتري طعاما له أو لي رغم ما كان يراه علي من ارتعاش متكرر بسبب البرد والجوع.. لا أظن أنه كان لا يفهم أني جائع. وقطع علي الضابط أفكاري، يسألني:

"هل هذا المبلغ لك؟"

"لا.. ليس لي سيادتك!"

"إذن سرقته.. يبدو أنك لص"

لم يتركني أجيب.. كان يطلق الاتهامات ويباشر في الإهانات بلا هوادة.. لم يكن المشهد غريبا عني فبيتنا في البلدة يقع قريبا من مركز الشرطة.. وكنت في أحيان كثيرة أرى من قبيل التلصص معارك تدور أمام المركز بين لصوص ومجرمين يتم القبض عليهم والضباط.. الأمر الذي جعلني أشعر أحيانا بأنهم كلهم مجرمون. الآن أنا في وضع المجرم.. وليس لي من دفاع فماذا أفعل؟

حاولت أن أوضح له أن القصة كلها.. أن هناك رجلا عجوزا كان معي في السطح.. أن الرجل كان.. أنني كنت أتبعه.. أنه سلمني المخلاة ولم أره بعدها.. أنه من المفترض، يكون قد خاب ظنه فيّ.. ورآني سارقا كما في التهمة التي يحاول أن يوجهها لي.. الواقع أنني لم أكن قادرا على الكلام أو التوضيح.. كنت ما أزال طفلا ليس لي من حيل عظيمة لمقارعة عالم الكبار.. والتزمت الصمت فالضابط لا يريد أن يفهمني كانت عيناه على الأوراق المالية فحسب.. لست صغيرا لأجهل ذلك.. "أن الناس تموت في الفلوس.. لا تهمهم الوسيلة.. المهم أن تكون الفلوس حاضرة أمامهم" كما سمعت أمي تردد ذلك كثيرا.

أخذني الضابط جانبا إلى مكتب آخر.. كان هناك باب صغير في القاعة الضيقة لم انتبه له منذ البداية، دخلنا عبره.. كان هناك ضابط أعلى رتبة يجلس وراء الطاولة يغطي وجهه بصحيفة.. أزاحها جانبا في حين كان يسمع لإفادة الملازم أول يخبره أنهم قبضوا على أصغر مجرم في القطار.. نظر الرجل نحوي كان يبدو عليه أنه مهذب بخلاف صاحبه، سألني:

"أين تعلمت السرقة.. يبدو أنك قادم من مكان بعيد؟"

"لست سارقا سيادتك.. أقسم بالله أنني لم أسرقها.. القصة أنه...

ورويت الحكاية كلها كما سردتها قبل قليل.. الرجل استمع لي دون أن يقاطعني.. ما أشعرني بالراحة النفسية مؤقتا.. انتهيت مما عندي.. كان قد أشار للملازم بهدوء جمّ ودون أن يتحرك في مقعده أن يضع المبلغ جانبا على الطاولة، وأن يعيد المصحف والمسبحة إلى المخلاة ويسلمها لي.. وقال:

"أذهب يا ولد ولا تكررها مرة أخرى"

لا مجال لكي أحاول إقناعه أن المال ليس لي وأن الرجل العجوز حتما ينتظرني في مكان ما بالمحطة في الخارج.. وأنه سوف يسألني عن المال.. أو أنه لن يصدقني مهما حكيت له.. سيتهمني بالسرقة.. لا مجال لأي حديث آخر سوى أن أنني أخذت المخلاة وخرجت في حين كانت نظرات الرجال في الصف تراقبني.. ما بين من يراني لصا ومن يراني قد خدعت.. ومن يرأف بي .. ومن لم يهتم بالأمر بتاتا.. وخرجت من عند الباب الحديدي مودعا الصالة الضيقة بآخر سوط وقع على ظهري من عند النسخة الثانية لأبي.

أحمل المخلاة بيدي.. بعد أن سرق منها المال عيانا جهارا.. أفهم الآن السبب الذي كان بسببه العجوز متذمرا من الأوضاع في البلد، وهو يتحدث عن الفساد والسرقات وأكل أموال الناس بالباطل.. ونظريته عن ضعف الإيمان.. هذا الضابطان كانا تجسيدا لما كان يتكلم عنه.. هما ليسا

ضعيفا الإيمان فحسب.. هما بلا إيمان.. بصقت على الأرض ومعدتي ما زالت تؤلمني.. لم يكن لي من وجهة محددة.. سوى أنني قد وصلت المدينة الكبيرة.. هدفي.. ومن ثم التفكير في باقي الرحلة.. وإذا كنت أفكر في أن أعثر على العجوز لأقدم له مخلاته من قبل، فقد تخليت عن هذا الهدف الآن خشية أن لا أصبح في نظره متهما.. قد يكون يبحث عني في المحطة، لهذا وبوجه السرعة كان علي أن أغادر المكان إلى الشوارع القريبة ومن ثم أسلك طريقا طويلا قادني إلى منطقة مزدحمة بالناس.. كانت هناك لافتات في كل مكان.. أسماء الشوارع.. عناوين المحلات التجارية والصيدليات والحلاقين والمخابز والمكتبات والمطاعم التي تذكرني بجوعي.. كان هناك باعة متجولون يبيعون ما يخطر بالبال وما لا يخطر.. كان هناك من يفرشون الكتب المستعملة على الأرض.. ومن يمارسون التسول.. نساء عميان يسرن ويتسولن.. مقعدون يسحبون عصيهم وهم يتشاكسون.. فتيات في مقتبل العمر وأُخريات كبار السن يستعرضن مفاتنهن بملابس ضيقة تكاد تكشف كل شيء.. صبيان بقمصان فضفاضة مزركشة وآخرون بحقائب جلدية ملونة وشعر مفتول يتدلى للخلف.. صبية متشردون يطاردون القمامة في صناديق الحاويات الكبيرة.. سيارات حديثة وأخرى متهالكة تصدر أصواتا مزعجة وشرطي مرور يقف في وسط مصطبة مرتفعة عند التقاطع، يرفع يده إلى أعلى وهو يصفر بقوة نافخا خديه بأقصى ما يمكن.. كان عالما فاتنا بالنسبة لي وأنا أرى كل هذا المسرح البشري أمامي، لكنني كنت مشغولا أكثر بجوعي وحيرتي بشأن الساعات المقبلة، فقد اختلت الرؤية عندي وأنهك جسدي.

كانت أمي تحكي لنا كثيرا عن شقيقها الأكبر الذي يسكن هنا في المدينة الكبيرة، والذي كنت شاهدته أول مرة في التلفزيون ببيت الحاكم المحلي، عندما أذهب أحيانا مع والدي. كانت تقول إنه يعمل مديرا للبنك الكبير في المدينة. تحكي لنا في أوقات مشتتة عن طفولتهما هي الأصغر منه بأعوام معدودات ربما خمس سنوات ليس أكثر. لديهما أخوة وأخوات آخرين لكنهم تفرقوا في البلاد، وخارجها. ليس لديها صلة مستمرة بهم.. نادرا ما نراهم أو نعرفهم جيدا. إلا مرة كانت قد ماتت جدتنا العجوز في القرية القريبة من البلدة غرب النهر فجاء أغلبهم، كانوا يقودون سيارات كبيرة ذات دفع رباعي، ويلبسون عمائم بيضاء مميزة وثياباً ناصعة، ويظهرون ابتسامات مبتسرة. عرَّفونا بهم هذا خالك وهذا.. وهذه.. ومضوا في اليوم الثاني بعد أن دفنوا والدتهم تحت الأرض. كان ذلك ربما قبل سبع سنوات. أتذكرهم بصعوبة بحيث يصعب علي استرجاع أشكالهم إن رأيت أحدهم مرة أخرى، كانت تلك هي المرة الثانية التي رأيت فيها خالي ولكن في الحقيقة وليس على الشاشة.

فكرت أن أبحث عنه، فربما كان عونا لي ينقذني من الماضي.. فقد كانت والدتي تقول إنه رغم كل شيء يظل رجلا طيبا، يكرم الناس ويعينهم ولا يبخل على من يصله في بيته.. كانت هي مرة قد سافرت إلى العاصمة وأخذت أحد أخوتي الصغار، وعادت لنا بمجموعة كبيرة من الهدايا والملابس والألعاب قالت إن خالي هو الذي اشتراها لنا.. كان أبي لا يحب ذكر أخوان أمي بخير

أو بشرّ.. وساعة تحاول أن تدافع عنهم لانقطاعهم كان نصيبها علقة بسوط العنج الطويل الذي يعلقه والدي في الغرفة الكبيرة من البيت، والتي لم يكن لنا سواها إلا مطبخ في ركن قصي.. تنال ضربا مبرحا من السوط الذي لا يتجرأ أحد على المساس به أو تحريكه من مكانه، فكثير من أهل البيت يتطوعون للإدلاء بالمعلومات فور وصول الجلاد.

لم يكن لي من معلومة سوى البنك الكبير.. إن استطعت الحصول عليه فسوف أُحصِّل خالي حتما.. لن أخسر شيئا سوف أصل إليه وسوف يهتم بي لا أظن أمي تكذب بشأنه.. وأنه نسبة لمشغولياته الكبيرة وموقعه من الحكومة لا يجد الوقت الكافي ليهتم بالآخرين.. وأن مجرد اهتمامه بعمله المهم فهو يخدم الجميع.. كان تردد مثل هذه الأقوال ولكن بعيدا عن سماع أبي. ومرة قالت إنه يحب كل من يحب الدروس المدرسية وينجح فيها، لقد كان متفوقا ودرس في الجامعة الأم في البلاد، في الوقت الذي كان فيه الذهاب للجامعات معجزة.. المهم أنه كانت عندي الدوافع التي تجعلني أفكر فيه كهدفي الأول في المدينة.. ربما سأجد في بيته المتكأ والراحة وساعة يعلم تفوقي وأنني الأول في المدرسة سوف يساعدني لأكمل تعليمي.. وسرحت أفكر هل عنده أولاد أو بنات في مثل سني.. هل أكبر وأتزوج إحدى بناته.. كان ذلك سابق لأوانه.. ولم أتذكر أن والدتنا حكت لنا شيئا بخصوص عدد أو أعمار أبنائه.. فقط كانت تتكلم عنه هو وتقول إنه بخير.. وكانت أحيانا تشتكي من زوجته وتقول إنها شرسة مع الغرباء، لكنه يسيطر على البيت وهذا هو المهم.

قاومت جوعي الذي اشتد.. وكانت الشمس قد سطعت تزيح سحب ركامية بعد الضحى، الأمر الذي قلل من قوة البرودة في الجو، خاصة أن حركة الناس الكثيفة كانت تولد حرارة عالية ملحوظة في المكان.. ومع ارتفاع آذان الظهر من مسجد كبير ببناء عال ورائع لم أر مثله من قبل، كنت قد وصلت إلى شارع أكثر كثافة من حيث المارة والسيارات التي تتداخل بينهم وهي تزحف ببطء. كانت ما أزال أحمل المخلاة التي أوجعت يدي، لكنني قررت الاحتفاظ بها فربما ظهر صاحبها العجوز.. أتمسك بها كدليل على أمانتي رغم أنه سيكون دليلا ناقصا.

بعد أن تحدد هدفي في الوصول إلى البنك الكبير قبل أن تحل الساعة الثالثة ظهرا حيث تغلق المصالح في البلد، كانت حركتي العشوائية في الشوارع قد باتت أكثر انتظاما، فقبلها لم يكن لي من خط سير محدد. استعنت بالمارة.. أسأل هذا وهذا وذاك.. وهذه.. كل يفيدني بشيء.. السؤال الذي نطقت به ربما للمرة العشرين؟ كيف أصل إلى البنك الكبير؟.. لا أحد يهتم بك كثيرا كما عندنا في البلدة ساعة تسأل عن موقع معين.. هناك يتطوع الجميع للإجابة على سؤالك وقد يصحبك العشرات لتدرك مبتغاك.. هنا لا يحدث ذلك.. ليس من مروءة ولا شفقة على صبي جائع وبائس كما يبدو من ملابسه الخرقاء.. اكتشفت أنها اتسخت قليلا وأن حذائي تعب وربما انقطع في أي لحظة.. كانت مغامرة غير محسوبة بكل المعايير قلت لنفسي ولعنت اللحظة التي شحنت دماغي بقرار الهروب، فجحيم أبي كان أهون. الآن سيكون أختي وأخواني قد عادوا للبيت وانتهت

كل الحكاية.. لقد تعجلت في فعل هذا. يجب أن أعود ولكنني أحتاج إلى المال.. هل أسافر مرة أخرى على سطح القطار.

في اللحظات التي يكون فيها المرء على وشك اتخاذ قرار شجاع.. تحدث أمور تعكس اتجاه الريح.. حدث ذلك معي لأنه بمجرد أن كدت أقنع نفسي بأن أعود مجددا إلى محطة القطار.. كانت لافتة كبيرة قد بدت أمامي مكتوب عليها.. البنك الكبير.. إذن هذا هو.. رغم أن الكثيرين ممن سألتهم كانوا يسخرون مني بقولهم توجد عشرات البنوك الكبيرة هنا، أي بنك تقصد يا فتى؟!.. كنت متأكدا لأنني أعلم دقة والدتي.. أنه يوجد بنك كبير واحد في حين توجد بنوك أصغر تتبع له أو هي أصغر منه، كالبنك الوحيد عندنا في البلدة.. لكن الناس هنا لا يقفون ليسمعوا لك أو يجادلون كما عندنا هناك.. كل يسارع إلى مبتغاه.

تأملت اللافتة التي يكاد طولها يفوق المترين وعرضها ربما سبعة إن لم تكن عشرة أمتار.. لم أكن لأرى جيدا مع الإرهاق والتعب وحرقة البطن.. كنت أتأملها وهي تقف صلبة محفورة الأحرف من الرخام على البناية العالية متعددة الطوابق.. أتأملها كما لو أنني الذي اخترعتها أو ركبتها أو أوجدت فكرتها.. كأن يحصل المرء على كنز كبير.. كانت تلك اللافتة العملاقة هي كنزي في المدينة الكبيرة.. الآن ستبقى أمامي الخطوة الأهم لكنها الأيسر بعد أن تأكدت من رجل الحراسة الذي يقف أمام البوابة العريضة الحديدية أن هذا هو المكان الذي أقصده.. أمي دقيقة في معلوماتها فعلا.. أشكرك يا رب أن وهبت لي والدة لا تكذب أو تزيد أو تنقص في الكلام حتى على أب جبار وقاس.

هذه اللافتة هي خلاصي إذن.. كنت أكلم نفسي.. وكان رجل الحراسة الذي يبدو شابا صغير السن.. ربما ليس أكبر مني بكثير.. يقف بشوشا، هذا يعني أنهم يدفعون له أجرا طيبا، وإلا لما كان دائم الابتسامات.. تخيلت أنني أقف هنا.. لا أحب أن أزيحه من موقعه.. أعني أنني سوف أنسى موضوع المدرسة وأن خالي سوف يجد لي وظيفة في هذا الصرح العملاق.. فقد رأيت العشرات من البشر يخرجون ويدخلون.. وسيارات تقف وأخرى تغادر.. وصناديق كبيرة يحملها رجال عتاة.. يبدو أنها محملة بالمال.. فأنا أفهم قليلا في هذه الأمور من مشاهداتي في سوق البلدة، عندما يأتون بواحد من مثل هذه الصناديق للبنك الوحيد هناك.. لكنه أصغر من هذه بكثير. قلت إذا أن خالي يحكم هذه المملكة الكبيرة، ويعيش في نعيم.. وهو بلاشك رجل مهم جدا في الدولة.. وألا لما رأيته في تلفزيون بيت حاكم البلدة قبل سنوات.. وهو يتكلم وراء ميكروفون في قاعة فخمة يلقي خطبة ما.. لم أفهم عما تدور.. كان هناك بشر كثيرون في تلك القاعة بعضهم يحمل مفكرات صغيرة منكب على التدوين لما يسمعه.. ودار بذهني سؤال لم أعرف له إجابة، إذا كان خالي بهذا الثراء وهذه الوجاهة فلما أهمل أمي وتركها لأبي، لماذا لم يساعد شقيقته الفقيرة والبائسة.. هي أمي.. لكنني أعرف بؤسها جيدا..

قال لي الشاب الحارس ذو الابتسامة المرحة:

"نعم هذا هو البنك الكبير.. هل تريد أحدا ما؟"

قلت له:

"خالي يعمل هنا.. إنه الرجل الكبير هنا.. هل يمكن أن أراه؟"

انفجر الحارس ضحكا.. فبدا لي هذه المرة قليل الأدب، يبدو أنهم في هذه المدينة يخيبون الظن جميعا.. فالضابط الأعلى الذي ظننت في البداية أنه سينتصر لي أخذ أموال العجوز.. وأثبت العكس تماما.. وهذا الشاب كان يبدو طيبا وهو الآن يستهزئ بي.. لا يصدق أن يكون صبيا على شاكلتي له قريب هنا.. بل الرجل المهم والأول.. ولم يتركني أمضي في الصمت، قال لي:

"تعني أن سعادته خالك.. لماذا لا تجرب أن تمسح حذائي هذا"

ورفع حذاءه من نوع البوت في الهواء عاليا قبل أن يضرب ضربتين بقوة على البلاط.. ويقهقه قهقهات عالية تلاشت في الهواء البارد.. مع الضجيج في الشارع.. لا أحد يسمع لأحد هنا.. ثم صرخ في:

"هيا أبعد عن هنا أيها المتشرد"

كان منظري يعكس حالة صبي متشرد حقيقة.. ولا مجال لكي أحاول إقناعه بالعكس.. وتيقنت أن التمادي في الإلحاح عليه بأن يسمح لي بدخول المبنى لن يجدي نفعا.. وخطرت لي فكرة أن ابتعد عنه وأجلس في مكان يسمح لي بمشاهدة بوابة الدخول الرئيسية.. إلى أن يخرج خالي.. فهو لن يظل هنا إلى الأبد.. وساعتها سوف أهرع إليه وأناديه.. هل سيتذكر شكلي.. فقد رآني في يوم وفاة جدتي.. أمه.. لا اعتقد أنه سيتذكرني فهو لم يمكث طويلا.. فقط بقي ليوم واحد وعاد، كما أنه لم يقابلنا أنا وقطيع أخوتي سوى لثوان، سلمنا عليه صفا طويلا فعددنا كان كبيرا، وأنضم لنا أولاد الأقارب ومن ثم تم إبعاد جميع الأطفال.. فقد كان الرجل محاطا بالمئات من البشر ممن جاء أغلبهم بهدف مصالح شخصية قبل التعزية.. من يبحث عن وظيفة لابنه أو من يريد أن يتعالج من مرض مستعص ويبحث عن تبرعا ماليا وهكذا.. هو لن يتذكرني إذا، لكن سأتذكره أنا جيدا فقد أمضيت ساعات طويلة يوم المأتم في التلصص ومراقبة كل ما يدور حوله وأنا أقدم الماء أو الشاي للمعزين، باعتباري من الصبية الذين يعتمد عليه في العمل ولديهم ملكة الصبر بخلاف الآخرين.

وأخيرا مع تقدم الوقت واقتراب نهاية يوم العمل.. كنت قد تأهبت جدا لكي أراه وهو يغادر إلى موقف السيارات.. كانت هناك سيارة سوداء اللون، فخمة ومبجلة دون غيرها من السيارات، حيث تقف في مكان خاص محاط بسور من الشبك الحديدي وحولها مساحة خضراء ملونة بالزهور.. وكان هناك ثلاثة رجال يشرفون على غسل السيارة وتلميعها.. ولكي أتأكد أنها تتبع للمدير الكبير.. خطر لي أن أراجع لافتات صغيرة معلقة عند المواقف أعلى المظلات.. وكان توقعي صحيحا، فقد كان مسطرا بالأبيض على خلفية زرقاء في لوحة صغيرة "موقف مدير البنك" مكتوبة بالعربية والإنجليزية، قرأتها دون الحاجة للاقتراب منها حتى لا يلاحقني الحارس الذي كان قد أبصرني

قبل قليل ولابد أنه بدأ يرتاب بشأني وربما يعود ليطردني بعيدا جدا ما سيعطلني عن تحقيقي مرادي.

تأخر الوقت كثيرا.. جاء العصر.. سمعت الأذان ينطلق من عدة مساجد بما فيها المسجد الكبير.. لم أكن قد صليت.. أحرص على الصلاة.. لكني لم أصل منذ الأمس.. أحسست بضيق لأنني لم أقم بالواجب الرباني.. ولكن إذا ذهبت الآن للصلاة فربما أخسر اقتناص خالي، الذي ربما تأخر لعمل ما.. من الممكن أن لديه عمل متراكم.. فهذا المبنى الكبير لاشك أن فيه مئات الموظفين وهذا يعني أن الرجل مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة.. ولابد أن هذا يستغرق وقتا طويلا.. أمي تقول إن خالي يتأخر أحيانا كثيرا في الوصول للبيت للغداء.. كانت تحكي ذلك ضمن ذكريات رحلتها إليهم.. هذا يجعلني أطمأن أن الفرص لم تذهب والأمل باق.

وفي اللحظة التي كان قد تملكني فيها الإعياء بسبب الجوع تلك الآفة الغريبة التي تعطل نشاط الإنسان.. كان ثلاثة رجال مسرعين قد وصلوا إلى موقف السيارة السوداء، فتحوا الأبواب وشغلوا المحرك.. وتبعهم رجل فارع الطول يلبس بذلة زرقاء أنيقة وربطة عنق لم أتبين لونها من اختلال نظري بسبب الإرهاق.. كان يهرول أمامه رجل قصير القامة ممتلئ الجثة يحمل حقيبة دبلوماسية سوداء.. عرفت هذا الرجل من شكله المميز وطريقة مشيه فقد كان أعرجا.. وهو يقفز بين كل خطوتين.. كان قد جاء مع خالي في يوم العزاء.. وكان يقف أمام سيارته وقتذاك يهش الصبية عنها كما يُهش الذباب عن الطعام.. كانت الصورة واضحة أمامي فهذا خالي إذن.. الرجل الطويل ذي اللحية الصغيرة المنمقة.. ربما لأنه في ذلك اليوم قبل سبع سنوات كان يلبس جلبابا وعمامة.. ولهذا بدا لي غريبا في الوهلة الأولى.. شكرا لهذا القصير الأعرج الذي حل المعضلة.. قلت لنفسي.

أشعل الرجل الطويل غليونا في اللحظة التي اقتربت منه بسرعة صاروخية وأنا أصرخ:

"خالي.. خالي.."

كان الحارس قد وثب بقوة اتجاهي قافزا فوق السور الحديدي، في حين تأهب الرجال الأربعة بما فيهم الأعرج الذي كوَّر يده استعدادا للكمي.. على اعتقاد أنهم استغربوا من هو هذا البائس الذي ينادي السيد المدير.. لا يمكن بأي افتراض كان أن يكون ابن أخته على هذه الشاكلة الوضيعة.. لكنها هي الحقيقة.. وتدخل خالي ليحسم الأمر، مشيرا بكفه اليمني في وضع يدعو للابتعاد.. وبالفعل تباعدوا عني.. كان قد دعاني للاقتراب منه.. نظر إلي بابتسامة عريضة تكشف عن ملامح رجل طيب.. خشيت أن تتكرر التجارب السابقة.. لهذا قررت هذه المرة ألا أثق في التفاصيل الأولى للقاء.. يجب أن أتريث حتى أرى ما سيحدث.

كان الرجل قد عرفني.. بل ناداني باسمي:

"تعال.. لا تخف تعال"

بل أنحنى قريبا من الأرض وطبع قبلة على خدي المتسخ.. شعرت بدفئها وأن للحياة عمق جديد سوف يبدأ في التشكل اليوم.. وتذكرت أن أمي تظل دائما دقيقة كعهدها.. فقد كانت تؤكد أن

خالنا طيب ورقيق القلب لولا ظروف الحياة التي تجبر كل إنسان على اتخاذ طريقه في هذا العالم..

كانت لخالي ذاكرة خرافية تسجيلية.. اكتشفت ذلك منذ تلك اللحظة ولاحقا تعمقت معرفة ذلك الأمر بالنسبة لي. كان يحفظ كل صورة أمامه ولا ينساها البتة.. ربما طبيعة عمله مع الأرقام والحسابات.. أو أنها موهبة اختصاه بها الله. عرفت أنه يحفظ أسماء أخواني وأخواتي ويحمل تصويرا لهم في ذهنه.. سألني قبل أن يفهم كيف وصلت إلى هنا:

"هل أمك بخير؟"

"هي بخير..

"هل توقف أبوك عن ضربها في الليالي؟"

شعرت بالخجل أنه يعرف قصة الضرب.. لكن إذا كانت كل البلدة تعرف ما الغريب في أنه يدرك ذلك فلا خبر يدس.. قلت له:

"هذا هو السبب الذي جاء بي إلى هنا"

كنت صادقا معه.. أحسست بأنه يريد أن يعرف الحقيقة وأن مشاعره معي نبيلة.. كان بإمكانه أن ينساني أو يتقاضى عني أو يهملني.. اهتمامه أعطاني إحساسا بالأمان.. ولهذا لم أتردد في إخباره بالقصة كاملة.. لماذا أنا هنا!

كانت السيارة السوداء قد انطلقت وأنا أجلس بجواره في المقاعد الخلفية.. وكان السائق الأعرج يسير بسرعة جنونية، حتى أنني خفت.. في حياتي لم أركب سيارة بهذه الرحابة والسعة والفخامة.. لكن السرعة تخيفني.. قارنت بينها وبين سيارة والدي المتهالكة التي يحضر بها المستلزمات والأغراض اليومية لمنزل حاكم البلدة، كل صباح.. يمكن أن تكون سيارة الحاكم الخاصة مميزة لكنها ليست كهذه لا مقارنة أبدا بينهما.

طوال الطريق إلى بيت خالي.. كان قد سألني أسئلة كثيرة.. عن كيف وصلت هنا.. وعن سبب هروبي.. وعن وضعنا في البيت، تحديدا أمي.. وعن أبي ولعناته المستمرة كما وصفه.. وعن أخوتي ماذا يفعل كل واحد.. وكان يعلم بأنني متفوق في الدراسة.. ووعدني بأنه سيرتب كل شيء.. ونحن نستعد للنزول عندما انفتحت بوابة كبيرة بواسطة رجل كبير السن، وتوقفت السيارة داخل فناء واسع محاط بحديقة خضراء وأشجار النيم والنباتات المتسلقة، كان قد قال لي:

"أحمد الله أنك خرجت من ذلك الجحيم.. لا تقلق"

إلى الآن تبدو الأمور بخير.. خالي لن يكون نسخة مكررة من الضابط الأعلى وحارس البنك.. الذي سوف يغير رأيه عني.. لقد كان مذهولا وهو يراني أركب بجوار مديره في السيارة السوداء.. كان ينظر إلي باستغراب، تقريبا هو غير مصدق لما يجري، كأنه يشاهد فيلما سينمائيا.. في أيام تالية ربما عندما أذهب إلى البنك سوف يهتم بي كثيرا وسوف يعتذر لي وسأقبل اعتذاره.

استيقظت من هواجسي مع ضربة خفيفة من السائق الأعرج على كتفي.. كان يداعبني بها وبدا لي لطيفا بغير ما الطريقة التي هاجمني بها سابقا ساعة شمر ساعديه استعدادا لتلقيني درسا في الأدب كمتشرد أو شحاذ عليه احترام علية القوم.. كان قد أخرج من الصندوق الخلفي للسيارة زجاجتين ملونتين بهما مشروب، قدم لي واحدة وتجرع الثانية مرة واحدة لم ينزلها عن فمه إلى أن أفرغها .. كنت أسمع صوت تكرعاته.. في حين دلف خالي إلى البيت الكبير عبر باب محاط بالأزهار..

كان ذلك العصير اللذيذ قد خفف حدة الجوع عندي.. بدأت أرى أفضل من ذي قبل.. رأيت أمامي مبنى عريضا مطليا باللون الأبيض في حين كانت الأبواب بالأزرق الخفيف.. كانت هناك نافورة تسكب الماء أمامنا على حوض دائري وعلي يميني صندوق شبكي كبير به طيور ملونة بينها ببغاء لطيف، كان ينظر نحوي كأنه عرف أنني جديد على المكان وهو يحاول تقليد طريقة إمساكي بزجاجة العصير المنعش.

نمت ليلتي الأولى في بيت خالي لكنها كانت مضرجة بالأحلام القاسية، ربما الإحساس بالألم والحنين إلى البيت الذي جئت منه حتى لو أن الحياة هناك لم تعد تهمني كثيرا. غير أن أكثر ما أرهقني وجعلني استيقظ قبيل الفجر عدة مرات.. ذلك الحلم الذي ظل يطاردني والذي كنت أرى فيه العجوز الذي رافقني على سطح القطار يقف في المحطة الأخيرة ينتظرني ويسألني أين مخلاتي ويؤنبني أنني لم انتظره بل سارعت بالهروب من المحطة ولم يكن مستعدا لسماعي. وفي اليوم التالي راودتني فكرة أن أذهب إلى المحطة لأبحث عنه وبالفعل نفذت ذلك، حيث أخذني السائق الأعرج الذي صار صديقي بلا مقدمات مطولة، أخبرته بما جرى، وأنني أشعر بالذنب، لم يعلق كثيرا. وصلت عند الرصيف. انتظرت كثيرا ولكن لا أحد جاء، كنت فقط أحاول أن أرضي ضميري وأزيح تلك الكوابيس عني.

في الليلة الثانية جرت الأمور على ما يرام. كنت قد نمت مبكرا بعد عناء نهار طويل مضى في ذلك الانتظار.. عاد العجوز في النوم ليشكرني على تكبد المشاق، وأخبرني أن المال لا يهمه كثيرا وأوصاني بأن احتفظ بالمخلاة والمصحف والمسبحة لأن فيهما خير لي. وكان علي أن أنفذ الوصية التي ألحت علي، كان الحلم يتكرر معي عدة مرات قبيل الفجر أيضا واستيقظت لأصلي حاضرا في المسجد القريب من بيت خالي. كان الحارس العجوز قد فتح البوابة وسار بجواري إلى الصلاة لكنه لم يتكلم معي أبدا طوال الطريق في رحلتي الذهاب والعودة. فقط كان يتمتم مع نفسه إلى أن اقتربنا من البيت سألني فجأة:

"ما الذي جاء بك إلى هنا؟"

هل أحكي له قصتي.. وهل يمكنني أن أثق فيه؟ ليس عندي إجابة.. يجب ألا استعجل في بناء علاقتي مع الناس هنا هذه وصية السائق الأعرج.. كما أنه من الضروري أن يكون الإنسان واضحا ولا يجامل، فالثقة المفرطة في الآخرين تنقلب إلى نتيجة عكسية تماما. كان يجب أن أعمل بهذه النصيحة مع العجوز، فكرت قليلا قبل أن أرد عليه بسؤال:

"ما الغريب في وجودي هنا؟"

كان العجوز بغير ما بدا عليه في البداية أيضا من هدوء، هم جميعهم في هذه المدينة.. ينقلبون فجأة.. رأيت علامات الغضب قد بدت على وجهه وهو يزبد قائلا:

"أنت ولد قليل أدب.."

أغضبني نعته لي بقلة الأدب، وآثرت أن أبدو متماسكا.. كان أن صمت وأخذت طريقي إلى الجزء الخارجي من البيت في الصالة الرئيسية للضيوف.. كان خالي جالسا هناك، يبدو أنه استيقظ مبكرا، وكان يقرأ في كتاب ويدخن غليونه، دعاني للجلوس بجواره.. ترددت أن أخبره بما

جرى مع الحارس.. وقررت ألا أتعجل وأن أترك الأمر للوقت.. فإذا تكررت الإهانة فسوف أقوم بخطوة ضده.. لا أظن خالي سوف يرضى عن ذلك..

كانت تقديراتي لكثير من الأمور في البداية غير صحيحة.. لأنه مع الوقت سوف تظهر الأشياء على حقائقها.. المهم.. أنني قضيت الأيام الأولى في الجزء الخارجي من البيت المخصص للرجال والذي كانت فيه تلك الصالة الواسعة التي تعود خالي على الجلوس فيها فجرا للقراءة.. كان يقرأ كتبا في موضوعات مختلفة.. وأكثر ما يقرأ باللغة الإنجليزية.. أنا كان لي اهتمام بالقراءة في الماضي.. لكني لم انشغل بكتبه أبدا.. كنت مشغولا باستكشاف هوية الناس الذين في هذا المكان والذين بدا لي كل واحد منهم عالما لذاته.. الكل هنا يعيش في عالمه الخاص كما لاحظت دون أن أحتاج لوقت طويل لمعرفة ذلك.

في الجزء الخارجي حيث نمت كانت توجد غرفة صغيرة بها نافذة واحدة وسرير من الحديد.. عليه فرش طري.. وهناك مكيف هواء لست في حاجة إليه لأن الجو كان باردا.. في بيتنا هناك ليس لدينا سوى مروحة معلقة في السقف المرتفع للغرفة الكبيرة التي تجمع الأسرة.. الغرفة هنا أيضا بها تلفزيون موصول بلاقط خارجي.. لكنه من النوع القديم.. وعرفت أن هذه المساحة كانت مخصصة أصلا لابن الحارس العجوز الذي يقيم بالبيت لكنه الآن في رحلة لأمه وأخوته في بلدتهم بوسط البلاد، يذهب إليهم بالمال بعد عدة أشهر.. عرفت ذلك بعد يومين من السائق الأعرج، عن طريق الصدفة.. فوجدت تفسيرا لعدم رضا العجوز عني وسؤاله الاستنكاري..

خلال عدة أيام تعرفت على أفراد البيت تقريبا إن لم أكن قد أخطأت أو أن هناك أناس آخرين يمكن أن يظهروا في الأيام المقبلة.. الحارس العجوز والطباخ وكانت هناك السيدة الكبيرة.. هي في الأربعين تقريبا ربما أقل أو أكثر بقليل ليس بمقدوري التحديد.. لم اقترب منها أو أسلم عليها.. كانت مهيبة ومخيفة وهي تلبس أثوابها المزركشة وتصب عطرها الفواح المصنوع من تركيبة محلية وتتقافز بسهولة بحذائها العالي الذي يصنع صوتا ارتطاميا بالأرضية المبلطة بحوش البيت.. تخرج عادة في المساء مع خالي ولا يعودان إلا في وقت متأخر ليس قبل الحادية عشر ليلا.. كانت كثيرة الصراخ ومتواصلة اللعنات ما أن تدخل البيت ويكون خالي سائرا وراءها كالعادة إلا وتهتز الجدران والأشجار وأشعر برهبة تهز جسدي الهزيل أيضا فأسرع للاختباء في غرفتي.

كان صعب علي وأنا في الغرفة اكتشاف الموضوعات التي تثير نقاشها مع خالي الذي يظل صامتا في الغالب. أو معرفة سبب تذمرها وارتفاع صوتها.. ولم أكن راغبا في التصنت لكي أفهم.. فنادرا ما يثيرني حب الفضول.. وفي هذا الليل حيث كانت نهاية الأسبوع عادا متأخرين أكثر من اللازم.. كان صوتها أكثر ارتفاعا عن ذي قبل.. كنت أنا جالس في الحديقة الخارجية مع العجوز نشرب شايا سويا، أعده الحارس الذي بدا في ملاطفتي مجددا ومن تلقاء نفسه دون حاجة للرجوع إلى ما حدث في ذلك الفجر.

تداعى صراخها العالي وجلجل في سكون الليل، سمعتها تحتج قائلة:

"هل تريد أن تحول هذا البيت إلى ملجأ لأهلك الصيع!"

كان خالي لا يرد.. كعادته لا يرد.. فقد حفظت سلوكه هذا من الليالي السابقة.. كان يحاول أن يتكلم ليقول شيئا ما دون أن تدع له الفرصة، تسرع للصراخ بمزيد من إطلاق الصفات البذيئة على أمي وأبي وأهلي والبلد الذي جئت منه.. كلمات على شاكلة.. متخلفون.. فقراء.. أنذال.. ناكري جميل.. وغيرها..

كان الحارس العجوز قد شفط الشاي بقوة غير مبال بما يجري.. نظرت نحوه في محاولة مني للتغاضي عما أسمع من إهانات جلية، في حين كان الصراخ يتباعد مع خبط الحذاء العالي إلى أن اختفيا في الجزء الداخلي البعيد من البيت.. والتفت الحارس ليقول لي:

"إذا كنت تريد الاستمرار هنا فتعود على هذا الوضع"

خلال يومين كانت علاقتي مع العجوز قد توطدت خاصة أنني كنت قد بدأت في مساعدته في أمور تتعلق بعمله مثل تشذيب الحديقة المنزلية أو رعاية الطيور أو تلميع الأرضيات الخارجية بعد كنسها. في الوقت نفسه كان السائق الأعرج يأتي النهار ليأخذني في مشاوير معه في المدينة.. كان يذهب إلى مبان كثيرة يدخل ويخرج في حين أبقى أنا في انتظاره بالسيارة دون أن أتعرف على طبيعة ما يقوم به.. اعتقد أنه يؤدي أشغالا تخص خالي فيما يتعلق بعمله كمدير للبنك الكبير..

غير أنه بطريقته المعتادة في إطلاق الكلام على عواهنه دون انتباه لما يقول كما فهمت في البدء، أو ربما يتقصد توصيل أفكار معينة تدور برأسه بطريقة غير مباشرة.. لا أدري.. كان قد قال لي بعد يومين من الإهانات الليلية التي سمعتها، ونحن عائدان باتجاه مبنى البنك من عدة مهام كان قد قام بها:

"أتحب أن تعمل معي؟"

أطرقت قليلا.. كانت الفكرة جيدة.. فالمدارس مغلقة وهذا يعني أن أمامي زمن يمكن أن أكسب فيه مالا.. ومن ثم إذا جاء موسم الدارسة سيكون عندي ما أدبر به حالي، ولكن ماذا سأعمل معه؟.. قلت له:

"فعلا أحتاج للمال.. لا أريد أن يقوم خالي بكل شيء تجاهي"

فجأة.. كأنه اكتشف أنه ما كان ليطرح هذا الموضوع، قال لي:

"لنؤجل الأمر.. إذا أردت مالا سوف أقدم لكَ ما يكفيك"

وصلنا إلى البنك.. كان الشاب الحارس يقف في موقعه المعتاد.. أسرع من أمام البوابة ليسلم علينا، بعد أن أطفأ سيجارة كان يدخنها قبل أن يكملها.. كان مرتبكا بعض الشيء.. واعتذر بأنه لم يكن يعرف في المرة السابقة من أكون.. وأنه تهرب مني في الأيام الماضية لأنه كان يخجل من نفسه لما بدر منه يوم شكك في قرابتي بالمدير. تولى السائق الرد عليه قائلا:

"اذهب يا وقح ربما جاء لص ليسرق البنك.. وأنت تمثل دور المحترم"

لم يتكلم، غفل راجعا إلى موقعه.. نظر الأعرج نحوي قال لي:

"ألم أخبرك.. كلهم هكذا.. لا تثق في أحد هنا"

كان الأعرج يقوم بمهام البيت أيضا يشرف على إحضار الخضار واللحم والخبز والفواكه والبيض.. كل شيء تقريبا.. كذلك كان يتولى توجيه الأوامر للحارس العجوز والطباخ الشاب الذي يحضر في نهاية النهار ويقوم بعمله في ساعتين ويضع الطعام في ثلاجة كبيرة في المطبخ الكبير في الجزء الخارجي من البيت.. ثم يذهب.. لم تكن لدي معه علاقة وكان لا يهتم بشيء سوى عمله وكان دقيقا في توقيته مثل ساعة.. وعندما يكلمه الأعرج لا يرد عليه في الغالب فقط يكتفي بأن يحرك رأسه دليل الموافقة على ما يقول وأحيانا أشك أنه سمع جيدا.

كان الوقت قبل الظهيرة بقليل عندما خرجنا بعد ساعة من البنك.. دون أن أدخل مكتب خالي، فقد بقيت في مكتب صغير كان الأعرج يضع فيه أغراضه.. ليس فيه سوى طاولة وكرسيين وصورة كبيرة معلقة على الحائط لرئيس البلاد.. جلست أتأملها أفكر في مصائر أيامي المقبلة، إلى أن عاد الرجل من جولته بالمكاتب.. كان صوته يذهب ويأتي كأن ثمة ريحا تأخذه وتجئ به.. يرد على تحية هذا بعجرفة ويوجه تهديدات إلى آخر.. وهكذا.. كان من يراه يحسب أنه المدير الأصلي للبنك وأن خالي مزيف يجلس عن طريق الخطأ في مكتب المدير. كان الأعرج مهابا والكل يحاول أن يكسب وده كما فهمت من فترة وجيزة..

قال لي ونحن نركب السيارة، لا أعرف إلى أين سيأخذني هذه المرة:

"هذا البلد يقوم على النفاق.. إن لم تكن كذلك لا تنجح"

وضربني بلطف على كتفي مستأنفا:

"أحاول أن أعلمك دروسا تفيدك في مستقبلك يا ولد"

ابتسمت.. دون أدنى قناعة أو تجاوب مع فكرته دون أن أفهم السبب.. لا يتعلق الأمر بأن ما ذهب إليه خطأ أم صحيح.. بل لأنني ومنذ سن مبكرة كنت أشعر بأنني يجب أن أكون مستقيما في حياتي.. دون أن أكون قادرا على إيجاد المنطق اللازم لذلك.. أو الإدراك هل بإمكان الإنسان أن يتحكم في ذاته ومساراتها في الحياة وسلوكياته أم لا.

كان الوقت مبكرا على عودة خالي إلى البيت، ففي هذه الأيام كما فهمت من الأعرج أنهم يغلقون حسابات العام ويخططون لموازنة العام الجديد وهذا يستدعي بقاء الخال إلى قبيل المغرب.. كانت السيارة قد انطلقت بسرعة جنونية بدأت أتعود عليها، ولم نتوقف إلا بعد ربع ساعة تقريبا أمام مكان معروش قريبا من شارع فرعي وراء الطريق العام الذي يجاور المطار الرئيسي للبلاد، عرفت ذلك لأن الطائرات كانت تبدو أمامي وهي تجسم على الأرض. كانت أول مرة لي أرى طائرة حقيقية قريبا مني. ويبدو أن الأعرج كان يختلس النظر نحوي، فقال لي:

"يوما ما سوف تسافر في واحدة مثلها.. لا تفكر فيها كثيرا"

دخلنا مطعما صغيرا جدا في شبه زقاق، به بعض الزبائن الذين يتناولون الساندويتشات، بعضهم يأكل وهو واقف لأن المكان لا يسع.. شخصيا لا أفضل أكل الشطائر أحب أن أُكل من الصحن مباشرة وبيدي كما تعودت في بيتنا نتقاتل على الوجبة جميعنا كأننا في حرب، ونادرا ما يشبع أحدنا.

كان هنا رجل في منتصف الخمسينات من عمره تقريبا.. أنيق بلحية بيضاء مشذبة يجلس على كرسي وثير في مدخل المحل، أثار انتباهي بلون بشرته الحمراء، وبابتسامته المرحة التي تشعر بالفرح لولا أنني لم أعد أثق في الابتسامة الأولى كما تعلمت في أقل من أسبوعين.. كان الرجل يرد على تحية الداخلين.. عرفت من الأعرج ونحن نتناول ساندويتشين من الشاورما التي أكلها لأول مرة أن هذا الرجل من تركيا.. وأنه صاحب هذا المحل، لكن قلة من الناس التي تعرف هذا المكان جيدا. قال لي:

"يذهبون إلى مطاعم أقل حالا وبائسة ويدفعون مبالغ أكثر.. هنا الوضع جيد والسعر مناسب"

سألني:

"هل لديكم في البلد مطعم يقدم الشاورما؟"

لم يكن يسألني.. كان يسخر.. فهو يعرف الإجابة.. شعرت بالخجل من حال بلدتنا، أجبت:

"أول مرة أتذوقها.."

"هل أعجبتك"

"ياه.. هي رائعة"

لم أكن أكذب فقد كان ذلك الساندويتش من الشاورما عجيبا جدا.. لم أذق مثله من قبل.. ربما لأنها المرة الأولى.. المهم أنني قلت الصدق وأنا أسمع باقي إفاداته عن ضرورة الاعتناء بالمال، فكما يتعب عليه الإنسان في جمعه عليه أن يعرف كيف يوظفه بشكل سليم. كان يدخل المال في أي حديث تقريبا.. انتبهت لهذا الشيء فيه.. ولم أكترث به فهذه عادته.. رأيته يأكل نهما وتناول المزيد من الساندويتشات وعصير الكوكتيل المنعش.. كان الرجل يحب العصائر جدا. ألح علي بالمزيد مثله فرفضت لأنني شبعت حقا، فبطني لم تكن سوى وعاء صغير.

بعد أن فرغنا ونحن نقف بجوار السيارة تحت شجرة نيم، كان قد أشعل سيجارة.. كان يدخن أحيانا ولكن ليس كثيرا أو أمام سيده المدير، جذب نفثا عميقا كمن يتلمس مجهولا، وقال لي بعد صمت:

"أريد أن أطلب منك شيء.."

"تفضل، ماذا تريد؟"

"قبل ذلك.. هل توافقني أننا أصبحنا أصدقاء!"

نظرت نحوه وابتسمت.. ففهم أن ذلك يعني موافقته الرأي.. قال لي:

"سنكمل في السيارة.. تعال"

قفزت إلى السيارة بصعوبة، فهي عالية جدا قياسا لطولي.. أدار المحرك وظل يتكلم دون أن يتحرك إلى الأمام.. كان قد شغّل كاسيتا أخرجه من جيبه على مسجل السيارة لأغنية مشهورة لفنانة شعبية، وبدأ يتمايل ويرقص قبل أن يخبرني:

"سأعطيك ما تريد من المال وكل شيء تطلبه.. فقط لدي طلب واحد.. اسمعني جيدا"

ركزت لأسمع ما سيقوله مع شعوري بالاضطراب قليلا. ماذا يريد مني..

"يجب ألا يعرف خالك بتحركاتك معي.. هل تفهم ذلك؟"

"لكن اعتقد أنه يعرف أنني أخرج معك.."

"أعني إذا سألك أين كنت. أين ذهبت.. المقصود أين نذهب.. هل تفهم ذلك.. إذا واجهك بسؤال مثل هذا فأبحث عن إجابة أخرى!"

"لكن هناك ربما من سيخبره.. ربما يحدث ذلك؟"

"لن يحدث ذلك.. أتقصد أن أحد سيتلصص على خطواتنا ولما هل نرتكب جريمة!.. ومن هذا الذي سوف يفعل ذلك.. تعني من.. هذا العجوز الحارس.. أو حارس البنك.. أو .. هم لا يفهمون شيئا في الحياة جميعهم.. والأهم أنه لا أحد منهم يتكلم كلهم تحت طاعتي.. جبناء.. إفهم ذلك.. وأنت أيضا عليك أن تطيعني هل تفهمني.."

العبارات الأخيرة المتعلقة بطاعته قالها مازحا.. هكذا بدا لي.

كنت أعني ما أقول. لم أكن جاهلا رغم صغر سني.. ربما سوف يفهمني.. أم لا.. وخشيت أن أتورط بأن أشرح له أن المقصود بسؤالي عمن سيخبر خالي، السيدة الكبيرة.. فهي لا ترغب في بقائي بالبيت وقد تكرهني لأنني جئت من الناس الذين لا تحبهم، أقارب زوجها.. ولهذا ربما تجسست على خطواتي أو ضايقتني.. وآثرت ألا أتحدث في الموضوع وأن احتفظ به في صدري.. لكن الأعرج أذكي مني بكثير وله خبرة في الحياة وبهذه الأسرة تحديدا.. كان يدندن مع الفنانة الشعبية ويكحلني بطرف عينيه، قبل أن يواجهني قائلا:

"ماذا كنت تقصد يا فتى؟"

هل كان يغافلني منذ البداية ولم ينتبه لسؤالي.. أم يتذاكى علي.. ولم أرد عليه لأنني رأيته يريد أن يقول شيئا ما.. استأنف الكلام:

"أتعني السيدة الكبيرة.. هههه لن تفعل شيئا بحقك.. فقط كن تحت حمايتي.. هذا البيت تحت سيطرتي..."

زادت حيرتي.. ماذا يريد الرجل مني.. هو كان يحذرني من الثقة المفرطة بالناس ومن مصائب هذه المدينة الكبيرة.. الآن هو يمارس علي الدور نفسه.. هل أصدقه أم لا.. وواصل قراءته لخواطري بعد أن أصبح يفهم تفكيري وسريعا.. كما بدا لي من رحلاتي معه.. أخبرني:

"دع عنك هؤلاء جميعهم.. فكر في مستقبلك يا فتى وتوقف عن التفكير السيئ في أي أمر.. كن شجاعا لمواجهة الظروف وكافة الاحتمالات هكذا ستصبح رجلا.. قل لي لماذا خرجت أساسا من بيت أبيك أليس لأن الحياة لا تطاق هناك.. أنا سأجعلك تعيش حياة سعيدة.. لا تقل خالي أو عمي أو الجن الأحمر.. لا أحد يقدم لك خدمة مجانا في هذا العالم.. أتفهم هذا يا فتى.. إذا كان خالك يستضيفك في بيته أو قدم لك وعودا فلتعلم أن ذلك لن يستمر طويلا ليس لأن زوجته شرسة فحسب.. أتعرف ماذا تعني هذه الكلمة... بل لأن خالك حتى لو بدا لك أنه رجل طيب ويحب الخير إلا أن وراءه هدف أنت لا تراه الآن. يا صبي خالك ليس استثناء ولن يكون، خاصة مع هذه السيدة المصنوعة من رماد الجحيم.. لكن كما أخبرتك لا تخف منها أبدا.."

استغربت مع نفسي كيف عرف تفاصيل قصتي وأهلي وأنا لم أخبره بذلك.. وهو أصلا لم يسألني عن هذه الأمور من قبل! كذلك كيف له أن يتحكم في السيدة الكبيرة هل يربطه بها سر معين.. هل أسأله.. سيكون ذلك غير محبذ فالرجل يجب أن يقول ما يرغب فيه وفي الوقت المناسب. وبدأت أشعر أن وراء صداقته هدفا ما لم يتضح لي بعد. لكن قد اقترب الموعد.. فلا عجلة. سمعته يستطرد:

"تريد أن تكمل تعليمك.. ستضيع وقتك إذن.. أنت تعرف الكتابة والحساب هذا يكفي.. المرء في هذه الحياة يحتاج فقط إلى هذا..

أشار إلى دماغه ونقر عليه مرتين بأصبعه.. حرك السيارة واندفع بسرعة جنونية دون أن يكمل لي باقي القصة.. ما السبب الذي يجعله يتحفظ على أن يعرف خالي بمشاويري معه أو أين نذهب بالضبط.. كان ذلك يقلقني.. أيضا كنت مشغولا ما الذي يريده مني بالضبط ليغدقني بالمال، ثمة غموض يجعلني أجهل الأسباب الحقيقية.. وكان علي أن احتفظ بالسر بيننا ليس لأنه حذرني فحسب.. بل لأن علاقتي بخالي لم تكن عميقة.. صحيح أنني في بيته لكنه لا يناقشني في أمور خاصة أو حتى لم يسألني أين أذهب وأين أجيء..

لم يخبرني بطلبه سريعا.. وانتظرت أسبوعا ثانيا، كنا نخرج سويا كالعادة.. يمر على مجموعة شركات في بنايات متفرقة بالمدينة.. يتركني في السيارة.. ذهبنا أكثر من مرة لمحل الشاورما ورأيت الرجل التركي بابتسامته الجميلة جالسا يحيي زبائنه، وشعرت بأن الرجل يبدي اهتماما بي.. في أكثر من مرة رأيته يختلس النظرات نحوي، لكأنه يريد أن يقول إنه يعرفني منذ زمن بعيد.. كان يلقي نظرة عليّ وينظر باتجاه الحائط المقابل.. ثم يعود ليتأملني من بعيد.. لم أحفل بالأمر، ولم أجرؤ على سؤاله.

ونحن في الطريق دار بخلدي أن أسأل الأعرج، فردّ علي:

"لا تهتم كثيرا.. إن كان ثمة ما هو مهم فسوف تعرفه ذات يوم"

كان يقول ذلك بنصف ابتسامة ويكاد يضحك.. واحترت هل يخفي سرا ما؟ أو لربما يفكر في مسألة معينة بخاطره، وخالجني شعور بأن السبب يتعلق بسؤالي حول اهتمام التركي بي.. وتركت الاهتمام بالموضوع.. كان أن أحضرنا سويا أغراض البيت.. وذهبنا البنك وجلست في الغرفة التي بها صورة رئيس البلاد.. تبدو الحياة متشابهة.. لا جديد.. وأنا في انتظار أن أفهم تخوف الأعرج من أن يعرف خالي عن مقاصدنا اليومية في النهار.

في أحد رحلاتنا النهارية حكي عن سيرته في الحياة.. بدا لي أن بعضا من تفاصيلها مختلقا.. كان قادرا على ابتكار الوقائع المثيرة بخياله الجامح، يدمج ما بين الواقع والتخيل.. قال لي باختصار أنه عاش طفولة معذبة في أسرة تكاد تماثل حالنا، الاختلاف أن أبيه مات مبكرا وتركه في مهب الأيام المغسولة بالأوجاع.. أما أمه فكانت صبورة ومكافحة تفعل ما استطاعت لكي تحقق السعادة لأبنائها الذين تشردوا في الأرض.. كانت تبيع كل شيء في السوق ولم تجن سوى الندامة. فقد سافروا.. لم يرغبوا في الاتصال بها ولا السؤال عن حالها ولو بجواب برسالة شفوية يمكن إرسالها عبر أحد سكان البلدة.. قال إن أحد أخوته مسؤول كبير بالأمم المتحدة في نيويورك.. وأنه.. وأنه.. أما هو فالوحيد الذي يحرص شهريا على أن يرسل لأمه مالا حلالا طيبا.. أكون قد غفوت ثم استيقظت لا تنتهي الدروس ولا الحكايات.. نكون قد وصلنا البيت يدخل الأغراض، يكلم الحارس العجوز يسأله لما تأخر ابنه هذه المرة.. لا اسمع ماذا قالا جيدا.. أو انشغل بالتفكير في شؤوني فقد حركتني حكايات الأعرج لان يبدأ دماغي في العفرتة.. كأنه سيكون حنونا ومشتاقا لهم.. أولئك الذين فررت منهم.. لكنني قررت ألا عودة للوراء.. هذه هي حكمتي التي سأحرص على التمسك بها.

وتمر الأيام دون أن أعرف هل أنا سعيد أم لا، في حين جاء نهار كاد أن يقطع علي خطتي التي ابتكرتها منذ هروبي بالتفكير في عالم جديد.. في ذلك اليوم كنا قد عدنا أنا والأعرج كالعادة.. وأخرج زجاجتي العصير المنعش من حقيبة السيارة، مارس تكرعه وبقيت أنا أرتشف قليلا.. سمعنا خبطات قوية على الباب الخارجي، في حين كان هناك جرس كهربائي يمكن الضغط عليه لإعلام من هم بداخل البيت.. وهرع الحارس ليفتح البوابة.. اندفعت مجموعة من البشر نساء ورجال وأطفال.. كانت أمي في مقدمتهم واثنين من أخوتي.. ورأيت عربة كبيرة نوع لوري تقف في الخارج.. وأنزل أربعة رجال من جيراننا في الحي رجلا من على سرير، كانوا يحملونه مثل تمساح ميت يجره الصيادون خارج النهر. إنه أبي..

وبختني أمي كثيرا وأنني هربت دون أن أعلمها.. قالت لي:

"صحيح أن بيتنا لا يطاق مع التعاسة التي يجلبها أبوك.. ولكن أنظر إلى حاله الآن إنه لا يقدر أن يتكلم ولا يتحرك"

نظرت إليه كان مغمض العينين.. يبدو كمن غطس في الماء وخرج.. لسانه ممدود للخارج ودموع رقراقة تدفقت من محجريه ساعة اختلسني وسط سكراته.. كان حاضر الوعي لكنه منهك.. لم أتمالك نفسي بكيت كثيرا وأنا أحتضن أمي وأخوتي.. وأنا أخبرها:

"كان يجب أن أفعل ذلك.. ولكن لا أعرف لماذا!"

كانت السيدة الكبيرة قد خرجت وبدأت في إطلاق اللعنات.. كان ترحيبها سيئا جدا بأهلي.. كرهتها جدا.. أسرعت أمي لتقبيل يدها.. ذلك الفعل الذي جعل قلبي يعتصر ألما ويضاعف من حجم لعناتي على الوجود..

انتهت اللعنات بأن دخلت السيدة وأغلقت الباب الصغير الذي يؤدي للجزء الداخلي من البيت.. لتترك الجميع في الجزء الخارجي، وهي تصرخ:

"انتظروا مجيء هذا الأهبل ليحل لكم مشاكلكم التي لا تنتهي"

جاء خالي قبيل المغرب.. كان أبي يتوجع ويقاوم أوجاعه.. كان بحسب أحد أخوتي قد أفرط في الشراب قبل يومين.. قضى الليل في ذلك البيت البعيد في طرف البلدة الذين يعمر بالسكارى وبائعات الهوى القادمات من غرب أفريقيا.. إفراطه الشديد أفقده الوعي فعارك ثلاثة رجال على أحدى هؤلاء النساء فكان ما كان من حاله الراهن.. كانت القصة غريبة بالنسبة لي فأنا أعرف أبي أنه يشرب ويضرب أمي ويسرق بترول السيارة لكنني لم أعرف عنه أنه يخون أمي أبدا.. لكن هذه القصة وعلي أن أصدقها.. وقالت لي أمي ونحن في سيارة خالي الكبيرة يقودها الأعرج ذاهبين باتجاه المستشفى الكبير في المدينة:

"أبوك لم يحتمل غيابك.. ظل يبكي ليومين.. أنت السبب في ذلك"

لم أعرف هل أصدق ما يقال أم لا.. هل معقول أنه اشتاق لي وبكي لأجلي حتى أنه صار يطارد بائعات الهوى ويفرط في معاقرة الخمور في ذلك البيت الشقي بأطراف البلدة.. كان رأسي قد تدوخ بمزيج من الخوف من المستقبل في مقابل شفقة على أبي وقرار قوي كان يسيطر على مكمني أنني لن أعود مرة أخرى إلى هناك.. لن أعود أبدا.

أدخلوا أبي العناية المركزة.. في بلدتنا لا يوجد مستشفى حديث.. بالأحرى هناك واحدة بنيت في سنوات الإنجليز هي اليوم أطلال تستظل بها أشباح المقابر لمجاورتها لها.. كنت أجلس في ظل شجرة مع أمي وأخوتي وعدد من رجال الحي الذين توافدوا على المستشفى من البلد.. الناس عندنا سوف يأتون إليك حتى لو كنت عدوهم.. إذا كنت مريضا أو حدثت عندك وفاة.. وأبي رغم فعائله إلا أن يحرص على معايدة الناس في كل المناسبات لا يقصر في هذا الواجب، حتى لو ذهب إليهم سكرانا.

أخذتني أمي جانبا، رجتني أن أعود معهم ساعة يكون أبي قد شفي.. وعدتها خيرا.. لكن في قرارة نفسي لم أكن مقتنعا.. وأنقذني من ذلك خالي.. فبعد أن تماثل والدي للشفاء بعد أسبوع.. أخبر أمي وأبي:

"دعوه يبقى معنا.. سيكون مثل أبننا فأنتم تعرفون أن لا أحد يؤنس وحشتنا أنا والمدام.. ابنتنا لن تأتي قبل الصيف من الهند"

رد أبي الذي صار كالحصان:

"سيبقى بشرط أن يعود بمجرد عودة ابنتكم للإجازة.. هذا وعد رجل لرجل"

ضرب على يد خالي ممازحا إياه رغم علمي أنه لا يحبه.. كانت أمي مسرورة فهذه المداعبة لها معنى كبير عندها..

خلال الأسبوع الذي أقمناه في المستشفى وإلى عودتنا لبيت أخي فسفر عائلتي.. كانت السيدة الكبيرة قد اختفت من البيت.. وأخبرني الأعرج فهو خزانة الأسرار هنا، أنها تخاصمت مع خالي وذهبت لبيت أهلها في أطراف المدينة وحتما سوف تعود بمجرد أن تعلم أن الأعداء قد ذهبوا.. قال لي:

"هي تفعل ذلك كثيرا.. وهي تحب خالك كثيرا جدا"

ضحك الأعرج، وأخذني بالسيارة في المساء في دهاليز وأزقة حتى وصلنا بيتا يقع في منطقة عشوائية تفتقد للإنارة، تفوح منها روائح غير محبذة أظنه لقربها من مكان تصريف مجاري الصرف الصحي.. دخلنا عبر باب البيت القصير، كانت السيدة الكبيرة هناك جالسة وإلى جوارها امرأة عجوز وشاب يبدو أنه أخوها فهو يشبهها.. أصلع الرأس يضع سماعة على أذنه اليمنى وهو يتمايل رقصا.. لأول مرة أرى جسد السيدة فقد كانت تجلس بفستان قصير لا يكاد يصل ركبتها ليست فيه أكمام.. برز ثديها الأيمن للأمام ضخما جدا.. بدت لي كأنها إحدى أولئك العاهرات اللائي قاتل أبي لأجلها الرجال الثلاثة كما في الرواية التي سمعتها.. فقد كنت أرى مثل هؤلاء النساء في سوق البلدة نهارا حين يأتين لشراء أغراضهن لسهرات الليل..

ما أن وصلنا وسلمنا على والدتها، إلا ونهضت وأسرعت للبس ثوبها.. وحملت حقيبتها وتحولت بنظري فجأة ودون مقدمات إلى كائن متوحش غير ذلك البائس الذي كان يجلس قبل قليل بحافة السرير.. شقيقها لم يقم من مكانه ليرحب بنا.. كان قد مد كفه التي بدت ملساء ناعمة.. ولم ينظر نحونا.. استمر في اهتزازه وحمل المسجل الصغير بيده خارجا إلى زقاق وراء الغرفة التي يبدو أنها كل البيت.. تلك الغرفة التي كانت جدرانها مغطاة بصور النساء شبه العاريات، أظنهن من نجوم السينما والغناء، فليس عندي ثقافة كبيرة في هذا الجانب.

كان قد تملكتني الدهشة وأنا أقارن بين معيشتها ومعيشة أهلها.. وكنت أود أن أطرح سؤالا على الأعرج بهذا الخصوص.. لكن ليس الوقت مناسبا فالسيدة تجلس في المقعد الأمامي من السيارة بجوار الأعرج.. وبدت لي بوجه مختلف مع المفارقة التي اكتشفتها اليوم.. توقفنا عند محل لبيع الآيسكريم بطلب منها.. نزل الأعرج اشترى ثلاث قطع قدم لي واحدة.. كانت تمتصه بطريقة عجيبة وهي تقلب لسانها أعلى الكريم الأبيض، ذكرتني بالنعاج في الجزيرة الخضراء بالبلدة ساعة تلعق بعض البرسيم.. لم تتكلم مطلقا إلى أن اقتربنا من البيت.. نظرت إلى الوراء إليّ وأنا

أجلس القرفصاء على المقعد.. ابتسمت لي بطريقة بدت لي غريبة ومفاجئة.. وغمزت لي بعينها اليسرى.. استطعت أن أرى ملامح وجهها بدقة بالغة لأول مرة.. كان لها حاجبان كثيفان وعينان كبيرتان وشفتان غليظتان وأنف مخروطية.. لم أفهم سر هذه البشاشة..

عندما نزلنا من السيارة.. قالت لي أن أحمل لها حقيبتها إلى داخل البيت.. كان ذلك الطلب غريبا.. فالحقيبة صغيرة ولا تتطلب معاونة شخص آخر لحملها.. لكنني فعلت.. كان الأعرج ينظر نحوي مبتسما.. وفهمت بغمزة منه أن علي أن أمتثل للأوامر.. فكان.. لأكون ولأول مرة داخل الجزء الداخلي من البيت.. والذي ظهر لي رغم ما يبدو عليه من صغر من الخارج، متسعا وكبيرا، ومرتبا.. ورود في كل مكان وهواء بارد ولوحات معلقة على الجدران إحدهما فيها صورة خالي مع السيدة في يوم زفافها بالأسود والأبيض.. وأخرى عليها صورة ابنة خالي.. التي لم أعرف عنها إلا القليل.. أنها تدرس علوم الحاسوب وبرمجة الكمبيوتر في الهند منذ سنتين.. بدت لي رائعة بطولها الفارع وشعرها الطويل.. كانت تلبس بذلة رجالية بيضاء تماما.. إحدى ساقيها مستقيمة والثانية مقوسة ويدها اليمنى مقوسة تضعها عند أعلى فخذها.. كانت تشبه خالي من حيث الشكل الخارجي أكثر غير أن ملامح وجهها تقترب من والدتها.

قالت السيدة عندما رأتني أحدق في الصورة دون انتباهة مني وأنا أضع الحقيبة:

"هذه بنتي هل أعجبتك؟"

لم أعلق.. فقط بادلتها ابتسامة فهمت مني أنني أعجبت بابنة خالي.. ودلفت باتجاه الباب الخارجي.. وقبل أن أمسك بالمقبض شعرت فجأة بيد قوية تمسك بالمقبض وتغلق مفتاح الباب.. كانت السيدة أمسكت بي من وسطي وحملتني فقد كان وزني خفيفا لترتمي بي على الأريكة المغطاة بالصوف الكثيف... كان الأمر مباغتا أثار دهشتي وحيرتي.. أهذه السيدة الهصورة قد تحولت إلى هذا السلوك المشين.. احتقرتها من داخلي لكنني لم يكن لدي القدرة لمقاومتها.. وهي تهيلني بالقبلات، وتتغنج بأصوات عجيبة لم أسمع مثلها من قبل.. قالت لي:

"أنت جميل يا ولد.. ألا تعرف ذلك.. هل نظرت مرة لوجهك في المرآة"

لم أكن متأكدا من هذا الوصف.. لكن هناك من قال لي ذلك من قبل.. خاصة بعض الرجال الصيع في الحي الذي كانوا يطاردون الأطفال والصبيان في مثل سني.. مرة طاردني أحدهم إلى بيت مهجور جوارنا وحاول أن يمزق سروالي بعنف.. وانتهى الأمر بأن قاومته بشدة وانتصرت عليه.. وأخبرت أخي الأكبر فانتقم منه بسكين وجهها إلى مؤخرته كما فعل مع أختي، فهو بارع في هذه الطريقة من الانتقام..

ذلك الرجل كنت قد هزمته رغم قوته.. لكن هذه السيدة قوية جدا.. كأن أيديها صبت من حجارة الجبال.. أخيرا أطفأت رمقها في.. لم أكن قد جربت شيئا من قبل أن أقع تحت سيطرة أنثى.. امرأة كبيرة السن.. أو صغيرة.. كانت هي تتأوه وهي تشهق بصوت عال في حين كنت أنا أفكر في ما يخلصي من هذا الوضع.

أخيرا تركتني.. وهي تقف وقد وقع ثوبها على الأرضية.. كانت تتأملني مليئا كأنها تتعرف علي للتو.. انتهى الأمر بأن وجهت تحذيرا لي:

"إياك أن تخبر أحدا"

هذه الواقعة جعلتني أشعر بالخوف من أيامي المقبلات.. فإذا حدث وأن بقيت هنا كما وعد خالي فلا أعلم ما الذي سوف تأتي به الليالي القادمة؟.. سيكون علي الحذر.. هي كانت أصلا لا تريد وجودي هنا.. هذه السيدة.. والآن لو رغبت في بقائي فسوف أصبح مهددا إن لم استجب لرغباتها المكبوتة.. وكان يشغلني استفهام حول سبب تغير موقفها مني.. هل لم تراني من قبل وهي التي كانت تضغط على خالي وتصفني بأنني من حثالة الأرذال.

مع مرور الزمن.. يستطيع الإنسان أن يفك بعض من شيفرات العالم وغموضه العجيب دون حاجة لأن يهلك ذهنه بإلحاح غير مجد، ففي اللحظة المناسبة يكون لكل لغز أن يحل.. وهذا ما اتضح لي لاحقا.

قضيت ذلك الليل خائفا في الغرفة وحدي.. فقد خرجت من الجزء الداخلي للبيت مرعوبا، حيث وجدت أن الأعرج قد خرج. وأن الحارس ذهب لقضاء الوقت مع بعض العجائز الذين كانوا يتجمعون تحت أحد أعمدة الإنارة.. يتسامرون في ذكرياتهم وتجاربهم في الحياة.. أما خالي فقد تأخر عن المجيء.. ليس كعادته.. كنت أرى أشباح السيدة تتحرك في الفناء الداخلي بفستانها الداخلي.. لكنها لم تقترب من غرفتي.. ورأيت بعدها خالي يدخل بالسيارة وقد أنزل منها خروفا كان يحمله على الصندوق الخلفي.. كان الحارس قد دخل معه تقريبا وأسرع لحمل الخروف وإدخاله إلى زريبة صغيرة خلف غرفتي تقريبا.. كانت مأمأة الخروف مسموعة لي تقطع علي توجساتي جراء ما أصابني من رعب السيدة الكبيرة.

فكرت أن أخبر الأعرج في اليوم التالي ساعة نخرج سويا كالعادة.. لكنني آثرت أن احتفظ بهذا السر لنفسي لأن خروجه قد يأتي بما لا يحمد.. وأخيرا كنت قد نمت عميقا بعد يوم منهك.. ولم أر في نومي أي شيء سوى أنني استيقظت باكرا لأصلي الفجر في المسجد، حيث كان الحارس العجوز بجواري، وفي طريق الرجوع من الصلاة أخبرني أن خالي يُحضِّر لحفل سيقيمه في البيت غدا لبعض علية القوم، قال لي:

"يحدث هذا في السنة مرة أو مرتين"

في الصباح تأخر الأعرج عن الحضور.. لم يأت إلا في الظهر وهو محمل بالكثير من الأغراض، ومعه خروفان آخران.. وكان الطباخ الشاب منهمكا في عمل مضن بالمطبخ.. قام العجوز بذبح الخراف الثلاثة.. وساعدناه أنا والأعرج في مهمة السلخ وتقطيع اللحم.. وبدأت المهمة الشاقة للطباخ..

عصرا رتب الأعرج الحديقة الخارجية، كانت شاحنة صغيرة قد أحضرت مجموعة من الطاولات والكراسي تم رصها بعناية فائقة من قبل عمال يجيدون عملهم، لا يبدو عليهم أنهم سودانيون، سألت الأعرج فأخبرني:

"أنهم من أثيوبيا المجاورة، مثلهم يوجد الآلاف يعملون في الشركات والبيوت.. ولهم أحياء كاملة في العاصمة".

بعد صلاة العشاء كان الموقع جاهزا. الإضاءة الباهرة بالكشافات الملونة والكراسي المنمقة الوثيرة والطاولات المفروشة بمشمعات رسم عليها قوس قزح، وجاءت فتاتان أثيوبيتان أيضا من الشركة نفسها، تساعدان في ترتيب وتقديم المشروبات للضيوف الذين وصلوا تتابعا.. إذا هؤلاء علية القوم الذين يتحدث عنهم الحارس العجوز.. كانوا يلبسون أزياء متباينة ما بين الزي التقليدي الجلباب والعمامة والزي الأفرنجي البذلة مع الكرافتة. وكانت بينهما ثلاث سيدات.. الغريب أن السيدة الكبيرة لم تظهر بين المجموعة فقد أخذها الأعرج بالسيارة وخرج.

رأيت الجميع وقد جلسوا حول الطاولات.. كنت أقف بعيدا أساعد في بعض الأمور بحسب الطلب مني.. كان خالي يرتدي بذلة زرقاء أنيقة ويحمل غليونه مشتعلا، وبدا لي أكثر شبابا.. وكانت هناك سيدة تمازحه لكنه لا يهتم بها كثيرا. ووقف خالي أمام الجميع.. كان هناك مكبر صوت متصل بسماعات.. بدأ في الكلام.. لم أفهم كثيرا منه أو ربما لم يشغلني الموضوع.. كان يحدثهم عن ذلك المسمى الحزب وأن علينا أن نضاعف من العمل في المرحلة القادمة.. كان يتحدث عن تحديات مركبة يجب تجاوزها.. عن ضرورة الاهتمام بالعنصر النسائي وإدماجه في الهياكل العليا.. عن الحرب التي تدور في البلد وتهلك الميزانيات.. لأول مرة أسمع عن هذه الحرب.. في بلدتنا بالشمال لا أحد تحدث عنها من قبل..

وقف رجل آخر ممتلئ الجثة تحدث عن مشروعات خيرية لرعاية الأيتام وأخرى لكبار السن والأرامل والأطفال مجهولي الهوية والمشردين بفعل الحرب.. وتلته سيدة ألقت قصيدة شعرية لا أتذكر منها شيئا.. سوى أنها كانت تكرر عبارة "أيها الوطن الغالي".. ولساعتين تقريبا كان الجميع يتحدثون.. التصفيق يرتفع في المكان.. الفتاتان توزعان المشروبات وهذه المرة وزعتا زجاجات بدت لي غريبة ليست تلك التي أعرفها.. فمع الأعرج تعرفت على معظم العصائر المعلبة والمعبأة.. تهجأت الحروف من بعيد مكتوب عليها Scotch whisky.. كان مشروبا غريبا عني، يصبون قليلا منه تماما كالعرق في أكواب زجاجية طويلة شفافة.. لم تمض سوى نصف ساعة حتى كان الجميع قد اضطرب حالهم، فقد باتوا كالسكارى أو هم سكارى فعلا..

علمت من الأعرج الذي كان قد عاد من الخارج بعد أن أوصل السيدة لأمها، ساعة سألته حيث كنت مستغربا لما يحدث:

"هذا المشروب اسمه الويسكي إنه عرق لكنه مستورد ليس كالذي يصنعونه عندكم من التمر في البلدة"

وضحك بصوت عال.. كان قد اخترق قهقهات السكارى وتحفزهم لإطلاق كَمّاً من النكات البذيئة.. كنت أسمع بعضها مستمتعا والباقي متضجرا وكانت السيدات الثلاث يشاركن في الضحك ورواية النكات أيضا وهن يتمايلن بأعناقهن باتجاه الرجال، في حين سقطت الأثواب عن رؤوسهن وانكشفت شعورهن.. وأخيرا أحضروا العشاء، وأنهمك الجميع في الأكل بشراهة مفرطة.. كنت أراقب تلك الحرب الدائرة أمامي وأتذكر ما كان يقولونه قبل قليل عن مجاعة في غرب البلاد، وما تلاه أحدهم في ورقة يقرأ منها وهو يذكر أرقاما محددة، عن أن أطفالا رضعا ماتوا لأن أمهاتهم لسن قادرات على در الحليب.

جلسنا أنا والأعرج في ركن نأكل سويا.. وكان قد أحضر واحدة من تلك الزجاجات معه.. في حين خبأ صندوقا به مجموعة أخرى أسفل السرير في غرفتي.. وارتشف الويسكي مغمضا عينيه كلما جرع منه، وبعد دقائق كان قد جلس على الأرض ليواصل الأكل والتجرع.. وسألته:

"أي حزب يتكلمون عنه.. ولما هم هنا..؟"

نظر نحوي كأنما يريد أن يشير لي بأن هذا ليس الوقت المناسب للأسئلة.. لكنه أجاب بتثاقل وبطء في الكلام:

"إنهم صناع القرار في هذا البلد.. هؤلاء الذين يتحكمون في مصيري ومصيرك"

وضحك مجددا يشق ضجيج السكارى المنهمكين في الأكل.. إلى أن فتحت البوابة الكبيرة وغادرت السيارات الضخمة مع أصحابها، كانوا يقفزون فيها بنشاط وسهولة رغم مشيهم المتكاسل إلى أن وصلوها.. وكانت السيدة التي التصقت بخالي من وقت مبكر لا تزال تحاول أن تمازحه وهو غير مهتم بها أيضا.. وغادروا جميعهم في حين بقي الأعرج معي تلك الليلة بالغرفة، يفرغ زجاجة بعد أخرى من الصندوق.. نمت أنا على الأرض في فرش بلاستيكي وتمطى هو على اللحاف بالسرير يشخر كثيرا ويضرط وأحيانا يهزأ ويكلم نفسه كما لو أنه مستيقظ.. وشعرت بالخوف أن تنتهي هذه الليلة على سلام.

عندما استيقظت في الصباح الباكر كعادتي لصلاة الصبح في المسجد، لم أجد الأعرج كان قد استيقظ قبيل الفجر على ما أظن وغادر وكأنه ليس هذا الإنسان المتعب والذي يبدو عليه الإرهاق قبل ساعات. وجاء في الثامنة صباحا ليأخذني معه في رحلاتنا اليومية.. وفي هذا اليوم بالتحديد كان قد قدَّم لي رزمة من المال.. كان مبلغا كبيرا بالنسبة لي.. ليس بمقدار أموال العجوز التي سرقها الضابط الكبير.. ولكنه أكبر مبلغ أقبضه في حياتي.. وقال لي:

"اليوم ستبدأ العمل معي.. اتفقنا"

ليس عندي فكرة عن طبيعة العمل الذي كان قد ذكره من قبل وأبدى حرصا ألا يعرف بخصوصه أحد.. كنا نذهب إلى بناية معينة نقف كالعادة.. وبدلا من أكون بالسيارة، يكون هو محلي.. جالسا خلف المقود، في حين أصعد بنايات متهالكة وأخرى حديثة البناء، غالبا بالسلالم شبه المظلمة لانقطاع التيار الكهربائي.. ونادرا بالمصاعد التي أغلبها معطل في المدينة.. كما أنها كانت مخيفة

لي.. أحمل مظاريف صغيرة أقوم بتوزيعها على أناس بعينهم.. العميل رقم كذا في الطابق رقم كذا .. يلبس بنطلون جينز وشعره مجعد.. العميل رقم كذا في الطابق الأرضي ليس عنده يدين.. مقعد.. ضع المظروف على حجره وتعال.. أحذر أن يراك أحد.. هكذا تجري التعليمات..

مرت عدة أيام وأنا أقوم بعملي بدقة تامة، دون أن يكون لي حق السؤال عن محتويات المظاريف.. أتحسسها ليست صلبة.. هي لينة بل طرية جدا لو مررت أظافري الطويلة المتسخة عليها لقطعت المظروف ورأيت ما بداخله.. لكنني لم أفعل ذلك لأن علي الالتزام بما أوكل لي وبدقة تامة.. أحب أن أؤدي عملي بإتقان.. وكان الزبائن يستلمون المظاريف ولا يقدمون شكرا ولا جزيلا فقط.. أشكالهم في الغالب مخيفة لا يبدون مودة ولا يضحكون أو يبادلونك الابتسامة.. كأنهم من طينة أخرى.

بعد عدة أيام.. كان الزبون نفسه يقدم لي مظروفا في مقابل مظروفي.. ولم يكن يحتاج الأمر مني ذكاء لأعرف محتوى المظروف الذي استلمه فهو معبأ بالأوراق النقدية.. ثروة ضخمة نجمعها في خلال نصف يوم.. يكون الأعرج مبتهجا وهو يقود السيارة بسرعة جنونية قبل أن نذهب كالعادة مرة أو مرتين على الأقل في الأسبوع إلى محل الشاورما ونرى الرجل التركي ذا الابتسامة الرائعة والذي صار يعرفني جيدا وزاد اهتمامه بي.. بات يسلم علي في يدي يشدهما بقوة.. وهو يربت بكفه على كتفي برفق.. ويقول لي "موفق يا فتى".

لم يكن الأعرج في حاجة ليسألني هل يعرف أحدهم بما تقوم به من عمل معي.. فقد كان قد وثق في تماما، وأدرك معدني، قال لي مرة:

"أنا أثق فيك أكثر من نفسي.. أنت لك مستقبل باهر صدقني.. ذلك لأنك تُقدِّر المسؤولية.. ذات يوم ستصبح شيئا عظيما في هذا البلد"

كانت وعوده لي وبعثه الأمل في داخلي يجعلني أشعر بأنني مهم وذات يوم سوف أصبح لي قيمة في هذا البلد تماما كما يتوقع لي. فمنذ أن هربت بالقطار وعدة أشهر قد مضت وأنا أفكر كيف سيكون الغد بالنسبة لي، لابد أن أظفر في النهاية وإلا كان قراري في ذلك اليوم خاطئا.. ولا أريد لنفسي أن أتعذب أن تقديري كان غير دقيق في الماضي.

كان الأعرج قد شكَّل حافزا لي، ومعه أصبحت اعتمد على نفسي في جمع المال، فخلال أسابيع كانت حصالتي الصغيرة التي خبأتها بغرفتي قد امتلأت بالأوراق الجديدة من العملة، ولم أكن أعرف فيما أنفقها.. وفكرت أن أرسل بعضها لوالدتي لكنني أعرف أنها سوف تدفعه على الفور لأبي الذي سوف ينفقه على سكره وذلة أمي. لن أفعل هذا. قررت. وواصلت في الإخلاص لعملي، الذي تعودت عليه، إلى أن جاء صباح، كنت أخرج كالعادة في انتظار الأعرج عند ناصية الشارع، حيث لم يعد يصلني مباشرة في البيت، في الأيام الأخيرة، دون أن يوضح لي السبب. كان خالي قد لمحني، لسبب ما كان قد عاد من البنك رغم أنه خرج باكرا حيث أخذه الأعرج بالسيارة كما يفعل يوميا.

كان وجهه متغيرا في ذلك الصباح ليس خالي الذي عرفته في الشهور الماضية، فإن كان لا ينطق بشر فهو على الأقل لا يبدي أي مشاعر إيجابية كانت أم سلبية. أوقف السيارة بجواري، كان يقودها بمفرده ممسكا بالمقود بيد وبالأخرى كان غليونه. كنت أتوقع أن بداخلها الأعرج ساعة توقفت وهرعت باتجاهها.. لأجده خالي يصرخ في بقوة:

"تعال.. أركب.."

ركبت.. لم يتكلم معي وكان غاضبا كما يبدو عليه.. يقود السيارة بجنون كما يفعل الأعرج.. ما الذي جرى.. لا أفهم.. إلى أن توقف بي عند إحدى البنايات المألوفة لي، واحدة من تلك التي أجيئها يوميا بالمظروف وأحمل المال.. كان الرجل العجوز الذي يجلس قريبا من بوابة العمارة من الداخل.. جالسا في مقعده البلاستيكي المقطع.. سلم على خالي في حين لم يهتم بي كأنه لا يعرفني.. لم أفهم ما الذي يجري إلا ساعة نطق العجوز:

"هو نفسه.. هو الذي يقوم بالعمل معه"

وجَّه إلي خالي سؤالا مباشرا:

"ما الذي تفعله مع الأعرج؟"

لم ارتبك.. فأنا أقوم بعملي.. وأقبض راتبي.. أخبرته أنني أوزع مظاريف برغبة الأعرج.. يحدث هذا يوميا عدا نهاية الأسبوع وأن الرجل الذي أمامي واحد من زبائني حتى لو تجاهلني.. قال لي خالي:

"حسنا.. تعال"

كان العجوز ينظر إلي بغرابة أنني اعترف بكل شيء.. هل أنا مجرم لأنكر؟ ونظرت إليه كان قد بدا لي ممتعضا مني.. يريدني أن أقول شيئا ما غير الحقيقة.. أحسست ذلك.. سمعت خالي يتمتم:

"أنا أعرف من يكون السبب.. أعرفه تماما"

وصعدنا السيارة من جديد.. إلى أن عدنا البيت.. كان الأعرج ينتظرنا مرعوبا أمام الباب في حين كان الحارس العجوز يتوارى خلف غرفته الخارجية بجوار الباب في انتظار أن يفهم ما يحدث. كان الطقس ملغما بشكل واضح.. ثمة أمر غريب يجري.. وكانت السيدة الكبيرة تصرخ بصوت عال بداخل البيت دون أن أميز ما الذي كانت تقوله..

صفع خالي الأعرج بقوة.. أكثر من مرة.. وأنحنى الرجل ليقبل قدمي خالي.. الذي رأيته مختلفا تماما في هذا اليوم حيث يتأكد لي ذلك ساعة بعد أخرى.. ودخلنا جميعنا إلى الجزء الداخلي من البيت.. كانت السيدة بملابسها الداخلية مستمرة في الصراخ وشعرها منكوش وهي تولول بطريقة هستيرية..

الأعرج أشار إليها من وراء خالي قائلا بتمتمة:

"هي السبب وراء ذلك.. إنها ترغب في المال"

تكلم خالي يسأل الأعرج:

"لماذا لم تخبرني منذ البداية؟"

"لا أقدر سيدي.. أنت تعرف أنني لا استطيع أن أرفض طلبا للسيدة"

طلب منا خالي أن نخرج أنا والأعرج وبقي هو بالداخل مع زوجته.. بعد دقائق هدأ الوضع.. تلاشى عويل السيدة وصوتها المرتفع.. كانت قهقهاتها تملأ الفراغ بديلا عن النحيب.. ورأيت النشوة في عيني الأعرج وضرب على كتفي بقوة، قائلا:

"أعرف أنه ذلك العجوز الملعون فعلها"

"أي عجوز!.. وما الخطأ فيما نقوم به!"

لم يجاوبني وفهمت أن هناك علة ما في العمل الذي نقوم به.. وبعد قليل خرج خالي أخذني إلى غرفة الحارس، أجلسني على الأرض وجلس بجواري، قال لي بهدوء.. كان قد عاد لوضعه الطبيعي:

"هل كنت تعرف ما الذي تفعله؟"

"لا أعرف أنا أساعد في العمل"

أشار بأصبعه باتجاهي محذرا ولكن بلطف:

"أنت ما زلت صغيرا.. على العموم فإن ما كنت تفعله كان سيقودك إلى السجن.. لا تكرر ذلك.. واستشرني في اي خطوة تريد ان تقوم بها.."

أعلنت التزامي لخالي.. هو لم يطلب مني سوى ان اخبره بخطواتي.. وظننت أنه سيمنعني من الخروج مع الأعرج لكن لم يشر لذلك..

لبقية اليوم اختفى الأعرج.. في المساء كانت السيدة تجلس وحدها وكان الحارس العجوز قد ذهب لصلاة العشاء.. نادتني أن ادخل عليها في الجزء الداخلي من البيت.. دخلت لم يكن بمقدوري أن أعارضها، مارست معي الفعل السابق نفسه.. خجلت من نفسي وهي لا تبدي أي خجل.. كانت تغني وترقص مكشوفة الساقين ونهداها الكبيران يتهدلان وراء الفستان الشفاف.. أغلقت المسجل الكبير الموضوع بجوار النافذة.. قالت لي:

"لا تهتم بما يقوله خالك.. غدا سوف تذهب مع الأعرج كالمعتاد"

صمت ماذا سأقول لها.. لم أفكر كثيرا.. قلت:

"لكن خالي حذرني"

كنت خائفا.. فجأة شعرت بالارتجاف وأن هذا البيت كان خديعة كبيرة بالنسبة لي.. سمعتها ترد علي ضاحكة وهي تعيد تشغيل الغناء وتعاود الرقص وهذه المرة تهز ردفيها الكبيرين بمواجهتي:

"خالك.. هههههه يا ولد لا تكن عبيطا.. هذه المملكة أنا سيدتها.. أتفهم!"

لم أكن لأحتاج لذكاء لكي أدرك ما تقوله.. فقد كان الأمر واضحا منذ الأيام الأولى التي حللت فيها.. أن السيدة هي كل شيء هنا.. هي الآمر والناهي.. وأن خالي ليس إلا لعبة في يدها.. هي تحركه والحارس العجوز والأعرج.. وهذا الأخير يقوم بكل ما ترغب فيه وهو مطلع على أسرارها.. ويخافها أكثر مما يخاف خالي.. فهمت ذلك أكثر في الظهيرة التالية، عندما أخذني الأعرج تحت قهر السيدة، التي قالت لي:

"إن لم تصطحبه وتقوم بعملك كالمعتاد فسوف لن تظل هنا في هذا البيت"

لم تعد لي رغبة بالبقاء هنا.. فأنا الآن في وضع غير مفهوم.. أقوم بعمل غير سليم لا أعرف ما هو بالضبط!.. وركبت مع الأعرج في السيارة.. شغّل المسجل ورقص كثيرا كسيدته.. كانت رائحته غريبة في ذلك النهار تماما كرائحة السيدة ساعة هجمت علي، رائحة غير مفهومة بالنسبة لي معها يصبح الإنسان مجنونا ومتهورا ولطيفا في بعض الأحيان.. كان الأعرج يضحك بمبالغة ودون مبرر.. كان مسرعا بالسيارة بشكل خرافي.. خفت من السرعة ومن تصرفاته.. قال لي:

"الخائف لن يفعل شيئا لمستقبله يا ولد.. لا تكن جبانا"

ثم صمت قليلا كأنه ينظر إلى نقطة بعيدة في الفراغ.. فراغ الشارع الذي كان مزدحما بالسيارات التي يتجاوزها ببراعة بالسيارة الكبيرة.. قال مستطردا:

"هي تعلم كل شيء.. هي السيدة الكبيرة هنا.. لا تخف.. خالك لن يفعل شيئا.. أخبرك بذلك لأنني أعلم أنك مرعوب جدا منذ الأمس"

"هذا صحيح أنا خائف.. لكنني لا أعرف ما الذي يجري معي.. أو يحدث حولي؟!"

ضحك كثيرا.. قال لي:

"ليس مهما أن نعرف كل ما يدور حولنا.. هذه هي قاعدة الحياة.. أتفهم ذلك!"

كان قد انطلق إلى شارع سريع يبتعد عن المدينة قليلا إلى الجنوب.. زاد من سرعة السيارة، كان يتكلم مع نفسه.. "سوف انتقم منه هذا العجوز".. أظن أنه يقصد ذلك الذي أخذني خالي إليه وأشار إلي بوصفي مساعد الأعرج. أريد أن أساله عنه وعما جرى.. لكن صوت محرك السيارة بعد أن فتح النافذة بجواره، لا يترك فرصة لأحد لكي يسمع الآخر، مع ضجيج الشارع الذي كانت تتوقف فيه الشاحنات عند نقاط التفتيش.. سيارة خالي الكبيرة كانت تندفع لا أحد يوقفها من رجال الشرطة.. كان الأعرج يشير إليهم برفع يده للأعلى، يبادلونه التحية بالابتسامات ونفخ الصفارات التي يحملونها، أحيانا.. كان قد زاد السرعة جدا.. كانت أمامنا شاحنة كبيرة.. اقترب منها يكاد يلتصق بها.. أسرع لتجاوزها.. في ثوان لم أعد أدري ما الذي حدث.

كأنني في حلم ساعة استيقظت في مكان عرفته فورا إنه المستشفى نفسه الذي كان والدي قد قضى فيه أياما ساعة جيء به من تلك المناوشات في البلدة. كان حولي ممرضون وممرضات

يلبسون الأبيض. أخبروني أنني خضعت لعملية جراحية في قدمي وأنني منذ اليوم سوف أعاني المشي بشكل مستقيم، بعد أن تعرضنا لحادثة. كنت أرغب في معرفة مصير الأعرج. أين هو؟ فهو ليس في الغرفة التي أرقد فيها. هنالك سرير آخر هنا لكن لا أحد فيه. سألتهم:

"أين هو؟"

عرفوا من أقصد. كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض دون أن يفسروا لي ما جرى. التزموا الصمت إلى أن جاء خالي بعد ساعة. سلم علي بلطف وأخبرني أنني نجوت بأعجوبة من موت محقق، كان وجهه يشير إلي بمحبة فائقة لسبب ما ليس بمقدوري أن أفسرها أو أعرف إن كنت أتخيل ذلك أم أنه واقعي. كنت أنظر إليه ودخان غليونه يتصاعد في فراغ الغرفة، وأنا استعيد بصعوبة تلك اللحظات التي بدت كأنها خيالية. عندما ارتفعت السيارة عاليا في الهواء ثم ارتطمت بنا بعيدا على حافة الشارع. كان الأعرج قد صرخ بقوة وهو يتأوه. بعدها لم أعد أتذكر شيئا.

قال لي خالي:

"سوف تغادر اليوم المستشفى.. لم نخبرك أهلك حتى لا ينزعجوا"

سألته:

"أين هو؟"

نظر نحوي. كان يعرف أن علاقة وطيدة جمعت بيننا في الشهور الماضية. حتى لو بدت له هذه العلاقة مشبوهة أو وراءها غموض. فالمهم أنها كانت عميقة وحميمية، أكاد ألمحه يقول ذلك من خلال تعابير وجهه، قبل أن يتغافل سؤالي، ويكرر لي:

"اليوم ستغادر بعد ساعة من الآن"

فهمت فالأمر واضح.. أن صديقي والرجل الذي كان يهتم بي قد مضى. إنه ذلك الذي يسمونه الموت. كانت تجربة رحيل الأعرج قاسية بالنسبة لي، فقد كان أكثر الناس الذين اهتموا بي في صباي بل أشعرني بقيمتي كإنسان يمكن أن تكون له قيمة ومستقبل، بخلاف بيتنا الذي كان يغلق نوافذ الأمل. لم أكن لأصدق، فقد أحتاج الأمر مني لوقت طويل لكنني في النهاية تأقلمت. وقبل أن يحدث ذلك. كانت أحداث أخرى قد جرت في بيت خالي، تمخض عنها هروبي الثاني. حيث قررت أن أهجر ذلك البيت الملعون!

بات العرج صفة ملازمة لي ومميزة، أسير بنصف رجل على الأرض وأخرى تخبط بقوة، لكنني لم أكن مضطرا لاستخدام عكازة، وكان عرجي إلى حد ما يماثل ما كان عليه صاحبي. كنت أتألم أحيانا لهذه العاهة التي داهمتني في صباي غير أني أتذكر أنه قضاء الله ويجب أن أطيعه، ومع مرور الوقت تعودت على مظهري الجديد ومشيتي ولم أعد أتذكر ذلك.

كنت قد تخيلت أن الحزن سوف يعم البيت على رحيل الأعرج لكن هذا لم يحدث بالشكل الواضح.. لم يكن أحد ليهتم سوى خالي الذي بدا حزينا ليومين بعد خروجي من المستشفى

وبعدها عاد لحاله. أما السيدة الكبيرة فلا أعرف إن كنت حزينة أم لا، فقد كانت تمارس حياتها المعتادة تخرج في المساء مع خالي وباتا يتأخران في العودة ليلا، واشترت مجموعات جديدة من الأثواب والأحذية التي كانت تغيرها يوميا.. كذلك غيرت أثاث البيت كله تقريبا.. وعرفت أن الاستعداد يجري لاستقبال ابنة خالي التي سوف تصل خلال أيام لقضاء إجازة نهاية الفصل الدراسي.

لم أعد أخرج كثيرا في النهار كما كان الوضع من قبل، وأصبحت أقضي نهاراتي بالبيت استجيب لنداءات السيدة من وقت لآخر.. وأوامرها بأن أفعل كذا وكذا.. أرتب الأمر الفلاني.. أمسح زجاج النوافذ.. أغسل الأطباق في المطبخ الداخلي.. أمسح الفرش.. أغسل الحمام.. باختصار كنت قد تحولت لخادم لها.. وكان خالي يرى ذلك دون أن يتدخل.. والغريب أنها لم تعد لتلك الفعلة معي.. فقد بدت متوازنة وجادة ومخيفة أحيانا.. ومحتشمة أغلب الوقت.. ورأيتها أكثر من مرة تصلي الصلوات في أوقاتها في غرفتها.. وخلال تلك الأيام اختفت تلك الرائحة التي كنت اشتمها ساعة جنونها.. قلت لنفسي ربما أن موت الأعرج أثر فيها وجعلها تغير من سلوكها، فبعض الناس يخافون الموت ساعة يختطف أحد الناس ممن يعرفون عن قرب.

كانت تناديني من وقت لآخر.. "يا أعرج تعال".. أمر مؤلم كان علي تقبله ولا مجال للاعتراض.. وكنت أشعر بالضيق أن المكان لم يعد يسعني لكن ليس من سبيل سوى أن أصبر فقد وعدني خالي بأن المدرسة على الأبواب وسوف يعيدني للدراسة وبهذا سوف تحل نصف مشكلتي مع هذه السيدة.. خاصة أن المشكلة تتعلق بساعات النهار التي سأكون عندها بالمدرسة، أما في الليل فلديها ما يشغلها سواي.

ومرت أيام قبل أن تفتح المدارس، وقبل أن تأتي ابنة خالي.. التي كان البيت كله يعمل لأجل استقبالها. وذات نهار دخلت غرفتي لأجد أن الحصالة التي تركت فيها ثروتي من مشاويري مع الأعرج، قد سرقت. كانت في مكانها تحت السرير لكنها مفرغة وقد كسرت طبلتها. من فعلها، ومن سرق شقائي؟. لم أحتاج لوقت طويل لكي أعرف ذلك، فما أن اتجهت إلى الحوش الرئيسي من البيت بجوار النافورة، حيث كان الببغاء يقلد مشيتي الجديدة، حتى لمحت شابا طويلا حليق شعر الرأس يخرج من غرفة الحارس العجوز ويقترب مني، وأسرع للوي ذراعي بقوة دون مقدمات، قبل أن يقول لي:

"يا وقح.. لن تنام الليلة في غرفتي.. هل تفهم؟"

عرفت على الفور أنه ابن الحارس قد عاد من رحلته للتو.. كان في العقد الثاني من عمره تقريبا، ثقيل الدم، مغشوش بنفسه، قبيح الهيئة، يظن أنه ذكي.. صفات كثيرة ألصقتها به منذ الوهلة الأولى.. لم يتركني ظل ممسكا بيدي وقد ثناها حتى لتكاد تنكسر، قبل أن يرمقه والده من بعيد.. لكنه لا يهتم بأحد.. إنه من النوع قليل الأدب كما يبدو. أخيرا فكني ورماني إلى الوراء بقوة.. وهو يكرر تهديده لي بأن أغادر الغرفة.. واتبعها قائلا:

"لقد أخذت ثمن بقائك في غرفتي في الفترة الماضية"

وأراني رزمة أوراق مالية أخرجها من جيب بنطلونه الطويل.. كان يتحداني ببجاحة ولم يكن لي من حيلة لمقاومته.. فلمن اشتكي.. وقررت أن أخبر خالي مساء بالأمر، فرد علي بهدوء وبدا لي غير مبال:

"يمكنكما أن تتقاسما الغرفة سويا.. ما المشكلة!"

ناداه، جاء ثقيل الدم.. أخبره خالي بالقرار.. أمامه بدا طيعا.. وما أن غادر خالي وزوجته مساء في رحلات التسوق اليومية لأجل ابنتهما، إلا وبدأ ابن الحارس في استفزازي مجددا، ضربني بعصا غليظة أحضرها من غرفة أبيه، وكان والده مشاركا في الجريمة، وهو يشاهد ما جرى غير قادر على التعليق أو الكلام.. فيما كان الابن غير مهتم بوجود أبيه من عدمه. كان جزءا كبيرا من ظهري قد تقرح وسال منه الدم.. ووجدت نفسي في وضع صعب لا يمكن الصبر عليه.. لم يكن لي من رجاء سوى أن أغادر هذا البيت.. فهذا الخال لا يملك نفعا ولا ضرا لي كما يبدو..

ووصل الخال والسيدة الكبيرة.. أدخلا السيارة وساعدهما ابن الحارس في توصيل الأغراض للداخل، مجموعة من الأكياس المعبأة بماذا.. الله أعلم!.. كان يتصرف معهما وكأن شيئا لم يحدث.. في حين بقيت مستلقيا على الأرض في ركن قصي من الحوش في الظلمة لا أبصر سوى ألمي ومأساتي. ويبدو أن السيدة لمحتني، لكنها لم تكلمني.. وبعد ساعات كان الجميع قد ناموا.. انطفأت إنارة البيت الداخلي، وغرفة الحارس يصدر منها بصيص ضوء قليل. كان ابن الحارس قد عاد من الخارج يترنح يبدو أنه سكران واتجه نحو الغرفة بعد أن احتلها منذ النهار وأخرج أغراضي منها، ولم يكن لي من مكان سوى أن استلقي في ركن من الحوش في انتظار الفرج.

بعد دقائق رأيته يقفز من إحدى نوافذ البيت الداخلية في إحدى الغرف، لم يكن من إضاءة كافية لأرى ما جرى بعدها. وتملكني الفضول بأن أفهم ما يجري. فأرهفت أذني بجوار النافذة المعنية، كان الأمر لا يحتاج لكثير تدليل لأفهم ما يدور بالداخل. فمن خلال النافذة التي لم تكن محكمة الإغلاق، رأيت بوضوح باقي المشهد الذي صدمني. كان السيدة الكبيرة عارية تماما وهي ممددة على السجاد بجوار أريكة من الصوف في حين كان ابن الحارس نائما فوقها. هذا المنظر الذي أعاد لي صورة والدي في البلدة، فهو يفعل مثل هذه الأمور بلا تقدير للوقت أو احترام لنا، ولم يكن أمام والدتي سوى الامتثال لجبروته. لكن هل كان ابن الحارس يمارس جبروتا على السيدة؟ لا يبدو الأمر كذلك.. يبدو الوضع حميما تماما، وسمعتها تقول له:

"كان ينبغي أن يموت هذا الأبله.. قد اختصر لنا الوقت؟"

بضحك مكتوم حتى لا ينفضح صاحبه تقريبا.. سألها:

"أظنك أنت وراء ما جرى؟!"

بادلته الضحك المكتوم.. ولم أسمعها ترد بشيء.. وبصوت متقطع يأتي مع ريح قليلة بدأت تهب في الخارج، سمعت ثقيل الدم يرد عليها:

"سأحصل على رخصة السياقة قريبا.. وعدني أحد الضباط بذلك.. وسوف نواصل العمل.. أنا أعرف الزبائن كلهم.. من رحلاتي السابقة مع الأعرج"

وسألها:

"هذا الصبي هل يمكن أن ينفعنا.. ما رأيك؟"

صرخت فيه:

"لا لا أرغب فيه.. لأن خاله اكتشف انه كان يعمل مع الأعرج"

"إذا ما فائدة بقائه هنا؟"

"خاله يرغب فيه.. يريد أن يعيده للمدرسة"

"وأنت هل ترغبينه؟"

سمعتها تقول:

"بعد أن عدت لي لا أريده.. هههه هههه.. هو لا يعرف شيئا في الحياة بعد ولا يصلح.."

استمرت في الضحك بطريقة غير لائقة.. كان علي أن أغادر من عند النافذة بعد أن شعرت بأن ابن الحارس قام واتجه نحوها.. ورأيته عاريا هو الآخر.. كان الأمر واضحا أمامي.. ما لا يصدق.. هل يعرف خالي بذلك؟ وهل هو نائم أم مستيقظ؟ ما هذا الجحيم؟.. كنت أساءل نفسي مندهشا لما يقع أمامي.

ولم أفكر طويلا حيث هرولت إلى حيث كنت أنام في الركن تحت شجرة النيم.. كنت مرهقا ورأيت في النوم أضغاثا كثيرة خوفتني.. مرة كنت أرى الأعرج يقف أمامي ويهددني بسكين ومرة أبي ومرة ابن الحارس هو الذي يحمل السكين ويصوبها نحو صدري.. وخالي يضحك كثيرا.. والسيدة الكبيرة كانت تتفرج عارية وهي تتكرع زجاجة من المشروب المسكر المستورد الذي كان ملك الحفلة يومها.

وبدت لي حياتي ساعة استيقظت مع آذان الفجر كما لو أنها حلم.. في حين كان صداع يحاصرني ويقلق روحي.. واتجهت إلى المسجد للصلاة وعدت.. كان الحارس يسير بجواري ولم يتكلم معي ولم أحس برغبة في أن يكلمني فقد بدأت أكرهه بعد مواقفه الأخيرة.. ورأيت خالي جالسا يقرأ كالمعتاد وهو يدخن غليونه.. ومن بعيد كان ابن الحارس ينام في لحافي بالغرفة التي طردت منها. لم يكن المكان ليلائمني بعد اليوم.. ولكن ماذا أفعل؟ أن أعود مرة أخرى إلى البلدة ذلك المستحيل بعينه.. لن أعود.. وتذكرت بعض وصايا الأعرج لي بأن الإنسان هو الذي يصنع قدره.. ولهذا أنا سوف أصنع قدري.. هكذا قررت في هذا الفجر.. ونفذت.

في ذاك اليوم، ساعة خرجت من البلدة لم أكن في حاجة لأحد كي يلهمني بأنني أفعل ما هو صواب.. واليوم سيتكرر المشهد نفسه لن أحتاج لذلك الأحد.. حتى لو كان رجلا أتعلم منه بعد أن ذهب لقبره الذي حفره بنفسه.. فقد فكرت بجدية في الأعرج من وجهة أخرى هل كان يفعل الخير أم الشر؟ ليس عندي إجابة.. لكنه معي بالتحديد لم يكن شريرا البتة.. غير أن ما يقلقني ما سمعته من حوار بين السيدة وابن الحارس، وهي تقابل سؤاله عن مصير الرجل بالضحك.. هل يعني هذا أنها رتبت لحادث موته؟.. أو على الأقل للمقدمات التي ساقت لفقدانه أعصابه في ذلك اليوم ومن ثم الانهيار فالموت؟!.. هل هي التي وشت بحقيقة أنني أعمل مع الأعرج؟ هل خالي يعرف ما الذي يقوم به الأعرج بالضبط؟ لم يكن لدي إجابات.. وفكرت أن الأمر الوحيد الذي يستحق مني أن استنزف ذهني فيه أن أبحث عن خلاصي فحسب.

مع الصباح الجديد.. كنت قد قررت في رحلتي الثانية!! وقبل أن أغادر بدا لي خالي في كرسيه المتأرجح مثل شبح قديم في ليال البلدة.. ومررت على الببغاء لأودعه فوجدته نائما.. كنت أسير للوراء وناظري باتجاه البيت الذي احتواني لعدة أشهر.

3

إنها المدينة الجديدة تكشف في كل مرة عن صورة أخرى غير المعتاد، فأنا الآن أرى مشاهد لم تكن مألوفة لي ساعة كنت أتجول مع الأعرج بالسيارة. أرى عالما للتناقضات والعجائب.. الأشياء الرائعة والمدهشة وتلك التي يضيق بها الإنسان ويمقتها.. ربما كان ذلك عنوانا لمشاعري وليس فكرة عامة دقيقة.. كنت أسير في شارع طويل يبدأ من بيت خالي.. بالتحديد من الشارع الرئيسي المجاور للبيت ويمتد إلى جسر يربط بين مدينتين، فالمدينة الكبيرة في الواقع هي ثلاث مدن تربطها جسور حديدية وأخرى من الخرسانة عبر الأنهار التي تعبرها من الجنوب إلى الشمال.. الأولى بنيت في سنوات الإنجليز والثانية بعد خروجهم من البلد.

قبل أن أصل نهاية الشارع الطويل جدا عند الجسر توقفت. كانت قوات الأمن والشرطة تغلق المكان وتمنع المارة والسيارات من العبور.. كانوا يتحدثون عن أن السيد رئيس الجمهورية سوف يعبر من هنا بعد قليل ولهذا يعطلون الحركة لأجله.. ومرت ساعة ربما أكثر قبل أن يأتي الموكب الذي تقدمته دراجات نارية مسرعة ومن ثم سيارات سوداء طويلة فسيارات أخرى.. مرت من أمامي بحيث لا يمكن تمييزها من سرعتها.. بالنسبة لها كان الأعرج متهملا في قيادته لكنه قضاء الله وقدره أخذه إلى السماء.

واصلت المشي لا أعرف وجهتي.. وفكرت بأن أعود إلى بيت خالي ثم أزحت الفكرة تماما عن ذهني.. فأنا لم آتِ هنا لكي أهان، لقد خرجت من بيت أبي لأنني لم أرض الظلم ولن أرضه هنا.. فهؤلاء الناس لا يرغبون فيّ ولن أبقى معهم لهذا السبب.. ربما لو كان الأعرج حيا لاختلف الوضع.. كنت جائعا كالعادة وعطشانا.. فتوقفت عند بائع مثلجات.. معي بعض النقود دفعتها له وارتشفت كوبا من عصير الكركدي المحلي الصنع.. بدا لي رائعا ولذيذا أكثر من تلك العصائر التي يستوردها خالي من الخارج تأتيه بوصفات خاصة مع ذلك الشراب المسكر.

من بعيد لمحت رجلا عجوزا يمشي وهو يحمل عكازة.. على الفور عرفته أنه صاحبي الذي تركني أو تركته في محطة القطار.. الحمد لله المخلاة معي، أمسك بها بيدي اليسرى.. لم أتركها ولن أنساها إنها أمانة حتى لو سرق المال عنها.. ودلفت إلى الشارع المجاور.. هو شبه زقاق لكنه يعج بالمارة في منطقة مزدحمة من وسط المدينة الشمالية من المدن الثلاث.. هنا يوجد موقف للحافلات الداخلية ومركز للشرطة وإدارة للسجون ومركز ثقافي لتعليم الغناء.. كنت أقرأ اللافتات بومضة عين، وأنا أتابع العجوز في محاولة للحاق به.. غير أنه كان قد اختفى في الشارع الثاني على اليمين.. وهرولت سريعا لأدركه.. وقبل أن أصله تماما كانت أمامي سيارات مسرعة.. ليكون علي أن أنتظر حتى عبورها.. وبالفعل انتظرت.. وكانت النتيجة أنني فقدت الرجل بدا لي كما لو أنه ركب في حافلة توقفت على اليمين، بسرعة وغادر. هل من سبيل لألحق به.. لكنني غير متأكد من وجهته فربما دخل من الناصية الثانية للشارع الصغير، أو في أحد المحلات التجارية الكثيرة.

وقضيت قرابة الساعة متنقلا بين الشوارع دون أن أراه مجددا. حتى شككت في أمري هل أنا رأيته في المرة الأولى حقا أم تخيلت ذلك. قلت لنفسي ربما لو عثرت عليه لكان منقذي.. لا أدري لماذا غمرني هذا الإحساس.. وإن كان لم يعد مجديا بعد أن ضاع عني العجوز والذي كان رغم عكازته قادرا على السير بسرعة، لا أظنه يحمل العكازة ليستعين بها على السير.. هو يحملها كعادة مثلما يفعل الكثيرون.

واصلت المشي مجددا وعبرت الجسر أشاهد النهر على الضفتين يكاد يكون قلقا مثلي على مستقبله.. وهو يزبد بهدوء لا كما يكون في موسم الدميرة والفيضان في البلدة. وعدت بذاكرتي لسنواتي المبكرة وأنا أتعلم السباحة سرقة حيث تمانع أمي في ذهابنا للنهر خوف الغرق. وفجأة خطرت على ذهني فكرة لا أعرف مصدرها بالضبط.. وأنا أنظر باتجاه النهر.. فقد ارتسمت بدماغي صورة الرجل العجوز صاحب المخلاة وهو يشير لي بأن أسير إلى الأمام ولا أتوقف.. قال لي إن قدماي ستقوداني إلى حيث سيكون قدري ومصيري وخلاصي.

ومشيت كثيرا جدا حتى تعبت وأرهقت وبعد ساعة عجزت عن السير وتملكني الجوع وجدت نفسي أرقد على حافة الطريق بجوار أحد المساجد بوسط البلد، لم أكن الوحيد فقد كان هناك العشرات وربما المئات مثلي.. أشكال وأنواع من البشر من شتى السحنات والأعمار، يبدو أن وراء كل منهم قصة.. ويبدو أنني سأكون جزءا من هذه القصص الكثيرة.. حالهم بائس ومنظرهم يغني عن تأملهم كثيرا.. فنظرة واحدة تكفي لكي تعرف أنهم إما قادمون من جحيم الحرب التي يقال إن موطنها جنوب البلاد، أو أنهم من مجاعة الغرب قد جاؤوا أو من الشرق والشمال مثلي فقدوا العلاقة مع ذويهم.

لم استيقظ إلا على صوت سيارة شرطة كبيرة وأصوات صراخ المارة والتائهين أمثالي، وكان العساكر الذين يلبسون الأزرق يضربون بلا هوادة في سكان الشارع الصغير خلف المسجد، ويحملون الكبار والأطفال يزجون بهم في السيارة، ومن وراء ذلك تسمع عويل صغار رضع ونساء كبار السن، يبدو لي المشهد كأنه مستل من كوابيس الليل السابق. لكنه واقعي. إنه بلدي. إنه الوجه الآخر للمدينة الكبيرة. وراء البنوك والستائر الملونة والقصور العظيمة يوجد هنا وجه آخر للحزن والدموع والبكاء.. ووجدت أنني أُزجُّ مثلهم في السيارة.. كان أحدهم قد قبض على منتصف جسدي وقذفني بعيدا مثل كرة خفيفة الوزن لأستقر في موقعي وسط أكوام من الأجساد ذات الروائح البغيضة. وكان داخل العربة مظلما فهي مغطاة بالحديد من كل الجهات عدا بوابة صغيرة كنت قد مررت من خلالها في طريقي عبر الهواء. قام الشرطي بإغلاقها بإحكام وصوت السباب واللعنة يروح ويجيء كأنما تأخذه أمواج النهر.

لا أدري كم سارت السيارة السجن، وكم قطعت من الشوارع والأزقة، حتى توقفت بنا في حوش بحوائط عالية، حيث أخرجونا كالبهائم، كان العساكر يجرون واحدا تلو الآخر في فظاعة ودون مراعاة لعامل السن أو الذوق، ورصونا أسفل الحائط بخط مستقيم.. في حين كان هناك العشرات

قد سبقونا واتخذوا الوضعية نفسها.. وسمعت شرطي يطلق ألفاظا مقذعة وآخر يضرب بحذائه على الأرض بشكل متكرر ويوجه شتائم عنصرية.. يا أسود.. يا عبد.. ثم توقف عندي يسألني:

"ما الذي جاء بك وسط هذه الحثالة؟"

لم أرد عليه.. نظرت إليه.. كان طويلا بحيث يصعب مراقبته كاملا.. اكتفيت بوجهه الذي كان مشخوطا بعلامات واضحة رأسية على جبينه كأنما جرت بموسى حادة.. وسمعته يكرر السؤال لي، قبل أن يجرني بيده ليرمي بي في وسط الحوش، ومن ثم يمارس الدور نفسه مع آخرين.. كان عويل الأطفال والرضع يتصاعد وشخير كبار السن يرتفع في المكان وأصوات اللعنات لا تتوقف.. إلى أن جاؤوا بقدح كبير من الأكل.. لم أعرف محتواه تسابق عليه الجميع مثل الدجاج الجائع.. واستطعت أن أفوز بلقمتين بصعوبة جادت بهما يد رجل مسن في يدي، كان بارعا في الوصول للصحن الكبير.

لم أكن أعرف إلى متى سنبقى هنا؟ ولما نحن هنا أيضا؟ ولا أحد لكي يجيب عليك. وقضيت الليل في هذا السجن حيث كان بإمكاننا رؤية النجوم في سماء سوداء داكنة. ولم أنم جيدا كانت الكوابيس ما زالت تطاردني وصورا لأهلي وخالي والرجل العجوز والأعرج وابن الحارس العجوز وهو في تلك الوضعية العجيبة.. واستيقظت فجأة على صوت آذان الفجر.. حيث أوقفونا صفوفا للصلاة دون الاهتمام بأمر الوضوء. وصلى بنا رجل متقدم السن له لحية طويلة بيضاء، وأنهى الصلاة بالدعاء لله أن يدمر أعداء الدين وأن ينصر المجاهدين في جنوب البلاد.

ومضت ثلاثة أيام على هذا الحال لا شيء له قيمة.. يمضي الوقت في تأمل وتفرس وجوه الناس، الذين حولي، والتلهي بعراكهم ومساجلاتهم وبعضها لم يكن مفهوما لي بلغة لم أسمع بها من قبل. يبدو أنها لهجات محلية. كان سهل على أحدهم أن يجر بأظافره الطويلة على جسد الآخر.. أو يدوسه على بطنه.. وقد آثرت الابتعاد في ركن خشية أن أصاب بمكروه.. هذا لا يعني أن عملية تحرش قد وقعت بي ولكن لم أنجو من الضرب.. وكان العساكر يتفرجون لا يتدخلون.. كانوا يستمتعون برؤية المشاجرات وهم يدخنون الشيشة ويضربون على بطونهم ويقهقهون بأصوات عالية قبل أن يحضروا لنا ذلك القدح الكبيرة من الأكل غير المفهوم والذين يهرع إليه الجميع ويفرغونه في بضع دقائق معدودات.

مساء اليوم الرابع.. ناداني أحد العساكر باسمي.. لا أعرف من أين جاء به، فهم لم يسجلوا الأسماء ولا أظن كل الناس الذين هنا لهم أسماء أو هم يحفظونها، فمصائبهم في الحياة أظنها لا تكاد تجعلهم يتذكرون شيئا سوى أن يعيشوا لحظاتهم في الدنيا بأي شكل كان. وقفت أمام الضابط الكبير.. مرة أخرى أقف أمام ضابط كبير بعد صاحبي القديم في محطة القطار والذي سرق مال العجوز.

قال لي الضابط صاحب رتبة الملازم أول:

"هناك شخص يطلبك هنا.. سيأتي بعد قليل.. هو مهتم بأمرك.. ويريد أن يخرجك من هنا"

أنا عرفت الرتب العسكرية منذ طفولتي لأن بيتنا كان بجوار مركز الشرطة.. قلت:

"لكن لا أحد يعرف أني هنا"

"هو شخص مهم على أية حال وطلب الإفراج عنك"

ارتبك ذهني وظللت مشغولا لبعض من الوقت أفكر من هذا الذي رآني وأنا أزج في السيارة أو أدخل هذا السجن.. هل هو خالي يا ترى علم بالأمر وجاء لأجلي.. ولكن خالي لا يبدي اهتماما في أغلب الأحوال.. ولم استغرق في محاولة العثور على الإجابة، حيث كان الرجل العجوز صاحب المخلاة أمامي.. رأيته.. تحركت الدموع من محجري.. ما الذي جاء به إلى هنا؟ وكيف عرف بأمري؟ يا رب.. مدهش هذا الترتيب القدري.. كم أنت جميل.. ولم يتكلم الرجل كثيرا.. أو يفصح لي عن هويته.. ورأيت كيف أن الضباط كانوا يعاملونه باحترام شديد.. ما أثار تساؤلاتي.. كيف لرجل عجوز بائس يسافر على ظهر القطار أن يصبح كما قال الضابط عنه مهماً على أية حال.. كأنني أحلم.. هل كان يؤدي دورا تنكريا في مسرحية مسلية للصبيان أمثالي.

أخذني الرجل خارج السجن لأرى الشارع المجاور حيث كان مكتظا بالناس.. شكرني كثيرا أنني اهتمت بأمر مخلاته.. دون أن يكون قد أدرك أن المال ما زال موجودا بها أم لا.. وحاولت أن أخبره.. لكنه لم يسمع لي.. كان يدخن سيجارته الرديئة ماركة أبونخلة، قبل أن نتوقف أمام محل لبيع المرطبات.. طلب كوبين من عصير الكركدي وسدد الثمن.. ناولني واحدا ووضع الآخر على الطاولة العالية.. كنا واقفين.. سأل صاحب المحل إن كان عندهم حَمّاما بالمحل.. أشار إليه إلى باب صغير من الخشب خلف المحل، استأذنني لدخول الحمام.. مضت دقائق كنت قد أفرغت كوب الكركدي.. لم يعد الرجل، تأخر في الحمام كثيرا.. صاحب المحل شعر بالأمر، قال لي:

"أين صاحبك يبدو أنه تأخر؟"

"فعلا هو تأخر كثيرا.. ليست عندي ساعة.. لكن أظنها نصف ساعة مضت"

قال لي:

"تأكد بتحريك الباب.. إن كان ما زال هناك..

ذهبت هززت الباب لم يكن له قفل.. حركته إلى الداخل، أصدر صوتا.. لم يظهر الرجل لم يكن هناك أحد بالداخل.. أين اختفى العجوز هذه المرة؟.. لا أظن أن عيني غابتا عن باب الحمام.. تشوش رأسي كثيرا.. وهو أيضا لم يأخذ مخلاته ولم يخبرني بسره.

عدت لأخبر صاحب المحل.. لم يعر الموضوع اهتماما كبيرا، قال لي:

"ربما ذهب لأمر ما مستعجلا وسيعود إليك"

وبقيت بجوار المحل جالسا على الأرض ممسكا بالمخلاة نفسها.. وبداخلها المصحف والمسبحة.. ولم يكن ثمة شيء أفعله سوى حساب الوقت في انتظار أن يعود العجوز أو يخرج من مرحاض خالٍ لا أحد فيه.. كان عدة أشخاص قد دخلوا الحمام وخرجوا.. منهم صاحب المحل.. أنا نفسي

ذهبت مرتين.. كان المساء قد تأخر شديدا.. انتصف الليل.. بدأت الشوارع تخلو من المارة تدريجيا.. سيارات النقل العام وحافلات الركاب الصغيرة قل عددها في الشارع الرئيسي.. الإضاءة تخفت إلا في إنارة الطريق حيث يلتحم الضوء الأصفر المتناثر مع جزيئات الإسفلت المهشم المغسول بمياه المجاري.

من جديد أجد نفسي في مواجهة ذاتي والسؤال العميق ماذا علي أن أفعل، وكيف أواجه اللحظات القادمة من الحياة؟ هل أعود إلى بيت خالي الذي كنت أظن أنه من جاء ليخرجني من السجن، واتضح أن الأمر بخلاف ذلك. أخيرا توكلت على الله وانزويت إلى ركن في الشارع المجاور لمحل المرطبات، حيث كان بعض الناس قد شرعوا في النوم.. ففي هذه المدينة كل مكان تقريبا يصلح لأن يكون سريرا وغرفة.. فعلى امتداد الليل والشارع بدا لي أن هناك نسخة أخرى لأولئك الذين تم الزج بهم يومها في سيارة الشرطة.. كبار السن والأطفال والنساء وأنا جزء منهم.. رميت بنفسي في هذا المصير.. ونمت فقد كنت متعبا جدا.. في مغامرة قد تعيدني إلى السجن مرة أخرى وقد لا يعود الرجل العجوز ليخرجني مجددا.. ولم استيقظ إلا مع آذان الفجر كالعادة.. حيث أسرعت إلى مسجد مجاور.. صليت الفجر.. كان المسجد كبيرا وكانت هناك صفوف عديدة للمصلين، أغلب سكان الشارع جاؤوا لأداء الصلاة.. فقد رأيت صبيا مثلي كان ينام بجواري قد وقف في الصف أمامي.. كان يكثر التثاؤب حيث يبدو أنه لم يكمل نومه بعد.

تحدثنا أنا والصبي أخبرني أنه جاء من جنوب البلاد بعد أن فقد عائلته بسبب الحرب، هو لا يعرف أين هم الآن بالضبط.. ربما ماتوا أم هم أحياء.. ليس متأكدا.. وبعد قليل ونحن نقف في ناصية الشارع.. جاءت فتاة أكبر منا.. يبدو ذلك واضحا من قامتها المديدة ونهديها البارزين.. وشعرها الطويل المضفر.. لها سحنة داكنة مميزة.. شعرت بشيء من الإعجاب نحوها من أول نظرة.. سلمت على صاحبي ورمقتني بطرف عينيها دون أن تسلم علي، وقالت للصبي:

"من أين جاء هذا؟"

"لقد صلى معنا في المسجد.. لا أعرف.. أسأليه هو عن قصته؟"

يبدو أن وجودي مع الصبي لم يعجبها.. فقد أشارت لي بأن أتحرك بعيدا.. كانت بعكس صبيان وصبيات الشارع، المتشردين، تبدو أنيقة ومهندمة وجذابة.. ولها رائحة عطر مميز. تملكتني الرغبة في معرفة سرها. لكنها لم تمنحني الفرصة فقط جددت إشارتها لي أن ابتعد. وإذا كان ليس من عادتي ملاحقة الآخرين، فقد تركتها ومضيت لحالي، فيما مضت هي والصبي معا..

لا أعرف ماذا أفعل بالضبط حتى اهتديت إلى فكرة بسيطة تعينني على توفير مبلغ يكفي لطعامي على الأقل أن يمضي اليوم ومن ثم الغد لأعرف ماذا سأفعل بعدها.. أنا أثق في نفسي وسأفعل شيئا لأجلها.. ما زالت كلمات الأعرج ترن في أذني.. كيف أن الإنسان يجب أن يثابر ويصبر. لهذا قررت أنه لن أسمح للزمن بأن يهزمني لأعود إلى الوراء. عناد يصعب تفكيك سببه. لكنه كان هويتي.

تلخصت الفكرة في اصطحاب أحد هؤلاء الصبية، ممن تعرفت عليهم في أول الصباح، كان يحمل صندوقا خشبيا صغيرا به عدة لتلميع الأحذية.. اتفقت معه على مساعدته في عمله مقابل اقتسام المال.. وفي بعض المرات يمكن أن أحمل الصندوق بدلا عنه ساعة يخلد هو للراحة.. فأنا لم أعد أعرف الهدوء وراحة البال.. يجب أن أوفر رزقي. وبالفعل بدأنا العمل. كان له زبائن يمر عليهم يحفظهم تماما. كنت أنا الغريب والجديد. وكان يعرّفهم علي بقوله لهم هذا صديقي. لم يكن يعرف اسمي ولم يسألني عنه. ولم أكن أعرف اسمه كنت أُسمِّه أيضا صديقي. ومررنا على عشرات الزبائن في مكاتب المحاماة وفنادق ومطاعم وصرافات عملة وعيادات أطباء قديمة مهجورة ومكتبة لبيع الكتب المسيحية بجوار كنيسة. أول مرة أدخل فيها هذا البناء العجيب المميز بزخارفه. كان صاحبي كما أخبرني مسيحيا بخلاف الصبي الذي صلى معي الفجر وذهب مع الجنوبية الأنيقة.

في آخر اليوم وقريبا من العصر كنا قد جمعنا مالا لا بأس به. وذهبنا للأكل سويا في أحد المطاعم. كان في نفسي أن أكل ساندويتش الشاورما الذي اعتدته مع الأعرج عند ذلك التركي، لكنني لا أعرف المكان بالتحديد، فغالبا ما كنا نأتي بالسيارة. وفرق بين اكتشاف الأماكن وأنت في السيارة وعلى الأرض. وبعض الأكل شربنا زجاجتين من البيبسي كولا. وأخرج صاحبي سيجارة أبونخلة كالتي يدخنها العجوز. أشعلها. أنا لم أدخن في حياتي أبدا. قدمها لي. رفضت. تحت إصراره جذبت نفثا منها. شعرت بشيء حار وحارق يخترق صدري عبر حلقي. شعرت بالضيق في التنفس. وكحيت بشكل متكرر، حتى تقيأت. قال لي صديقي:

"يحدث هذا عادة.. ستجرب غدا مرة أخرى"

لكنني رفضت التجريب في أي مرة ثانية.. لم يكن السجائر مناسبا لي ولم أحبه.. كما لم أرغب في اشتمام بعض المواد اللاصقة التي ينزعها الصبية من غراء الأحذية أو السيلسيون.. هي كثيرة وفي كل يوم كنت أكتشف جديدا منها.. ولا أعرف حتى اليوم السبب الذي أنقذني من هذه الأمور ربما ذلك الرجل العجوز الذي كان يتكرر ظهوره في منامي وهو يدعو لي الله أن أكون إنسانا صالحا، ولهذا كنت أحرص على الصلاة في المسجد لم أتركها أبدا.

ومضى أسبوعان وأنا على هذا الحال في الشارع، أسكن وسط الصبية المتشردين.. كان مضجعي تحت بناية جارٍ تشييدها، ننام أنا وصديقي ونقوم على عملنا كل يوم.. وكنت قد اشتريت صندوقا لحالي وصرنا نقتسم الزبائن.. ولم تحدث أية مشاكل بيني وصديقي رغم تحريضات بعض الصبية الآخرين ورغم المشاكل التي كنا نتعرض لها.. وما أكثرها.. لكن تلك الفتاة الأنيقة كانت تظهر من وقت لآخر وتحل القضايا الشائكة.. وبعكس ما بدت لي جافة وثقيلة الدم تجاهي في البداية كانت قد بدأت في استلطافي.. وصارت تدير حديثا معي، بطريقتها التي تشير إلى أنها متعلمة أو تتلقى دروسا في المدرسة.

وصرت كلما جاء صباح جديد وأنا أنهض من تحت البناية، بعد أن أكون قد خلدت لرقدة بعد الفجر، أراها أمامي.. تأتي يوميا تجمع بعض الصبية وتأخذهم معها.. ومنهم الصبي الذي

يحرص على صلاة الفجر.. لكنه يدخن ويفعل كل الأشياء الأخرى. بخلافي. وكان يتهمني بأنني ضعيف الشخصية.. يقول لي ذلك بلغة ممزوجة بالضحك. ومع مرور الأيام نسي إلصاق هذه الصفة بي. بل قال لي ذات صباح قبل أن تأتي الجنوبية الأنيقة:

"أنا فخور بشجاعتك.. أنت تركت حياة رغدة وجئت لتعيش هنا".

وكان يقصد بيت خالي.

كان قد عرف قصتي ففي الليل لا يوجد لدى الصبية سوى الحكايات.. لكل ذكريات خاصة من أيام متباعدة رغم قصر أعمارهم. كنا نلتقي في حلقة واحدة ونحكي. كل يقص قصته لا يتوقف إلا عند نقطة معينة يكون قد انطلق منها لأخرى في الليل الثاني. كانت تلك الحكايات أغلبها ذكريات مؤلمة عن الحرب التي تطحن الناس في جنوب البلاد، كيف أن الدم يتدفق ويختلط بماء النهر وكيف أن الجثث تختلط مع بقايا جذوع الأشجار في المستنقعات. قصص لم يكن لي أن أصدقها من قبل. ما أشعرني بأن مأساتي هي أخف قدرا، ورغم ذلك لم يكن هناك ما يحركني لكي أعود للوراء.

ومن ضمن الحكايات التي كانت تشغل جزءا من الليل حكاية الفتاة الأنيقة.. التي قال الصبية إن والدها سياسي كبير وأنها تدرس في المدرسة الإنجيلية وتجيد عدة لغات وتتحدث العربية بطلاقة، فالآخرون يلكنون فيها. وعرفت أنها تأخذ مجموعة من الصبية ليعملوا في بيوت الكبار من السياسيين ورجال الأعمال بهدف كسب المال. وهي تنظم للبعض برامج تدريبية في اكتساب مهارات الحياة. كنت أعرف أن وراءها سر. وها قد وضح الأمر أمامي. وفي اليوم التالي، كنت أتأملها بدرجة مختلفة. بدأت لي تشبه ابنة خالي وهي تقف في تلك الصورة التي رأيتها فيها.. بثقة وثبات.. هي داكنة مثلها.. ومنفرجة الشفتين وبأنف مدبب قليلا.. وجبين وضاء.. الفرق الوحيد أن ابنة خالي أكبر سنا. وتجرأت لأسألها في ذلك اليوم أن توفر لي عملا، لم يكن طلبي حقيقيا فأنا أكسب جيدا من خلال عملي في تلميع الأحذية. لكنني كنت أريد أن أوجد موضوعا معها يجرني لمعرفتها بشكل أفضل.. يعني ممارسة الفضول، لسبب لم يكن مفهوما لي.

نظرت إلي بابتسامة، بدت لي جميلة أكثر، ولأول مرة أشعر بأن ثمة أنثى تثيرني بهذه الدرجة.. كانت تلك الأيام تشهد تغيرات في نفسيتي الداخلية وتشكيلي البدني، كنت أعرف ذلك وأراه بوضوح.. وأدرك أنني اقترب من تكويني كرجل. قالت لي:

"أعرف أنك كنت ستطلب هذا الأمر.. لا بأس"

لكنها لم تستجب فورا لطلبي.. فقد مضت عدة أيام قبل أن تأتي ذات صباح وتقول لي:

"اليوم وجدت لك عملا سوف ينفع معك تماما"

تلهفت لأعرف ما هو هذا العمل الذي وجدته لي، في الغالب سأكون خادما في بيت أحد سادة المدينة، كما أصحابي هنا. لكنها أشارت لي بأنني مميز. ولم أعرف ما المقصود بمميز. هل اختلاف لوني يعني أنني مميزا؟! لكنني لست الوحيد من ذوي البشرة الفاتحة هنا. هناك العشرات

غيري في هذا الشارع ممن تصطادهم سيارات الشرطة وتزج بهم في سجونها المتسخة ليصيروا خدما لهم أيضا.

لم تشرح لي الأمر إذن وكان علي أن أصحبها في رحلة لم تطل كثيرا. ركبنا سيارة طويلة ذات أبواب عريضة، بيضاء. كان السائق جنوبيا طويلا، يتكلم الإنجليزية، وقفنا عند بوابة بناء عرفته فورا إنه الكنيسة، ودخلنا. كان هناك رجل يرتدي زيا أبيضا ينتظرنا، سلم علي باسمي كأنه يعرفني، وتحدث مع الفتاة بلغة غير مفهومة بالنسبة لي. كان الرجل أبيض البشرة وله شارب أبيض تماما وله قلنسوة بيضاء. كانت ابتسامته جميلة، وبدا لي مريحا. لكنني تعلمت في هذا البلد ألا أعتمد على الابتسامة الأولى كما عشت في التجارب السابقة.

ذهبت الفتاة والسائق وبقيت مع الرجل، قال لي:

"سمعت عنك.. إنك مثال للاجتهاد والتضحية.. أعرف قصتك جيدا"

لم أدر بماذا أرد، خاصة أنني لا أعرف دوري حتى الآن ولا شكل العلاقة التي ستربطني بالرجل.. لكنه اختصر الطريق ساعة قال لي:

"ستعمل معي هنا وستتعلم كثيرا.. لدينا في هذا المبنى الكبير أشغال كثيرة"

في البداية تم تكليفي بترتيب غرفة السيد ذي القلنسوة البيضاء. والذي كان الرجل المهم والأول في الكنيسة وكان الجميع هنا ينادونه باسم "أبونا".. كان لطيفا وطيبا إلى أبعد الحدود.. في الأيام الأولى كنت أبقى نهارا للعمل وفي الليل أذهب لأصدقائي في الشارع، الذين كانوا متشوقين لسماع قصتي.. فكل من يدخل تجربة جديدة يأتي ليروي حكايته.. لكنني كنت آثر الصمت أو القول باقتضاب. ومع الأيام قلت عودتي لأصحابي، فقد ظللت نهارا وليلا في الكنسية، أقوم على خدمة أبونا.. وفي الوقت نفسه كنت أؤدي صلاتي كمسلم لم يكن أحد ليعترضني.

ذات صباح جاء وفد من الخواجات.. ثلاثة رجال وفتاة جميلة وسيدة عرجاء مثلي عجوز، رأتني فتعاطفت معي والتقطت صورا تذكارية معي بكاميرا كانت الفتاة الشقراء تحملها.. كان معهم مترجم يتحدث العربية.. لكن أبونا كان يجيد لغتهم ويتحدث معهم ببراعة. وألبسني السيد ملابس زاهية في ذلك اليوم وتم تصويري وحدي أيضا وأنا أجلس بجوار أبونا.. لم أعرف لأي غرض كان يجري ذلك ولم أسأل. وغادر الوفد.. في حين بقيت ذكراهم بدماغي إلى اليوم. ومرة أخرى جاء وفد ثان وأيضا تم أخذ الصور لي ولم يكن ثمة أعرج في هذه المرة.

مضت الأيام بي في خدمة أبونا، وصرت أرتب له مكتبه الصغير المجاور للكنيسة كان يجلس لساعات طويلة يقرأ ويقابل أناس يأتون بسيارات فارهة مكتوب عليها "هيئة دبلوماسية".. وذات ظهر أغلقوا الشارع الرئيسي المجاور للكنيسة وبقي مغلقا إلى اليوم الثاني ليلا.. وكان رجال الأمن والشرطة يحرسون المكان في تواجد كثيف. وفهمت أن رجلا كبيرا سوف يزور الكنيسة. وفي الساعات المتأخرة من الليل وصلت سيارة مزعجة تتقدمها دراجات نارية كبيرة يجلس عليها رجال بطواق كبيرة سوداء. عرفت أنه الموكب نفسه الذي شاهدته يوم خرجت من بيت خالي نهائيا. كنت

ضمن طاقم الاستقبال ووقفت ببهائي وحلتي الباهية، أبدو وسيما جدا كما رأيت صورتي في المرآة قبل مغادرة غرفة التجهيز حيث جاؤوا بعدد من النساء لترتيب أمورنا أنا وصبي آخر أسمر، جنوبي، لم أعرفه من قبل، فيما كانت الفتاة الأنيقة تتقدمنا وهي تحمل لافتة ترحيب.. ونحمل أنا والصبي الأسمر لحافا صغيرا مغطيا بالورود المتنوعة ذات العطر الفواح، وفوقه وضع مقص بحجم كبير، لم أر مثله سابقا.

في تلك اللحظات تذكرت زوجة خالي التي ذكرتني بالنظر إلى المرآة مرة وهي تغتصبني، وشعرت بالضيق لجزء قليل من الوقت أنني أوظف في هذا الموقف ربما بسبب وسامتي حتى لو أنني كنت أعرجا. ولم أطل التفكير في الأمر، فقد دخل الرجل الذي أنحنى له الجميع هنا بما فيهم أبونا.. السيد رئيس الجمهورية.. لم يكن متغطرسا بعكس الأبهة التي سبقته، والتي توحي بأنه سيكون مغترا. كان يمازح الجميع ويضحك معهم بملابسه البلدية، الجلباب المحلي والعمامة الكبيرة التي بدت لي بيضاء جدا كأنه يلبسها لأول مرة. كان الحدث يتعلق بوساطة يقوم بها الأب لإنهاء الحرب في جنوب البلاد وكان المقص قد قطع شريطا وراءه لافتة كتب عليها "الفجر الجديد"، لكنها كانت وساطة فاشلة كغيرها من الوساطات كما علمت لاحقا.. كانت الحرب تتوقف ثم تعود مرة أخرى.

كان ذلك اليوم كأنه بداية النهاية لوجودي هنا. فبعد أسابيع قليلة. كان الأب قد تغير نوعا ما. لم يفقد لطفه لكن صار متذمرا بعض الشيء. وكانت وفود الهيئات الدبلوماسية قد توقفت عن المجيء لمكتبه. كان قد توقف عن القراءة كما يفعل دائما. ولم يعد هاتفه الثابت يرن إلا قليلا. وأحيانا يتركه يرن حتى يصمت فلا يعود يهتم بمن يتصل به. إلى أن جاء مساء، اقتحم فيه مجموعة من الرجال بالزي المدني مبنى الكنسية وأخذوا الأب وبعض المقيمين بالمكان، وكنت أنا ضمنهم. وشاهدتهم وأنا أصعد سيارة أشبه بسجن حيث أن خلفيتها صندوق مغلق لكنها أرقى وأجمل من سيارة الشرطة التي حملتنا من الشارع سابقا.. وهذه لونها أزرق بديع. كانوا قد أغلقوا الباب الخارجي للكنسية بطبلة كبيرة جدا، لم أشاهد مثلها من قبل. في حين مضت السيارات كالريح إلى أين لا أعلم.

أخذونا إلى بيت يقع بجوار النهر، وهناك رأيت "أبونا" يقاد بسلاسل إلى داخل غرفة، كان يسير مرفوع الرأس ولا يتكلم. وبعدها بساعات أدخلوني غرفة بها سرير مرتب وأحضروا لي طعاما ولم أعرف ماذا حدث للبقية.. ولم يكلمني أحد إلا في الصباح التالي، ساعة حضر شاب بدا لطيفا أيضا. ما أكثرهم لطفاء هذا البلد. لكن التمهل ضروري. وبدأ في استجوابي.. سألني عن علاقتي بالكنيسة والأب.. وما عملي بالضبط. ولم أكذب عليه. قلت له ما عندي. لا أدري إن كان يصدقني أم لا. أم كان يعرف عني كل شيء وهذه مجرد مسرحية ساذجة.

في النهاية طلب مني التوقيع في أسفل واحدة من الأوراق التي عبأها بالحبر الأزرق الجاف، قبل أن يسألني سؤالا لم يدرجه في النص المكتوب:

"هل تعرضوا لك بأي مس؟.."

استغربت السؤال.. لم يحدث ذلك أبدا.. ولم أسأله ماذا يعني، فقد بدا لي الأمر واضحا. قلت له:

"لا لم يحدث ذلك أبدا.."

كرر قائلا بابتسامة بدت بلهاء مع تطاير الرموش في عينيه اللتين فتحتا كثيرا، مع عدم قدرتي على رؤيته بشكل جيد، كانت تلك الحالة الضبابية في الرؤية قد داهمتني دون سابق إنذار:

"ولا حتى الأب الكبير.."

أجبته مباشرة:

"هذا رجل محترم"

صفعني دون سابق إنذار على خدي الأيمن بقوة فظيعة لا تعكس مظهره النحيل. ثم ضحك وذهب عني تاركا باب الغرفة مفتوحا. في تلك اللحظات تذكرت خالي وأنه يمكن أن يكون أهم من كل هؤلاء. ولم أدم الفكرة في دماغي حيث شاهدت سيدة تتحرك في الفناء الخارجي.. عرفتها فورا إنها تلك التي كانت تلتصق بخالي يوم الحفل الذي أقامه بالبيت، ما الذي جاء بها هنا؟ قلت لنفسي هل ترى لو رأتني ستعرفني؟! لكنني كنت أتمنى ألا تراني أبدا. كانت هذه رغبتي فلا هي ولا خالي.. هذا العالم لم يعد يهمني، لكن هل سأكون قادرا على التخلص منه ما دمت أعيش في هذا البلد.

بعد يومين.. جاءني شاب آخر وقال لي:

"سنطلق سراحك الآن.. هيا"

أخذوني إلى السيارة الزرقاء ذات الصندوق، وانطلقت لا أعرف كم سارت إلى أن وجدت نفسي في عتمة شارع من شوارع المدينة.. أين هو؟ لا أعلم؟ لم يسبق لي أن اكتشفت هذا المكان من قبل. رموني على الأرض مثل كلب جريح وانطلقوا مسرعين.. وقفزت بقوة معاندا عرجي.. منهكا ومتعبا نفسيا من هذا الموقف الذي وجدت نفسي فيه بلا مقدمات.. كانت المخلاة لا تزال بيدي.. تأكدت من أن المصحف والمسبحة في مكانهما لم يمسا.. كان ينتابني شعور بأنني سوف أرى الرجل العجوز صاحبي.. سوف يطل الآن ليخرجني مرة أخرى من ضيقي من هذا السجن الكبير.. ولكن إحساسي هذه المرة كان كاذبا.. فلا أحد أطل.. ليست ثمة شيء سوى السكون وبعض من حفيف الأشجار ورائحة ليال بعيدة في ذاكرتي لصور من طفولتي الأولى وأبي يضرب أمي بقوة وعرقه يفوح عرقا.

4

الآن يا ولدي نقترب من قصة الشاورما.. الحكاية التي غيرت حياة أبيك.. وبدأت تحديدا في ذلك الليل.. حيث لا قمر.. فقط نجوم متباعدة وصبي منهك وشارع خال من المارة وذكريات في الذهن مشتتة.. أغمض عيني وأفتحهما ثم أحكهما بصعوبة وهما مغمضتان لأتبين تفاصيل المكان الذي رميت فيه، لا يبدو بعيدا عن وسط المدينة الكبيرة.. فهمت ذلك من خلال البنايات العالية التي لا وجود لها إلا في هذا الموقع. نعم عرفت بناية واحدة منها، إنها تلك التي تقع خلف المطار.. بنايات عالية وسطها تهبط الطائرات. أمر غريب. لكن واقعي. في هذا البلد كل شيء ممكن.

كان شبح لإنسان يتقدم نحوي، هو في الغالب رجل. ضخم الجثة، يشغل حيزا في فراغ العتمة. توقف أمامي وقبض على يدي بقوة.. قبل أن ينظر إلى وجهي مليئا دون أن يبدي أية مشاعر. لم يكن وجهه غريبا عني إنه ذلك الممتلئ البدن الذي يعمل مع التركي في مطعم الشاورما. تذكرته كان دائما ما يرمقني بنظراته الغريبة ساعة ندخل أنا والأعرج. شعرت بشيء من الطمأنينة بقدر خوفي. أنني قريب من ذلك الموقع الذي أعرفه. وأنني سوف أتمكن من فهم خريطة المدينة من جديد.

ضغط الرجل على ظهري بكامل جسده القوي، كان قد التصق بي بطريقة فجائية في الشارع المظلم، ثم قال لي:

"إلى أين أنت ذاهب؟"

لم أعرف ماذا أقول له، فطريقته في التعامل معي كانت مريبة. كما أنني في الواقع لا أعرف إلى أين أنا ذاهب. وصمت إلى أن كرر سؤاله، وزاد من ضغطته على ظهري، لاشتم رائحة العرقي تفوح من فمه. كان سكرانا إذن. وزحفته جانبا قبل أن أرد عليه أخيرا:

"ماذا تريد مني أتركني وحالي؟"

لوى ذراعي بقوة.. لكنني احتملت ذلك إلى أن تمكنت من السيطرة على ذراعه وحركته جانبا مثل فيل قوي هويت به على الأرض، ولا أعرف كيف استطعت أن أفعل ذلك، ثم هرولت سريعا هاربا من أمامه لأتخارج من قلة أدبه. لكنه قام وشرع في مطاردتي، كان رغم ثقل وزنه خفيفا قادرا على الجري بسرعة. غريب أمره. وفي اللحظة التي كاد أن يقبض علي مجددا. كانت يد قد امتدت في العتمة لتزيحه جانبا. وجه آخر أخبرتك عنه من قبل. إنه مألوف لي ومحبب. ذلك التركي صاحب المطعم بلحيته البيضاء الصغيرة المشذبة. لم أكن أظن أنه سيعرفني في هذه العتمة، وفوجئت بأنه يناديني باسمي، الذي لم أكن متأكدا من قبل إن كان يحفظه أم لا، فهو لم يسبق أن ناداني باسمي.. فقط كان يلقبني بالفتى.. وأخذني جانبا إلى داخل بيت صغير، له بوابة قصيرة من الحديد محفوفة بالزهور التي كانت تبعث رائحة جميلة في ذلك الليل الحار. كان الرجل الممتلئ

قد اختفى عن الأنظار، ولم يتكلم معه التركي أبدا. كان مجرد ظهوره كفيلا بتواريه في الظلام، كأنه شبح حقيقي.

هذه الليلة قضيتها في بيت التركي.. نمت في غرفة هادئة لا ضجيج فيها، بدت لي سكنا رائعا لم أحس بالراحة النفسية كما أشعر بها في هذا الفجر وأنا استيقظ كعادتي للصلاة، ولم يكن صعبا علي أن أعثر على المسجد فقد بدت لي المئذنة جلية. وصليت ثم غفلت عائدا إلى بيت التركي فأين أذهب. والرجل قال لي بالحرف الواضح:

"نم هانئا يا بني هنا وفي الصباح كل شيء يكون على ما يرام"

هل كان يدرك مأساتي وهو لم يسألني البتة؟ ربما.. ووصلت الغرفة بعد الصلاة.. رقدت لنصف ساعة تقريبا في سرير مرتب وأنيق بجوار طاولة صغيرة عليها مزهرية وأمامي على الحائط مع إطلالة أولى شعاعات الصباح الجديد ارتسمت تفاصيل صورة بالأسود والأبيض، معلقة على الحائط، لامرأة مسنة، تشبه التركي. يبدو أنها أمه. أو ربما أخته. لا يحتاج ذلك لكثير ذكاء.

دخل علي التركي، ألقى تحية الصباح ووضع أمامي قدحا من القهوة الساخنة. وفطيرة من الخبز مع الجبن، كلمني:

"قد ذهب صديقك افتقدته كثيرا"

كان من الواضح أنه يتحدث عن الأعرج، فلولاه لما تعرف علي. لم يسترسل في قول أي شيء عنه، لكنه نظر إلي بشيء من الشفقة، أحسست بذلك إن لم يكن ذلك الشعور كاذبا، كما تعودت في هذه المدينة. بدا لي أنه يعرف كل شيء عني.. لم يقل كلاما كثيرا لكن إشارة واحدة تكفي كما يقال، قال لي:

"لا أظن أنك سعيد في بيت خالك!"

هو يعرف بيت خالي!.. وخالي!.. لا يوجد غير الأعرج هو الذي أسر له بهذه التفاصيل.. ففي كثير من المرات ساعات كنا نأتي للمطعم، كان الأعرج يتأخر ليقضي دقائق في الثرثرة مع التركي، لكنه لم يكن يهتم بذلك المتلئ أبدا.. كان يحتقره.. مرة قال عنه إنه حقير، ساعة رمقه يديم النظري نحوي. لكنني لم أعرف ولو لمرة محتوى الحوار الذي يدور بينهما. يبدو أنني كنت جزءا من مضمون تلك الأحاديث التي راح صاحبها الآن وتركني وحدي. أحسست بالألم لتذكره. فأنا في بعض المرات حساس تهرق دموعي وتسيل لأقل الأسباب، ورأى التركي ذلك. رآني أكاد اختنق، فقال لي:

"لا تخشَ على المستقبل.. إذا أردت أي عون سأقدمه لك.. فالأعرج كانت له فضائل عندي"

استطرد قائلا:

"أنت أيضا ولد حلال وتستحق الكثير... إنك..

كاد أن ينطق بكلمة لكنه تلعثم أو تركها لا أدري.. توقف فجأة عن الكلام..

مع ميلاد اليوم الجديد، شكرته، لأقرر العودة إلى أصحابي في ذلك الشارع حيث أعود لعملي في تلميع الأحذية. أخبرته بذلك، فدعا لي الله بالتوفيق في رحلتي في الحياة، ثم قال لي:

"لي طلب صغير منك"

أرخيت لأسمع طلبه، فقال لي بطريقته المريحة في الحديث:

"مر علي كل صباح لتلمع لي حذائي.. وتسلم على عمك"

وودعني مؤقتا بنظرات بدت لي حزينة.. قبل أن أعود لأصدقائي الذين كانوا قد تحلقوا حولي لسماع قصتي.. ما جرى معي منذ أن غبت عنهم.. وأخبروني أن الفتاة الأنيقة اختفت منذ أيام.. وفهمت أن ذلك قد يكون متعلقا باعتقال الأب وإغلاق الكنيسة، فقد كان الصبية يتحدثون عن وصول المزيد من النازحين من أتون الحرب، وأن المعارك ومنذ يومين تفاقمت بشكل فظيع. كان بإمكان الإنسان أن يعرف تفاصيل ما يجري في الجنوب من خلال سماع الأنباء هنا، فالصحفيون كانوا ينتشرون هنا لالتقاط الأخبار، كما أخبرني صديقي ملمع الأحذية، وحذرني أن لا أتكلم مع أحد لا أثق فيه، لأن الساحة هنا مراقبة وأن أي تفوه مني بكلمة لا تعجبهم سوف تقودني مرة أخرى للسجن. ولم يقل لي من المعني بـ "هم" ولكنني فهمت.. كانت خبراتي في الحياة تتسع وبدأت أفهم تضاريس الحياة في هذا البلد، منذ تلك اللحظة التي كان صاحبي العجوز في القطار يتحدث عن ضعف الإيمان.

أصبحت أمر في كل صباح على التركي الذي صرت أخاطبه بعمي، أقوم بتلميع حذائه.. صارت لي خبرات لا بأس بها مع ماركات الأحذية ومن خلالها أتعرف على أصحابها وهواهم.. أعرف المستورد والمصنع محليا. حذاء السيد التركي كان غريبا علي في بادئ الأمر، عرفت لاحقا أنه مصنوع في مدينة أنطاليا التركية لونه أزرق وله رباط من القطن، لكنه خفيف للغاية.. جلده يبدو صناعيا لكنه طبيعي مائة بالمائة، فقد اتسعت خبراتي في معرفة الجلود أيضا. وقد أحتاج مني هذا الحذاء لورنيش خاص، هنا كان علي الاستعانة بخبرات صديقي الملمع الصغير.

كان عمي التركي يغدق علي المال أكثر من الثمن الحقيقي لتلميع حذاء. أنا أمر يوميا على العشرات، بعضهم يدفع مبلغا محترما ولكن كثيرين يدفعون الواجب فحسب، أي الثمن المخصص.. ربع جنيه.. لا يترحمون عليك إلا في أيام معينة تكون البشاشة قد كست وجوههم دون أن تعرف الأسباب طبعا. ليس كل الناس تقول أسرارها، لكن هناك أيضا من يثرثرون ويقولون الكثير جدا. كنت أسمع للجميع ولا أتضجر، فمهنتي تتطلب ذلك. إلا عمي فقد كان لا يتكلم كثيرا.. كان يجلس على الكرسي في المدخل ويمد ساقه يسندها على حجر مرتفع على الأرض، أكون قد بدأت في عملي في السابعة صباحا لا أتأخر عن الموعد أبدا. تفهمت أن الدقة والالتزام بالوقت أهم أمر لنجاح الإنسان في العمل. تلك كانت بعض من وصايا عمي ساعة يرغب في الكلام، فقد تأخرت في بعض الأيام الأولى قليلا.. ربما كثيرا.. قال لي:

"إذا أردت أن تبدأ بشكل صحيح فألتزم بدقة الوقت"

صار ذلك هدفا ولافتة أحملها في قلبي.. وفي كل يوم كنت أستمع لحكمة منه.. هو لا يتقصد إطلاق الحكم والوصايا لكنها طريقته في الحديث.. خبرته في الحياة هي التي تتكلم بدلا عنه.. وشعرت أنه شديد الحرص على أن أكون رجلا حقيقيا بالاعتماد على نفسي، قال لي مرة:

"إذا أردت أن تسير للأمام لا تلتفت للوراء أبدا"

كان يتملكني حدس بأن في حياته سر مثلي.. حتى لو أن قصتي لم تصبح سرا عنده.. فالأعرج قال كل شيء كما فهمت مع الأيام.. كنت متشوقا لمعرفة السبب الذي جاء به من تركيا لبلدي ليعمل هنا.. ما هي الأسباب التي تجعل إنسان ما يهاجر ويشرع في عمل في بلد آخر وينجح فيه.. أسئلة كثيرة كنت أود أن أجيب عليها. في الماضي القريب كان الأعرج يجيب على بعض أسئلتي.. كان يملأني بالحماس والرغبة في المزيد من الأسئلة واختراق الحياة بشجاعة.. اليوم عمي التركي يشعرني بأمور إيجابية، لكنني أخجل عن توجيه الأسئلة له.. وأدمنت وصولي صباحا.. لكي أسمع وأتعلم وأصير أكثر دقة في عملي.

طوال الفترة السابقة.. كنت قد انتقلت للعيش في بيت صغير عبارة عن غرفة واحدة مع صديقي الملمع.. لم يكن بيتا مستأجرا.. كان مهجورا.. يوجد في شارع رئيسي بوسط البلد، يمكن الوصول إليه عبر زقاق ضيق.. لا أحد يشعر به هذا البيت ولا يراه إن لم يكن قد وصل إليه من قبل.. كان إحدى اكتشافات صديقي الملمع.. وسكنا فيه بعد أن وضبناه جيدا وقمنا بإصلاح سقف الغرفة حتى لا يسمح بتمرير ماء الأمطار في الخريف، وعملنا على طلاء الجدران باللون الأزرق.. ورسمنا أشكالا لكائنات تشبهنا.. جربنا قدراتنا في الرسم.. واشترينا دولابا صغيرا وضعنا فيه أغراضنا من الملابس.. صرنا أخيرا نغير ملابسنا كل يوم أو يومين على الأكثر فالغبار كثير هنا في المدينة.. في الماضي كنا نكاد نموت بعفونتنا.. وكان لنا حمام صغير دون أنابيب، نجلب إليه الماء من نافورة ليست بعيدة في منتصف الزقاق كان ماؤها باردا بعض الشيء.. لا نعرف مصدرها، فقط تعاملنا معها كنعمة من الله.

كان عمي التركي يكتشف التغيرات في حياتي.. وكنت أخبره بشكل مقتضب بما يحدث.. كان يفهم الحياة جيدا ولم يكن يتطلب مني أن أفسر كثيرا، فبمجرد أن أشير لأمر ما كان يدركه جيدا.. كأنه مر بتجارب مشابهة لما أمر به.. وتعرف مني على صديقي الملمع ورفيقي في السكن.. ذلك الفتى القادم من الغابات البعيدة.. وأوصاني به خيرا.. كما أوصاه.. قال لنا:

"أنتما تمثلان نموذجا صغيرا لوحدة بلدكم المنهوبة"

لم تكن صراعات الساسة وما يدور في الأبنية العالية في المدينة يهمنا.. كيف يشعلون الحروب أو يطفئونها أو يقلقون حياة الناس البسطاء.. كنت أحيانا استرجع تجربتي مع الكنيسة والأب، فأشعر بالحنين لتلك الأيام.. تبدو لي الآن تجربة رائعة ومحببة لي.. فقد كان أبونا رجلا طيبا ووطنيا، غير أن الحياة لها تصاريفها الخاصة.. في الوقت ذاته كنت أخاف أن تتكرر تجربة الأب مع عمي التركي بأن أفتقده ذات يوم.. رغم أن الرجل لا يبدو مشغولا بالساسة والسياسيين

والانتخابات والحروب.. غير أني تعلمت من الأيام أنهم لا يتركون أحدا لحاله.. هذا الضمير (هم) الذي كثيرا ما كان الناس يستعملونه في الشارع حتى يسكتون عن المعني. لكن الجميع كان يعرف من المقصود بالضبط.

كان صديقي يذهب في بعض الأحيان للصلاة في الكنيسة التي عادوا لفتحها لكن الأب لم يظهر مجددا. فيما أصلي أنا في المسجد. لا أحد يتكلم مع الآخر بخصوص طقوسه الدينية.. وكان صديقي مستمرا في التدخين لكنه لا يدخن في الغرفة لكي لا يقلقني.. يعرف أنني لا أحب رائحة الدخان.. ومع مرور أسبوع وراء أسبوع كانت علاقتنا تتوطد وابتعدنا عن عالم فتية الشارع وحياتهم اليومية.. لكننا كنا من مرة لأخرى نذهب إليهم ببعض الهدايا التي نشتريها من المال الفائض عندنا. وبدأت في تلك الفترة في توجيه بعض هواياتي القديمة كأن اقرأ كتابا مثلا، في حين كان صديقي يحب الرسم.. واشترى حاملا وورقا بدأ يمارس هوايته في الليالي.. بعد أن أوصلنا الكهرباء للغرفة بطريق مدسوس من إحدى العمارات المجاورة..

نستيقظ في الفجر الباكر حتى لو أننا سهرنا.. نقوم على عملنا بإخلاص ومحبة.. بعد أن أصبحت في حياتنا متع أخرى غير العمل الدائب.. أمر كالعادة على عمي التركي.. لا أتأخر.. إلى أن جاء ذلك الصباح الذي وصلت فلم أجده.. كان الرجل البدين واقفا ليتحرش بي.. كأنما انتهز الفرصة.. لكن تحرشه وهو بكامل وعيه في الصباح وليس سكرانا، يبدو مشبعا بالطرفة وضحكت كثيرا في ذلك اليوم بدلا من أن أنزعج.. اكتشفت أن للرجل بعدا آخر.. فأنا لا أتحدث معه عادة.. منذ ذلك الليل الذي أبعده التركي عني.. وهو يتعامل معي بحذر منذ أن عرف أن علاقتي مع سيده في العمل بدأت تتوطد شيئا فشيئا.

في ذلك الصباح وبدلا من أن يجيب على سؤال:

"أين عمي؟"

رد قائلا:

"يا ولد يا لذيذ!"

كان يطلق العبارات أمام الناس لا يلقي لهم بالا، يبدو انه انتهز فرصة غياب سيده ليكون جريئا ولكن لطيفا ومسليا.. وقال لي أحدهم هامسا، كان من الزبائن الذين كثيرا ما رأيتهم يأتون يوميا لتناول الشاورما في الصباح: "إنه يجيد الكلام لكنه لا يفعل شيئا.. هو لا يملك شيئا من الأساس". وقلت لنفسي ضاحكا: "يبدو أن عمي يدرك هذا السر لهذا يحتفظ به معه"..

بعد أن أفرغ نكاته البذيئة وهو يداعب الزبائن.. ويتسلى بسماع التعليقات عنه.. كان قد تفرغ للإجابة على سؤالي:

"عمك سافر وسيعود بعد عدة أيام.. أنا الملك هنا.. تعال لتلمع لي حذائي"

ظننت أنه يمزح، لم يحدث لي أن قمت بتلميع حذائه من قبل.. أنا أعرف أنه لا يرتدي أحذية أساسا من النوع الذي يحتاج للتلميع، هو يفضل الحذاء البلدي المصنوع من جلد النمر وهذا لا يحتاج لأي ورنيش.. عملي في هذا المجال يجعلني أول ما انتبه للمرء من أسفل.. لكن في هذه المرة فاتت علي.. فقد شغلني البدين بكلامه المضحك.. وانتبهت لأجد أنه كان يلبس حذاء أزرقَ كسيده وله رباط.. ربما كان حذاء السيد نفسه.. لكنه مختلف المقاس.. فقدم التركي طويلة ورقيقة بينما قدم البدين عريضة جدا وممتلئة بالشحم.. يبدو أنه يأكل كثيرا. وجلست على الأرض، لأبدأ عملي.. وجلس هو على كرسي السيد، يمثل دوره دون أن يجيده.. وانتهيت من تلميع الحذاء.. وأخرج من جيبه جنيهاً كاملا.. نعم جنيهاً.. وحشره في جيب قميصي.. كان الزبائن يضحكون بشدة وهم يشاهدون المسرحية التي بدت مسلية لهم. لكن الهدوء عاد للمكان دون مقدمات ساعة دخلت سيدة مهيبة، تبدو في العقد الخامس من عمرها.. كانت ترتدي بلوزة خضراء مخططة وتنورة أعلى ركبتيها بيضاء تماما.. وبدا وجهها بهيا لكنه صارم إلى أبعد الحدود، مغسول للتو بعطر فواح فيما كانت شفتاها حمراوتين صغيرتين. كانت متوسطة الطول، يبدو أنها كانت جميلة في صباها. خمنت أنها زوجة التركي أو من أقاربه. صحيح أنني بت ذلك اليوم في بيته لكنني لم أر أحدا سوى تلك الصورة المعلقة على الحائط.. لا أعرف إن كان للرجل زوجة أو أبناء أو أقارب هنا.. لا أعرف ولم أسأل وليس من حقي.

مع دخول السيدة التركية كان البدين قد تحول إلى إنسان آخر، محترم جدا. بت أعرفهم جيدا الناس هنا بارعون في التمثيل. إنه الآن يبدو مسكينا ومؤدبا غاية الأدب مع العمة التركية. التي قامت بإلقاء نظرة على المحل واطمأنت على الوضع بشكل عام. كان الزبائن يختلسون النظرات نحوها ويبدون تأدبا أيضا. كانت قد جلست على كرسي كبير في الداخل، تحت مكيف الهواء الذي كان يضرب بقوة على الصالة الداخلية الصغيرة من المطعم وأمسكت بمجموعة من الدفاتر. شرعت في تقليبها والتخطيط بقلم رصاص. يبدو أنها تقوم بمراجعة الحسابات اليومية. قررت أن أغادر قبل أن أعرف إلى أين سافر عمي.

في اليوم التالي عدت ولم يكن السيد موجودا، هذا يعني أنه لم يعد بعد. كان البدين أكثر تهذيبا يبدو أنه يتوقع وصول العمة التركية في أي وقت لهذا يستعد مسبقا. وكان كريما معي هذا اليوم لم يمارس دور السيد لكي ألمع له حذاءه. طلب مني أن أقوم بمساعدته في تلميع الأرضيات بالصالة الداخلية لأن السيدة غير راضية عن مستوى النظافة بالمطعم، لم أمانع وقمت بالواجب بشكل جيد. أحب أن أدقق في عملي وأن أحب ما أقوم به، هذه إحدى وصايا العم. وبعدها كانت مهمة أخرى تنتظرني أن أقوم بخط بعض اللافتات.. بعد أن سألني البدين هل خطك جميل؟ فأجبت بنعم. لافتات ورقية تحتوي قائمة بالأسعار وعبارات ترحيبية. قال لي إن السيدة طلبت ذلك. قمت بالمهمة بشكل جيد، وعدت للوراء أتأمل العبارات كانت منمقة وزاهرة باللون البني وبخط الشيني العريض.

وصلت السيدة، بدأ المكان أكثر هدوءا، كانت لها رائحة فواحة هذا الصباح بخلاف الأمس. تأملت اللافتات بدقة، ورأيت الفرح في عينيها. خطي جميل جدا. لكنني لم انتبه لذلك مسبقا لكي أوظفه في شيء مفيد. توقفت كذلك مع البلاط الداخلي اللامع بشدة. سألت البدين عمن قام بهذا العمل الطيب، أشار نحوي.. شعرت بالخجل وطأطأت رأسي، قالت لي:

"تعال هنا يا ولد.. من أسمك وماذا تعمل؟"

تلك قصة طويلة ليس بإمكاني اختصارها لها. هل أقول لها إنني هربت من بيت والدي لأنني كرهت الحياة فيه.. وأنني أحب أمي وأخوتي لكنني لا استطيع أن أعود للعيش هناك. حتى أبي لا استطيع أن أجزم بأنني أكرهه. ضحيت بالحب من أجل شيء آخر، مغامرة مجهولة في حياتي سوف أصل إليها ذات يوم. أي إلى نتيجة محددة ومهمة لها. ذلك الشعور والأمل الذي غذاني به الأعرج.. أحيانا أشعر مع نفسي وفي وحدتي ساعة أخلد للنوم في تلك الغرفة التي اخترعتها مع صديقي الملمع.. أنني كائن قاس مصنوع من طينة غريبة، ينتابني في بعض الأحيان نوع من الشعور بأنني أخطئ في حق أهلي ويجب أن أعود إليهم. لكنني لا استطيع.. هناك صوت في داخلي يطاردني يقول لي لا. يخبرني ألا أستمع إلا لصوتي الداخلي. الإحساس الذي يكمن في موقع مجهول من روحي بأن أكون أنا. لا أحد آخر.

أتذكر ذلك اليوم الذي كنت فيه ضمن أولاد الشارع، قبل أن أصبح ملمعا جيدا وقبل أن أذهب للكنيسة، كان قد جاء رجل يرتدي بذلة بيضاء، لم يسمّ نفسه، كان يحمل دفترا كبيرا، كان يجلس مع الصبية يتحدث معهم ويكتب أشياء في دفتره. كنت واحدا من الذين جلس معهم. سألني عن السبب الذي جاء بي هنا، أخبرته:

"أريد أن أكون أنا.. الحياة في بيتنا لا تعجبني"

قال لي بعد أن سمع قصتي، وكتب ما كتب على الورق:

"هل تعتقد أن ذلك يكفي؟.. أنظر حولك بعض الصبية هم بلا أسر.. لا أهل لهم.. أنت لديك أهل.. لديك قلب أم حنون..

استمر يسرد في مبررات تبدو منطقية ومقنعة.. لكن قلبي كان ينبض بشيء آخر.. لا أقدر على التحكم به.. وكانت صورة الرجل صاحب المخلاة تتمثل أمامي.. بأن لا يوتر هذا الرجل الذي يجلس أمامي، أو يشوش رحلتي في الحياة. كان صوته يتكلم بلسان الأعرج وهو يخبرني "الشجعان في هذا العالم لا تقلقهم العواطف.. العاطفة ضرورية لكنها ليست كل شيء". كان ذلك يبدو متناقضا مع صلاتي وحرصي عليها يوميا. أعرف أن الصلاة تنقي الروح. لكن روحي المنقاة لا تفكر سوى بالمستقبل لا تنظر إلى الأمس، لا أحس بأي وخز في الضمير. حتى صورة أمي تبدو لي غائمة الآن لا أقدر على استجماعها، رغم أن دموعي تقطرت دون أن أتحكم فيها.

قال لي صديقي الملمع:

"يقولون إنه طبيب نفساني ينوي علاجنا.. يزعمون أننا نعاني من شروخ نفسية.."

وعلمت من الصبية أن أمثاله كثيرون، يأتون هنا من مرة لأخرى بعضهم يسمى نفسه أكاديميا متخصصا وآخر دكتورا في المستشفى النفسي وآخر في عيادة خاصة يجري دراسات بحثية مدفوعة الثمن لمنظمة أجنبية.. كان الصبيان هنا يعرفون كل شيء.. يعرفون أن كثيرا من الناس يهتمون بهم لأغراض دنيئة، لأجل المال لا لأي هدف آخر. وكان بعض هؤلاء القادمين بدفاترهم يتعرضون أحيانا للضرب والرمي بعيدا.. فالصبية يعرفون من يحترمون ومن يقدرون ومن يركلون أيضا.

حركت فيّ قصة الطبيب النفساني بعض العقد المؤقتة أنني كائن غير مكتمل من الناحية النفسية أو أنني أعاني من خلل ما.. قال لي الرجل بعد أن طوى دفتره ونظر نحوي بقوة:

"أنت تعاني من مرض غامض يا ولدي.. ليس هو التوحد ولا الانفصام في الشخصية.. لا استطيع أن أفسره فأنا أحتاج إلى المزيد من التحليل والتدقيق.. هل تأتي معي غدا إلى مختبري لكي نرى الأمر سويا"..

صرخت في وجهه:

"لست مريضا!"..

استغربت من طبيب يسمي نفسه متخصصا يخاطب مريضه الصبي بهذه الطريقة، يبدو أنه هو الذي يعاني أزمة نفسية.. يخجل من مواجهة هذا المرض الغامض.. أنا أيضا وبمجرد أن ابتعد عني كنت أصرخ بشكل هستيري واضح.. يبدو أنني مريض فعليا وليس باستطاعتي أن أواجه نفسي بذلك.. وابتعدت عنه لأتركه يكلم نفسه كمريض نفسي أيضا. مريض يحمل دفترا كبيرا ملون الغلاف وقلم يضعه على أذنه اليسرى، مثل نجار الخشب، بعد أن يكون قد جلس على حجر في الشارع متأملا ربما في ماضيه أو اللاشيء مطلقا.

أجلستني السيدة بجوارها.. عمتي التركية كانت طيبة كما بدت لي منذ الوهلة الأولى. لكن كما تعودت يجب ألا استعجل في اتخاذ القرارات.. فربما يحدث العكس.. سكان هذه المدينة لا ضمائر لهم في أغلب الأحيان.. مررت يدها على شعري الطويل المجعد فنادرا ما أقصه أو أغسله، فقد تركته لينمو تلقائيا منذ أن هجرت البلدة، فهنا لا يوجد مدير المدرسة الذي يتلصص على القمل.. ليكون قص الشعر واجبا. كما أن القمل هرب من شعري تماما دون سابق إنذار.. فجأة كان قد اختفى ذات ليلة..

كانت أيضا قد طبعت قبلة على خدي شعرت معها بنوع من الاشتياق الغريب لحضن أمي، لكنني تماسكت حتى لا أرى الدموع تغادر محجري. أزاحتني للوراء قليلا، وقفت تتأملني.. كانت تكلم نفسها غير حافلة بالناس الذين في المطعم.. سمعتها تقول إنه هو.. كأنه هو.. وأنا لا أعرف ولا أفهم المغزى، ما هي القصة بالضبط.. من هو هذا الذي تتحدث عنه، لربما أشبه إنسان ما، صبي ما في حياتها. سألتني:

"من أي قبائل الشمال أنت؟"

قبيلة.. لا أعرف.. لم يحدث لي أن سمعت والدي يتحدث عن قبيلة معينة ننتمي لها.. تارة تقول أمي أن أهلنا جاؤوا من أرياف مصر.. أمي بشرتها أكثر بياضا من أبي.. والدي لا يعرف أين منبعه ولا مصبه وليس لديه الوقت لكي يتحدث عن أمور كهذه. لم أعرف الجواب، قلت لها:

"لا أعرف سيدتي.. لا أعرف"

تدخل البدين دون أن يطلب منه ذلك، كان يتلصص للحوار بيني والسيدة، أوضح لي:

"تقصد هل لديك أقارب تعود جذورهم إلى تركيا"

بدأت أفهم الأمر، فأنا تقريبا أشبه صبيا تركيا في حياتها.. ربما يكون ذلك صحيحا.. وربما لا.. ليس عندي إجابة.. وهذا الشبه يستدعي أن أقاربي لهم جذور هناك.. فمن خلال معرفتي بالتاريخ من المدرسة أعلم أن بلدنا وقبل مائة سنة كانت مستعمرة بواسطة الأتراك الذين خرجوا بعد حرب قادها ضدهم رجل ثائر يُلقب بالمهدي، يقولون لنا ذلك في المدارس.. وأن بعضا من الأسر التركية بقيت ولم تغادر البلد وتزاوجت وأنجبت وعاشت إلى اليوم.. ربما تعني ذلك.

لم استغرق وقتا في التحليل ومحاولة الاكتشاف مع ذاتي، لسر العلاقة بيني وبين ذلك الذي هو يشبهني.. إلى أن قفزت فجأة أعرج بقوة، ساعة ضربني البدين ولكن بلطف على ظهري، منبها إياي بأن أنظر باتجاه الحائط.. كانت ثمة مفاجأة أمامي لم أتوقعها.. هناك صورة كبيرة معلقة على الحائط بحجم تلك التي رأيتها في بيت التركي في الغرفة التي نمت فيها.. يقف فيها صبي بثقة وثبات مستندا على عصا مزوقة في أعلاها بكرة مزخرفة، يرتدي طاقية بيضاء وبذلة بيضاء أيضا، جميلة.. أنه أنا.. لا يشبهني فحسب.. بل يشبهني تماما.. لماذا لم انتبه لهذه الصورة من قبل.. إذا كانت هنا طوال الشهور الماضية؟.. وكانت السيدة هي الأخرى قد وقفت تنقل نظراتها بيني والصورة.. وفاضت دموعها كثيرا، قبل أن تحتضني كثيرا جدا.. وهي تقول لي:

"ولدي.. ولدي"

لم أتمالك نفسي وبكيت معها.. وفهمت أن الأمر يتعلق بولدها الذي في الصورة.. انه ابنها وابن العم التركي.. ألهذا السبب يهتم بي منذ وقت طويل.. لكن حيرتي لم تنقشع بسبب عدم انتباهي لهذه الصورة إن كانت موجودة من قبل، ولماذا لم ينتبه لها الأعرج مثلا ويلفت انتباهي لها.. لا أظنه كان سيفوت هذا الأمر.. ولأن السؤال كان يقلقني فقد سألت البدين فيما بعد:

"أكانت موجودة منذ زمن طويل؟"

ابتسم وقال لي:

"طويل.. بكم يقدر الطويل؟ يوم يومان.. سنة .. سنتان.. أم تعني منذ أن مات؟"

وضحك بشكل فاضح ولم يكن قد أجاب على سؤالي.. وقلت:

"إذن هو مات.. ومنذ كم مات؟.. ياه.. لهذا هي...

قاطعني البدين ولم يتركني أتكلم، فالسيدة قد خرجت، كان قد عاد لقلة أدبه.. خاصة أن المحل يخلو تقريبا في منتصف النهار من الزبائن، كاد أن يلتصق بظهري مجددا.. لكمته بقوة وهربت من أمامه ومن المحل إلى الغرفة حيث كنت أشعر برهق نفسي غير مبرر، ربما أن مشاعر السيدة التركية أثرت في.. أو أنه حنين إلى الأهل إلى أمي بالتحديد.. فهي ستكون قد افتقدتني مثلما هذه السيدة تفتقد ولدها.. وسرحت أفكر كيف مات.. هل مات صبيا في عمري؟ هل مات بسبب مرض أم كيف مات؟.. واستغرقت في نوم عميق.. كان بودي أن أرى العجوز صديقي صاحب المخلاة.. أن أرى القمل يسير على شعره الأبيض صديقا له.. لكن ذلك لم يحدث.. لم استيقظ إلا فجرا.. كان صديقي يكمل لوحة جديدة من لوحاته.. وهذه المرة كان قد رسمني.. كأنني أنا.. أو كأنني الصبي التركي الذي علقت صورته في المطعم. وجاءتني فكرة أن أطلب منه اللوحة لكي أهديها للسيدة، كنت أعلم أنه سيقدمها لي. وهذا ما حدث.

أسرعت للوصول إلى المطعم، كان عمي التركي قد عاد، من سفره، استقبلني بترحاب كبير، قدمت له اللوحة، نظر إليها بفرح طفولي، وشكرني، أخبرته أن صديقي هو الذي رسمها وأنه كان من المفترض أن أهديها للسيدة التي كانت هنا بالأمس، قال لي:

"إذا كانت لها أو لي فنحن نشكرك وصديقك.."

وأجرى اتصالا هاتفيا من التلفون الثابت بالبيت، كان يكلم زوجته بالخبر السعيد كما وصفه. ثرثرنا بعدها سويا، حكيت له قصة مفاجأتي بالصورة التي لم أرها من قبل. رد علي ببساطة إن هذا يحدث بشكل عادي في حياة الإنسان، قال لي:

"كثير من الأشياء تكون حولنا ولا نلقي لها بالا.. إلا في الوقت المحدد.. كذلك حياة الإنسان وخبراته بشكل عام في العالم"

ولم أسأله هل هو يحبني لأنني أشبه ابنه أم يحبني لأنه يحبني.. لكنني آثرت أن أترك هذا السؤال لأن فيه حرجٌ له.. فالرجل طيب معي.. وليس من شك أنه إذا لم يكن يحبني كابنه مثلا فهو على الأقل يقدرني بشكل كبير..

كنت ما أزال متشوقا لسماع قصته.. السبب الذي جعله يأتي لبلادنا.. وقصة ابنه التي أطلت على الواجهة كأمر مثير بالنسبة لي.. فهي تهمني الآن بدرجة أكبر، لأن هذا الفتى يبدو كما لو أنه أنا.. ورحت أتأمل صورته من جديد.. كان أطول مني بقليل.. شاربه صغير أو ليكاد ينمو للتو.. عيناه صارختان جمالا.. تشعان غرابة.. كأنه ينظر إلى شيء بعيد يفكر فيه ساعة التقطت له الصورة. كان البدين ينظر إليّ خلسة، وكان قد تضايق من وصول السيد، يبدو تململه ملموسا لا يحتاج لأكثر من عينين لرؤيته، وقضيت نصف يومي في المطعم.. أرتب بعض الأشياء بطلب من عمي، الذي عرف ما قمت به خلال غيابه، من أعمال أشاد بها. اكتشف أنني يمكن أن أساعد في العمل هنا بطريقة أو بأخرى. ربما يعرف ذلك لكنه كان يبحث عن اللحظة المناسبة ليقول لي تعال لتعمل معنا. كان البدين هو الخيط الذي أوصل لذلك، حتى لو أن أهدافه كانت دنيئة.

أخبرني عمي التركي:

"منذ اليوم ستعمل معنا هنا في المطعم.. لقد تأخر هذا الطلب"

كان يتكلم بأدب جم.. بطريقة توحي كما لو أنني أنا الذي أطلب منه أن يعمل معي.. كان البدين لا يزال يختلس النظرات.. دون أن أكون قادرا على تحديد طبيعة مشاعره من قرار سيده.. هل هو طرب له أم لا!. وغادرت في نهاية اليوم إلى غرفتي المشتركة مع صديقي.. وأخبرته أنني منذ اليوم سأضطر لترك العمل في تلميع الأحذية.. وأن عمي رتب لي العمل معه.. كان فرحا لما تحقق، وشكرته كثيرا أن الرسم الذي أهداه لي قد يكون سببا مباشرا فيما حدث. لكنني أكدت له أنني لن أترك سكني هنا معه فعمي لم يتطرق لهذا الموضوع، كما أنني سوف اعتذر في الوقت الراهن لو عرض علي ذلك. لن أترك صديقي وحده.

في فجر يوم جديد.. اليوم الأول لبداية عملي مع عمي التركي في المطعم.. كنت قد ودعت عالم الأحذية ليس نهائيا.. لأنني احتفظت بأمر واحد أن أحرص كل صباح على تلميع حذاء عمي وفي بعض المرات حذاء البدين الذي كان يلبسه في بعض المرات ساعة يغيب السيد لأسباب لا أعرفها. فقد كان يسافر مرات خارج البلد ويعود.. ولم يكن لي أن أسأله، لقد تعودت ألا أتدخل في أمور لا تقال لي. وكان العمل الجديد مختلفا بالطبع عن عملي السابق، وشعرت في بادئ الأمر كما لو أنني أدخل معتركا ليس لدي خبرات كافية فيه.. فأنا خبرتي تشكلت مع الأحذية وتلميعها وألوانها ومقاساتها وأين صنعت.. الآن سيكون علي أن أتعرف على أنواع اللحوم، ما الذي يصلح منها لعمل الشاورما وما الذي لا يصلح منها. كيف يكون للنار أن تكون بدرجة معينة تساعد في نضج اللحم بالمعقولية التي تجعله لذيذ الطعم كما يشير الزبائن. كان معلمي الأول هو السيد نفسه، وكان البدين لا يبخل بالمعلومات ساعة يكون عمي موجودا، فهو أمامه يبدو هادئا ومطيعا، يتقمص صورة الرجل النبيل والمهذب لأبعد الحدود. بمرور الوقت فهمت أن السيد يعرف طباعه جيدا. يعرف نقاط الضعف فيه، غير أنه يدرك تماما نقطة قوته كطباخ ماهر وصانع شاورما من طراز فريد، تدرب على يديه منذ سنوات بعيدة لهذا كان يحتفظ به ويتحمل بعض ترهاته وذلاته. والأهم أن البدين وإلى اللحظة يبدو كلاميا أكثر من كونه عمليا في المسائل المتعلقة بسلوكه الشخصي وغمزه المتواصل لعينيه، سواء معي أو بعض من الشباب الذين يأتون للمحل ويبدي إعجابا بهم والذين كان يشكل مادة للتندر بالنسبة لهم في حال غياب السيد.

مع مرور الأيام والأسابيع والشهور.. كنت قد اندمجت مع العمل تماما، أنهض في الفجر الباكر من الغرفة المشتركة لأصل إلى المطعم، كانت معي نسخة من مفتاح المحل، أقوم بفتحه، ومن ثم نظافة الأرضيات ومسحها وتلميع الجدران والزجاج، واستلام اللحوم والخضروات من المتعهدين الذين يصلون باكرا.. ومن ثم ترتيبها في الثلاجة الكبيرة بالمخزن الداخلي، بعد أن حفظت تفاصيل المحل التي لم يسبق لي رؤيتها من قبل، حيث توجد غرفة داخلية كبيرة الحجم، بها سرير كان يستلقى فيه البدين في ساعة القيلولة أما في المساء فلا مساحة للراحة، فالعمل يكون ضاغطا

والزبائن كثر لا يتوقفون، حيث يأتي أناس بأشكال مختلفة، من السودانيين وغيرهم من جاليات تقيم في البلد وكان أيضا يأتي زبائن على متن تلك السيارات المكتوب عليها (هيئة دبلوماسية) كالتي كانت تزور الأب في الكنسية. وبالتالي كانت بعض الوجوه مألوفة لي من الخواجات الدبلوماسيين ورجال المنظمات الأجنبية.

كان البدين قد بدأ يتصالح معي ويتقبل الوضع. لا استطيع أن أقول بشكل جازم أنه كانت له مشكلة معي.. إلا نقطة ضعفه تلك.. خاصة إذا ما سكر في آخر الليل، وما كان ليشرب إلا بعد أن يفرغ من عمله لهذا لم يكن عمي يهتم بهذا الأمر، حيث يراه شأنا شخصيا. لكن كما تعلمت فإن كل شيء لكي يكون مفهوما وواضحا على الإنسان أن يتركه للأيام، فهي الكفيلة بأن ترسم التفاصيل المعتمة وتجليها. ومع الأيام.. اكتشفت أن للبدين نقاط ضعف أخرى، ما كان لعمي أن يعرفها.. لأنه لو كان يعرف لما تقاضى عنها. لا أظن ذلك. وكان صعب علي أن أتدخل وأكون ثرثارا وأنقل ما رأيت.. يجب علي أن أتريث. فقد تعلمت ومن عمي نفسه أنه مهما بلغت علاقتك بشخص من القوة عليك ألا تسارع لقول كل شيء له، خاصة إذا كان ذلك القول يتعلق بالآخرين وليس بك. فنفسك أنت حر فيها. ما لاحظته وتأكدت منه مع التكرار أن البدين ليس أمينا، فقد كان يسرق من أموال الحصالة خاصة في غياب السيد ليدسها في جيبه، دأب على فعل ذلك، وكان يتخفى حتى لا أراه ويبدو أنه في الماضي كان يجد الفرصة للسرقة لأنه لم يكن ثمة رقيب في المحل.

لم يكن البدين في حاجة لخيانة صاحب العمل، فهو يتلقى راتبا كبيرا بمقاييس الرواتب في البلد وبحسب ما أعلمني هو شخصيا، وأنه لا يوجد أكرم من هذا الرجل للعمل معه، فقد كان في بعض أوقات الفراغ ساعة نجلس للاستجمام بالغرفة الداخلية، يثرثر لي ببعض الأمور المتناثرة عن حياته وتجاربه. بات يحكي أمورا لم يكن ليجرؤ على قولها من قبل، منها ما يتعلق بنقطة ضعفه. لكنه لم يكن ليقول لي إنني سارق. صورته عن العم التركي مثالية كإنسان نادر الوجود في هذا العالم الذي امتلأ بالأشرار بدلا عن الطيبين.. كان يستلقى على الأرض أو على فرشة بلاستيكية أو على السرير أحيانا، ويكلمني كما يكلم نفسه. لم يكن في تقديري حكيما كما الأعرج أو أن تجربته آسرة بالنسبة لي، لكنني تعلمت أن كل إنسان لو أعطي الفرصة فلديه ما يقوله، هذا من حكم عمي، أو ما يفعله.

كنت أعتقد أنه ربما يأتي يوم يعترف فيه بالسرقة.. يتملكني هذا الشعور.. لهذا كنت أقول لنفسي يجب أن أترك الأشياء للأيام وأن ألتزم بالقاعدة التي أوصى بها عمي. وهكذا ظللت أراقب الوضع يوميا، لأراه يتكرر. واتضح لي أن المبالغ لم تكن صغيرة كما تصورت سابقا، فقد كنت أحكم بضرورة انعكاس قدر المسروق على هيئة السارق، ولم تكن هذه النظرية صحيحة مع البدين، حيث يبدو أنه يدخر هذا المال أو يوظفه في أمر ما ليس لدي علم به. ومع الأيام.. قررت ذات يوم أن أخبر عمي، لم أقدر على تحمل أن أرى الرجل الطيب يُسرق. وقبل أن أخبره قررت أن أواجه البدين، وانتهزت فرصة وجودنا سويةً في الغرفة في ساعة القيلولة.

كان البدين قد فرغ من صلاة الظهر وما أن أنهى التسبيح بأصابعه، حتى جلست قريبا منه وأخبرته أنني أريده في أمر هام. لم يكن كعادته ليكترث فليس لديه ما هو مهم في حياته تقريبا.. يبدو ذلك بالنسبة لي حتى اليوم. غير أنني بمجرد أن قلت له إن الموضوع يتعلق بسرقته.. انتفض فجأة.. لم يكن ليتوقع أن استخدم هذه المفردة وبالشكل المباشر. قال لي:

"هل تعرف أنني أسرق العم؟"

واجهته بقوة.. حيث رأيت الضعف في عينيه:

"ألا تستحي إن الرجل لا يقصر معك.. وأنت تقول إنه أكرم من عرفت"

قاطعني.. وهو يبرك على الأرض.. كأنه يريد أن يقبل يدي:

"أرجوك يجب ألا يعرف بذلك.. هو يعرف الكثير عني.. يعرف سوءاتي.. لكنه لا يعرف أنني أسرقه"

شعرت بالتعاطف معه.. خاصة أن أكد لي أنه لن يكررها.. وحذرته:

"إذا رأيت شيئا مرة أخرى فلن أتردد في إخبار عمي"

في مقبل الأيام بعد ذلك النهار كان قد أبدى التزاما، على الأقل أنا متأكد مما يجري أمام عيني.. ما وراء ذلك ليس لدي دليل عليه. وساعد ذلك الموقف من المواجهة الصريحة مع البدين أن قويت علاقتي معه على الأقل كما أرى. وإذا كان قبل ذلك اليوم كان قد شرع في حكاية أمور مثل نقطة ضعفه أمام الغلمان، رغم اعترافه لي بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا وهو ما يعرفه بعض الزبائن. إلا أن ما تلى ذلك النهار كان قد جعله يفتح قلبه معي لأحداث ووقائع لا يمكن أن تقال إلا لمن يثق بالآخر تماما، أخبرني أنه يشعر بالذنب العظيم لأنه قتل ذات يوم.. أنا أمام قاتل فار من العدالة.. حكي لي أن تاريخه في الماضي ليس مشجعا لروايته.. كيف أنه احترف السرقة لسنوات.. في البلد البعيد التي جاء منها في أقصى الشمال.. بدأ حياته بسرقة الدكاكين في السوق.. يدخل غفلة ويخرج بشيء ما يروح ليبيعه ثم يعاود الأمر، ولم يحدث أن قبضت الشرطة عليه أبدا أو اكتشفه أحد. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قتل فيه رجلا في الليل لأنه اكتشفه وهو يحاول سرقة محل في الظلام بالقفز من أعلى ونبش السقف. وهي مهارة جديدة اكتسبها ونفذها بدقة ونجح فيها عدة مرات.

كان يحكي قصة تبدو كخيال.. بالنسبة لي.. لم يكن ليبدي أية مشاعر.. هو الشخص نفسه الذي يتندر مع الزبائن.. هو نفسه الذي كان يحاول الالتصاق بظهري.. الإنسان الذي يضعف أحيانا ويقوى في بعض الأحيان الأخرى.. يمضي في رواية ما جرى في ذلك الليل.. كيف هشم رأس الرجل بالمعول الذي كان يستخدمه لنبش سقف الدكان.. حدث ذلك قبل ثلاثين سنة أو أقل بقليل.. هو الآن في أعتاب الخامسة والخمسين كما يقدر لنفسه.. يتنفس ثم يواصل لكنه يتنهد

أخيرا.. كأنه يشعر بالألم أو الضعف لذلك الحدث القديم الذي لا يغتفر. وكان مجرد بوحه لي يعني أنني اكتشفت الجانب المظلم من عالمه، لكنه قال لي:

"لو لم أكن قد أحببتك حقا ووثقت فيك لما فضفضت لك بقصتي"

نظرت إليه مازحا رغم إحساسي بشيء من الخوف لحكاية لم تكتمل:

"ألا تخاف مني.. هل أنت متأكد أنني..؟"

نظر إلي.. كانت عيناه تعكسان ألما عميقا.. صورة لإنسان يبدو جميلا من داخله رغم كل شيء هكذا أحسست.. كسر صمتنا بأن قال بنبرة حزن على غير طريقته المألوفة في المزاح والتندر:

"ماذا فعلت.. ألم يكن أحد الأنبياء من القتلة!"

صمتنا كثيرا.. وواصلنا عملنا.. كان قد قضى بقية ذلك اليوم وهو أكثر حيوية.. كأنه بدأ في حب الحياة أو اكتشافها للوهلة الأولى.. حتى أن عمي لاحظ ذلك فأشار إليه قائلا:

"تبدو اليوم شبابا.. ما شاء الله"

ابتسم وحرك السكين الكبيرة التي كان يقطع بها اللحم رأسيا.. وهو يجهز مجموعة من الساندويتشات للزبائن الذين تضاعف عددهم في الأسابيع الماضية بعد أن أعدنا ترتيب العديد من الأمور.. كان لوجودي تأثيرا في المحل.. وكنت أشعر بذلك دون أن أبدو فخورا بما يحدث.. كان طموحي الشخصي أبعد من ذلك بكثير.. ولم يكن عمي ليطري علي أو يقول إنني أحسنت إلا نادرا.. لم أكن لأشك أنه يقدر عملي.. فقد بدأت أفهم طريقته في العمل، أن تواظب على أداء الأشياء الحسنة وتطور مهاراتك ولا تنتظر شكرا من أحد، فالثناء الحقيقي يتعلق بمدى شعورك أنت بأنك تقوم بالواجب وأن تحب ما تعمله وأنك سعيد.

في النهار التالي.. ساعة القيلولة.. وبعد أن صلينا الظهر سويا أنا والبدين، وكنت أنا الإمام، بإصراره هو.. فقد روى لي التفاصيل الأكثر إزعاجا عن ذلك الليل القديم.. كيف أنه لاحظ أن هناك من كان يتتبعه، كظله.. أزاح المخاوف جانبا.. وتسلق سراعا الحائط الطوبي، متشبثا بأطراف أصابع القدمين، إلى أن وصل السقف.. أعلى الدكاكين.. حدد الموقع المعين الذي ينبغي أن يكون فيه الحفر.. ليتمكن من الدخول إلى أسفل.. كان كل شيء يتم بسرعة، لم يكن في ذلك الوقت بدينا كما هو اليوم..

"كنت خفيفا جدا.. أحسد على خفتي.. واحدة من ميزات السارق أنه خفيف البدن.. وإلا فشل في مهمته"

لم يكن ثمة قمر في السماء.. كان الجو باردا جدا.. لكنه لم يشعر بقسوة البرد.. واصل مهمته.. إلى أن لمح ذلك الرجل الذي كان يتبعه.. اقترب منه.. حاول أن ينقض عليه.. وجد نفسه يقاومه بقوة.. اصطرعا في السقف.. اهتزت عرش الدكانة المسقوفة بمواد بسيطة كسيقان النخيل والبروش المصنوعة من جرائد الدوم، بعد ثوان سوف ينهار الفراغ المعلق وسوف يكونا سويا في منتصف

الدكانة.. هوى عليه بالمعول.. استقرت الرأس الحادة في رأس الرجل هشمته تماما.. تركه ينزف دما.. لم يكن قادرا على الصراخ.. واختفى في الظلام..

كانت البلدة تتحدث في اليوم التالي عن جريمة قتل ابن عمه.. كان قد قتل ابن عمه دون أن يدري.. أو هو يعرف.. قال لي:

"ما كنت أبصر شيئا.. كنت مسموما بجرثومة خبيثة.. ساعة يقدم الإنسان على فعل القتل لا يعد يرى شيئا.. يظن البعض أن القتل أمر صعب.. بل على العكس سهل جدا أن تقتل إنسان.. لا تحتاج المسألة إلى الشجاعة.. الشجعان لا يقتلون.. الجبان وحده الذي يتخلص من خصومه بقتلهم ثم يبقى بقية عمره يواجه مخاوفه.. ليس هذا دقيقا.. يومان فقط وتعود الحياة معه طبيعة.. هذا ما حدث معي.."

أجروا التحريات. فعلوا كل الوسائل التي يعرفونها. أعني رجال الشرطة. في اللحظة التي شعرت أنني ربما أكون الهدف. كنت قد فررت من البلدة. ووصلت إلى المدينة الكبيرة لأبدأ حياتي الجديدة. وسألته:

"ولكن ألم يلاحقوك؟"

"نحن أقارب في النهاية.. وساعة علموا بالأمر ولكن بعض سنوات طويلة.. أظن تسع سنوات.. أغلق الملف نهائيا.. ومن هم هؤلاء الذين علموا ففي الواقع لم يكن لابن عمنا هذا قريب سوانا.. أمه ماتت في صغره وأبوه اختفى منذ صباه.. خرج ولم يعد مرة أخرى للبلد.. يعني أنا أقرب الناس إليه وبقية أخوتي.. أنت تعرف أن هذا البلد كل شيء فيه يسير بقانون المال.. وانتهت القصة كما علمت لاحقا بحواشة أرض صغيرة حصل عليها المحقق وشرع المحققون في قضايا أخرى.. بحثا عن رشاوى جديدة"

لم يعد بعدها البدين إلى البلدة.. قضى سنوات في المدينة الكبيرة.. مارس أشغالا عديدة إلى أن استقر مع التركي.. أكثر من عشرين سنة يعمل هنا في محل الشاورما.. صار جزءا من علامات المحل وتوصيفاته للذين يأتون للمرة الأولى.

كان قد انتهى من رواية تلك الذكريات القاسية، ولم يبد اهتماما كبيرا لما غاب وراء الغيب.. قال لي:

"المهم هو الغد.. الله أعلم ماذا سيكون؟.. أنا لا أخاف الماضي"

رغم ذلك لم يكن خائفا.. كان شرسا في مواجهة الأيام.. يقضى ساعات فراغه في الأمور التي تبهج وجوده في العالم.. كأن يشرب العرقي أو يتلصص على الصبية والغلمان في شوارع المدينة.. غاية متعته أن يقبض أحدهم ويفكه في الحال.. بعد ثوان معدودات.. كان يقول لي ذلك دون أدنى خجل.. صرت أمينا بالنسبة له.. غير أني وفي بعض الأحيان لم أكن لأطمئن له.. أراه خياليا يخترع قصصا.. ينتابني هذا الإحساس دون أن أملك دليلا ملموسا له.. فقصة كونه قتل شخصا

تبدو لي كأنها ملفقة.. علي أن أصدقها إلى أن يثبت العكس.. وفضلت أن أسكت عن تفكيري بشأنه كثيرا، فقد تعلمت من عمي أن الإنسان يجب ألا يعبئ دماغه بأشياء غير مفيدة لا تساعده في صناعة حياته بشكل أفضل.. وأقنعت نفسي بأنني لا أحقق أية فائدة ما دمت سوف أضيع الوقت في التفكير العميق بمحاولة حل لغز البدين.. في الماضي كان الأعرج وراءه تاريخ أيضا، لكنني لم أنشغل به.. يجب أن أكون أكثر حكمة وأنا أتقدم رغم الرشد في الحياة.. وصلت لهذه النتيجة مع نفسي.

مضت أيام. صرت أتأخر في العمل كثيرا.. أحيانا اضطر للنوم بالمحل في الغرفة الداخلية.. كان بها مكيف هواء قديم يعمل بالماء يجعل المكان باردا ومحببا للنوم بعد رهق يوم طويل.. صرت لا أرى صديقي في الغرفة المشتركة إلا نادرا.. طبعا كان بقائي بالمحل بناء على نصيحة من عمي فقد أشار لي بأنني وبعد العناء وبدلا من قطع المسافة إلى مكان سكني راجلا، يكون من الأفضل لي أن أبقى هنا. ولم يكن البدين على علم بالأمر، لربما فكر في حيلة ما إذا علم أنني هنا وحدي. غير أنه لابد سوف يكتشف ذلك ذات يوم، فلا شيء في العالم يندس إلى الأبد.

كان صديقي يزورني من فينة لأخرى.. كان عاتبا علي، وأخبرته بأن العمل صار يضغط علي ولابد من الكفاح من أجل الغد.. هذه قاعدتي.. كان يسمع مني العبارات ثم يكررها بطريقة ساخرة، كعادته:

"الكفاح من أجل الغد.."

لازمني إحساس بالذنب على غيابي عنه.. ولهذا اعتذرت لعمي ليومين حيث غفلت فيهما عائدا مبكرا إلى أن وصلت صديقي، وقضينا الليل سويا.. ذهبنا إلى السينما وشاهدنا فيلما هنديا يحكي عن أطفال يتم خطفهم من القرى وبيعهم للسادة في المدن، كي يصبحوا خدما لهم.. كان السادة يعاملونهم بقسوة.. وكان أهلهم يفعلون ذلك لأجل المال.. وناقشنا فكرة الفيلم سويا.. كنّا مقتنعين بأنها واقعية ولكن فيها بعض المبالغات.. كانت لدينا ملكة لا بأس في التقييم والنقد.

كان صديقي يشعل سيجارته.. وهو يحتسي الكوكا كولا.. وأنا أتكرع عصيرا من الكركدي بالطريقة نفسها التي كان الأعرج يتكرع بها.. ليست هذه عادتي في الشراب، لكن طيف الأعرج عبر بذهني فجعلني أفعل ذلك. ومشينا لمسافة طويلة إلى أن وصلنا قريبا من النهر.. كان عمال أجانب يعملون على بناء جسر جديد يعبر المياه من الشمال إلى الجنوب.. بجوار الجسر الحديدي القديم الذي كان القطار قد عبر به ذات يوم وجاء بي إلى هنا. كان النهر ضاجا.. فقد كان موسم الفيضان قد اقترب.. لكن عمال الجسر لا يحفلون بشيء، يواصلون العمل.. وحكى لي صديقي واقعة حدثت قبل يومين كيف أنهم صبوا عاملا إيطاليا داخل عمود الخرسانة الكبير.. ما كانوا ليجدوا الوقت الكافي لإخراجه بعد أن اكتشفوا قدره السيء متأخرا. كان صديقي يعرف الكثير من الأنباء التي غابت عني في الأيام السابقة.. فهموم زبائن الشاورما مختلفة عن تلك التي كان أصدقائي في الشارع يلقون لها بالا ويتداولونها.

بعد أسبوع كنا نجري تعديلات في المطعم.. وتوقف العمل ليومين فقط.. كان قد حضر مرممون للجدران والأرضيات.. واشترينا طاولات جديدة.. وكان البدين نشطا يقوم بعمله بحيوية فائضة كأنه خلق للتو.. وكان صديقي قد حضر لكي يقوم بعمل رسومات على الجدران.. اقترحت الفكرة على عمي فوافق.. وكان من ضمن الرسومات لوحة كبيرة مميزة احتلت ربع الحائط، للصبي الذي يشبهني.. الصبي التركي الذي مات ولم أعرف سره إلى الآن.. كان عمي يلقي نظرة من فينة لأخرى إلى اللوحة وهي تتجه لكي تصبح مكتملة بأنامل صديقي البارعة في تصوير التفاصيل.. هذه المرة لم يكن من أوحى بالرسم أنا، إنما صورة حقيقية استعان بها صديقي، كانت تلك الصورة المعلقة سلفا في المطعم.. ورغم أنها كانت بالأسود والأبيض إلا أن اللوحة الجديدة ظهرت ملونة بهية في الحائط. كان كل من يراها يلقي نظرة نحوي ليقول لي:

"هذا أنت..."

لم أكن لأجيب بلا أو نعم.. وكان كثيرون باتوا يعتقدون إنني ابن هذا التركي.. فقد كان يقول لكل من يسأل عن اللوحة.. إنه ابني.. دون أن يوضح أن هناك فرق بين ابنه الحقيقي والمزيف.

في مساء ذلك اليوم من العمل المضني كانت السيدة.. عمتي.. قد جاءت للمحل لكي تشاهد لوحة ابنها.. وقفت تنظر إليها من بعيد ثم اقتربت وهي تذرف الدموع.. إلى ذلك اليوم كانت قصة الابن الذي يشبهني غير مفهومة بالنسبة لي.. هذا المساء علمت القليل منها.. ليس كل القصة.. كانت تشير إلى الرسم وهي غير قادرة على المقاومة.. أن توقف الحزن العميق الذي يسكنها.. قالت لي وهي تحتضنني دون أن تفكر في طبيعة تصرفاتها:

"كان جميلا وبهي الطلة.. كأنكما توأمان.. لهذا أحببتك يا ولد.."

كانت تفضل أن تناديني بولد.. وأحببت هذه المناداة.. لإحساسي أنها تخرج من أعماقها الصادقة.. جلست إلى الأرض بنصف جسدها، وهي تمسك بيدي.. تنظر مليئا إلى الرسم، وهي تخبرني:

"لقد قتلوه.. كان يوما مؤلما يا ولدي.. لم احتمل الخبر.. إنه قدر الله ماذا كنّا سنفعل.."

وانتظرت لأسمع باقي الحكاية المؤلمة.. في حين كان عمي قد اختفى.. ربما ذهب لغرض ما.. أو أنه لا يرغب أن يعيش هذه اللحظات لعدم رغبته في مضاعفة الحزن.. البدين هو الآخر كان قد اختفى، أظنه في المخزن الداخلي يرتب بعض الأشياء.. في حين أن صديقي كان أيضا قد اختفى فقد آثر أن يتركنا سويا أنا وعمتي..

استطردت تقول لي.. كأنها تكلم نفسها:

"كان الرصاص ينهمر من مواقع مجهولة في الشارع.. قريبا من هنا.. دخل العساكر الملثمون في الليل.. وفي النهار عاثوا فسادا بالمدينة.. سموهم مرتزقة.. هم كانوا يسمون أنفسهم أبطالا.. الرئيس أعلن في الإذاعة أنهم كانوا يريدون قلب النظام بأي شكل كان.."

كانت تلك الأحداث ليست بعيدة بحسب ما أعلم.. كنت وقتها في البلدة.. وكان أبي قد جاء غافلا في النهار.. مارس طقسه اليومي في الصراخ وضرب أمي.. وضربني أيضا.. قبل أن يتكلم عن الفوضى التي تحدث في العاصمة.. وأن الجثث قد عبأت الشوارع.. كانت أمي خائفة على مصير شقيقها.. خالي.. أبي نظر إليها وهو يقول:

"لا تكوني مغفلة.. الذين يموتون في العادة هم عوام الناس.. أمثال هذا الحقير لا يموتون أبدا"

غضبت أمي على وصف شقيقها بالحقير.. الوصف الذي كان تسمعه كثيرا وغيره من الأوصاف.. اليوم هاهي السيدة عمتي تذرف مزيدا من الأوجاع.. وهي تبكي ابنها.. واكتفت بما قالت.. لم تقص بقية التفاصيل.. بالنسبة لي تبدو الواقعة ناقصة.. كنت أريد أن أعرف المزيد ليس كيف حدث ذلك فحسب؟ بل أيضا عن الابن، كيف كان بالضبط؟ وهل هو يشبهني في طريقة كلامي ومشيتي كأعرج.. لا أظن ذلك..

قامت السيدة بعد أن ألقت نظرة أخيرة على اللوحة، مع عودة السيد عمي وكان البدين يسير وراءه، لكأنما وقَّتا تماما موعد العودة معا.. إذن لم يكن البدين في المخزن.. وطلب مني عمي أن أصطحب عمتي إلى البيت لأنها مرهقة الأمر الذي يتطلب الاهتمام بها من قبل مرافق في الطريق.. ومشينا سويا على أقدامنا.. لم يكن البيت بعيدا.. كما أن عمي لم يكن يحب السيارات.. يفضل دوما وكذلك زوجته أن يتمشيا حتى إلى أسواق وسط المدينة لشراء بعض حاجيات البيت في نهاية الأسبوع.. يذهبان في الصباح الباكر غالبا.. ليعود عمي إلى العمل في الظهيرة.. فالمحل كان يعمل ليلا ونهارا ولم تكن هناك عطلة أبدا.. وهو أمر مرهق جدا، بالنسبة لي كان ممتعا وقد تعودت عليه وأحببته كثيرا.

كانت فترة ما بعد الصيانة وتوضيب المحل بشكل أفضل، بداية لمرحلة جديدة من العمل المكثف، خاصة مع زيادة الزبائن، وكان إخلاصي للعمل يتضاعف، وحبي لعمي يكبر، فقد منحني فرصة كبيرة لكي أثبت قدراتي واختبر نفسي.. وأن أقرر أنني يمكن أن أكون إنسانا ناجحا في الحياة.. وتذكرت حكمة الأعرج أن المدارس ليست كل شيء.. لهذا لم أكن أفكر في العودة للمدرسة.. كما أن عمي لم يناقش معي هذا الموضوع أبدا.. كنت أتعرف على تفاصيل كل شيء.. فقد أدركت أن خطى النجاح في كل عمل تتطلب الغوص في الأمور الدقيقة وتمحيصها وأن العالم الذي نعيش فيه يتكون من تخصصات دقيقة جدا.. وأن الناجح الحقيقي يعرف كيف يمتهن حرفة أو عمل يكون فيه قد وصل لأسرار لا يعرفها آخرون غيره. ولا أدعي أن الفترة السابقة كانت كافية لكي امتلك تلك الأسرار، على الأقل تعلمت أشياء كثيرة ستكون مفيدة في مقبل الأيام.

بقدر ما كانت الحياة روتينية ومكررة إلا أن المتعة التي كنت أجدها في العمل كانت تزيح عني أي إحساس بالملل.. وعلمني عمي:

"نواميس الكون تقوم على الروتين.. الشمس تشرق كل نهار وتغرب ثم تعود للدورة نفسها.. الأشجار تكبر وتذبل وتموت.. لتعود أشجارا أخرى.. والأنهار ترتفع وتفيض ثم يغور ماؤها ثم تعاد

الكَرة مرة أخرى.. هكذا هي الحياة يا ولدي.. السر الجاد الوحيد الذي يجعل الإنسان سعيدا أن يتعرف بدقة على ملَكة معينة تجعله يعيش داخل هذه الروتين بشكل سعيد"

كنت أتعلم في كل يوم جديدا.. أحب معرفة الأشياء التي لا أعرفها من قبل.. أن أُجوّد مهاراتي.. الأمر لا يتعلق هنا مع الشاورما.. بطريقة صناعتها وتجهيزها أو الخلطة السحرية للتوابل التي يشرف عليها عمي بنفسه، والتي تميز محلنا عن أي محل آخر منافس.. وإنما بكيمياء الروح كما يفسر عمي الأمر:

"إن لم تفعل الأشياء وأنت متأكد من حبك لما تقوم به لن تخرج بطريقة جيدة.. ذلك السر الذي يجهله الكثيرون ممن يحاولون القفز على قواعد الوجود"

لهذا كنت أفهم مع الأيام أن تقدير كمية الملح مثلا لا تخضع لقانون الطعام ومقاييس حاسة الذوق باللسان، وإنما قبل ذلك لمدى إحساس الملح بك وأنت تدلقه بسعادة في اللحم.. كنت أحفظ هذه الدروس من عمي عن ظهر قلب وأطبقها.. كنت ذكيا كما يطري علي عمي في بعض الأحيان وليس كثيرا.. كان يخاف أن يفسدني الإطراء.. يقول:

"إنه ضروري كالملح ولكن ليس للدرجة التي تفسد الطعام"

وأنا أؤدي واجباتي اليومية.. أشعر كما لو أنني طائر دونما جناحين في سماوات علية.. تنتابني مشاعر قوية بحب العالم، وكنت تقريبا قد بدأت في الانعتاق من الماضي.. لأعيش داخل عالمي الجديد.. أحببت عمي وزوجته.. حتى البدين كنت قد أحببته وصار صديقا لي.. رغم أنه لم يعد لرواية جديدة عن جرائمه في الماضي وتلك القصة المخيفة عن الموت.. غير أني ما زلت على رأيي بأن الرجل ربما يخلط في مرات عديدة بين حقائق وتخيلات في ذهنه.. المهم بالنسبة لي أنني كنت أتسلى بما أسمعه منه حتى حركاته الخليعة أمام الزبائن ساعة يغيب عمي، وبدأت أفهم السبب الذي يجعل السيد يحبه ويحتفظ به.. وذات يوم انكشف لي سر، عن تلك السرقات التي كان يقوم بها البدين.. ساعة أخبرني عمي في إطار حديث بيننا أثناء النهار عن الحياة وأخطاء الناس.. قال لي:

"أنا أعلم أنه يسرقني.. لكنه يسرقني عن محبة.. وهذا هو الفرق يا ابني.. بين من يسرقك عن حسد أو ليضرك.. ومن يسرقك عن حب"

كانت فلسفته في الحياة غريبة بعض الشيء.. لا اعتقد أنه كان يبحث عن المبررات للوقائع والتصرفات.. فقد كان صادقا في قوله.. لم أره يوما يمارس التزييف.. فقط يتحدث عن قناعاته دون أن ينتظر رأي الآخرين هل هم يتقبلون ما قاله أم لا، هل لديهم قناعة بذلك أم لا.. واستطرد يخبرني:

"إنه ساعة يقوم بهذا الفعل الذي يشعر معه بالمتعة الصغيرة.. يكون قد شعر بإحساس جميل يجعلني أكثر سعادة وهذا ينعكس على العمل حيث يصبح أداء الرجل أكثر روعة في اليوم التالي"

كنت أسمع إفادة عمي وأراجع في ذاكرتي نظريته حول سعادة البدين.. وجدت أن عمي لم يكن مخطئا.. إنها تجربته العميقة في الحياة.. والفارق السني بيني وبينه.. لم احتك بأحد من أبناء جلدتي يتمتع بهذا العمق وهذه الحكمة.. أبي ليس عنده أي حكمة، خالي لم يكن لديه ما يقنعني.. ربما الأعرج كان ذكيا ولطيفا وله طريقته الخاصة في الحياة، لكننا لم نمكث طويلا مع بعضنا لكي أُكوّن صورة كاملة عنه.. فقط ستبقى ذكراه في خاطري جميلة.. وهي تقريبا الصورة نفسها التي يحملها عمي عنه.. ساعة يتذكره بين فينة وأخرى.

أخبرت عمي بما حدث قبل شهور مع اكتشافي لسرقات البدين وخشيتي أن أعلمه.. وبما دار بيننا والتزام البدين..

نظر لي بنصف ابتسامة وهو يمرر يديه اليمنى على ذقنه الصغيرة البيضاء، قال لي:

"وهل أخبرك عن كم قتل من البشر قبل أن يأتي إلى هنا؟"

كان الأمر مفاجئا بالنسبة لي.. أن عمي يعرف قصة القتل التي حدثت في ذلك المساء البعيد أعلى سقف الدكان.. بل كان يعرف الكثير جدا عن حياة البدين.. قال لي:

"لكي تصنع عملا ناجحا يجب أن يكون من معك مفهوما بالنسبة لك.. أعني أن تفهم ماضيه بشكل جيد.. ليس الماضي ضروري في حد ذاته.. لكنه يشكل حاضرنا.. يجب أن نفهم لكي نسيطر على اللحظات الراهنة بالنقاط الإيجابية فينا.. ونزيح الضعف الذي يسكننا كبشر.. لا أحد يولد كاملا"

كان السؤال الذي يتبادر لذهني، هل أن البدين يعرف أن السيد يدرك أنه يسرقه ولا يحفل بذلك.. مثلما يعرف البدين تماما أن عمي متأكد من كونه لا يبدي أي اهتمام بالنساء.. ولم اهتم بإجابة حاضرة.. فقد تعلمت الهدوء.. النار الهادئة التي ينضج عليها اللحم.. هي نفسها الوقود الذي يحرك حياة الإنسان.. أن تترك للأشياء أن تتغلغل رويدا مع الزمن لتصل مبتغاها البعيد.. هذه الحكمة الأخيرة ملكي الخاص.. لم أسمعها عن عمي.

في ذلك اليوم الذي كنت قد اصطحبت السيدة عمتي إلى البيت، طلبت مني أن أظل معها بعض الوقت.. كانت حريصة على أن أكون بجوارها ليس لسبب سوى أنها كانت تستعيد ذكرى ابنها الذي قتله المرتزقة الذين جاؤوا بالطائرات من أماكن بعيدة في بلدان مجاورة.. دخلوا ليلا وخربوا كل شيء.. أنظمة الاتصال والمذياع المحلي وسيطروا على التلفزيون الوطني.. وقتلوا المواطنين الأبرياء.. الذين استهدفوهم لم يصابوا بأذى.. كانت عمتي تقص لي ما جرى وهي تبكي.. وفتحت دولابا في غرفة بالمنزل.. يبدو عليها أنها ظلت مغلقة لسنوات.. أخرجت ملابسه وأحذيته وكتبه وألعابه التي كان منها كرات ملونة، ومجسمات لمبان مشهورة في العالم كبرج إيفل والأهرامات المصرية وساعة جرينتش في لندن، والمسجد حديث البناء في العاصمة والمسمى مسجد النيلين. كانت لكل لعبة حكاية وسرد مطول.. كذلك كانت له دفاتر مدرسية ملونة يخط عليها

بخط مزوق وجميل، وقضيت نصف الليل معها إلى أن جاء العم فاستأذنت لكي أذهب، رغم أن خاطرها كان يشير لي بأن أبقى معها، بحضنها تلك الليلة.

كانت حياتي تسير مع العمل وهذه العائلة التي وجدت فيها متكئا لي بعيدا عن الأمس.. كنت أشعر بنشوة كبيرة وحب للوجود.. لم يكن ثمة وقت للراحة.. لا شيء سوى العمل.. كان المحل يضيق بالزبائن.. ومضت نهارات وليال، أتعمق في معارفي وخبراتي.. وذات مساء بعد أن فرغنا من العمل.. كان صديقي الملمع يقف أمامي في المحل.. كنت ألبس مريلة معلم الشاورما البيضاء التي أصبحت جزءا من مظهري الخارجي مع العرج.. لوهلة شعرت بتشوش في نظري.. لاستفيق بعدها بثوان.. إن ذلك هو صديقي.. كانت نظراته توحي لي بأنه غاضب على الأقل لم يكن راضيا عن غيابي عن السكن لعدة أيام.. لأكن واقعيا لأسابيع منذ أن رممنا المحل وأجرينا الصيانة.. لم يكن لدي ما أقوله أو اعتذر به.. أعرف أن لدي إخفاقات في الحياة وهذا بعض منها، أن أهتم بالأصدقاء.. كما قال لي عمي مرة.

جر صديقي مريلتي بعنف.. ثم ابتسم.. ليقول لي:

"لم آت من أجل الخصام.. أتيت لكي أودعك فأنا مسافر"

تأكدت أن في عينيه أشياء كثيرة ساكنة.. يمكن أن تقال.. اكتفى بأن عبَّر عنها باحتضاني بقوة.. مرة ومرتين.. ثم استطرد يقول:

"لقد اشتعلت الحرب مجددا في أرض الأجداد.. يحتاجون إلى مزيد من المقاتلين هناك.. لا أعرف إن كنت سأعود مرة أخرى أم لا.."

ومشيت معه إلى أن أدركنا الشارع الرئيسي ومن ثم الزقاق المحفوظ لنا والغرفة التي وراءه.. كان قد لملم أوراقه ولوحاته في حقيبة جديدة يبدو أنه اشتراها حديثا، لم أرها من قبل.. كان المكان شبه مظلم.. أخبرني أن بناية جديدة تقام بالناصية الأخرى من الشارع ومنذ عدة أيام انقطعت الكهرباء عن الغرفة بسببها.. لكأنما هي إشارة بأننا لن نبقى هنا.. سلمني الحقيبة.. وأوصاني بأن احتفظ بالأمانة.. إن عاد.. وألا فستكون ذكرى لفترة رائعة من حياته.. وودعنا سويا الغرفة بعد أن حملنا الأغراض اللازمة إلى غرفتي الواقعة بالمحل.. وبات صديقي معي تلك الليلة قبل أن يسافر مع الصباح إلى الجنوب.

منذ ذلك اليوم.. لم يعد لي من صديق معين.. بات العمل صديقي الوحيد.. مع العائلة التي أحبتني.. والبدين الذي كنا نقضي الوقت سويا في نشاط دائب، ولأنني كنت قد أتقنت الكثير من الأمور بات يترك لي أن أقوم بها بدلا عنه.. لا اعتقد أنه كان يتكاسل عن واجبه، كان يفسح لي المجال لكي أطور مهاراتي. وفي ساعات القيلولة كنّا مستمرين في الصلاة سويا والاستلقاء لبعض الوقت في الغرفة الداخلية.. وفي الليل يذهب البدين.. إلى الآن لا أعرف أين كان يقيم بالضبط ولم يحدث لي أن استفسرت عن ذلك.. إلى أن جاءت ليلة كان فيها مشوشا.. بدأت معه هذه الحالة من الصباح حتى أنه أخطأ عدة مرات في العمل.. وكنت أتلافى ذلك بأن أسرع لإنقاذ الموقف مع

الزبائن.. مثلا كان يدس الفلفل الأخضر في طلبيات بعض الزبائن دون رغبتهم، أو يحدث العكس.. لا يسخن الخبز بشكل جيد.. لا يلف الساندويتشات بما ينبغي.. أدركت أن وراء ذلك هاجس ما، حيث لم يسبق لي أن شاهدته يتصرف على هذه الشاكلة.

في تلك الليلة وبعد أن عبر اليوم بكل ما فيه من أخطاء.. طلب مني أن يبقى معي بالغرفة.. وأعلمني أنه لا يستطيع أن يذهب لسكنه.. ثمة أمر لا يستطيع أن يحكيه، ولم أمانع فقد تركته يبقى معي.. ورتبت له فرشا على الأرض.. لم يكن لي سوى سرير واحد.. نام كأنه قتيل.. إلى أن استيقظ بعد ساعتين تقريبا.. كنت ما أزال مستيقظا أقرأ في كتاب يتحدث عن تطوير مهارات الإنسان في التعامل مع الوقت.. ففي تلك الأيام كنت قد عدت للقراءة التي بدأتها في الغرفة مع صديقي الذي سافر.. كانت لدي مكتبة متواضعة تتضمن مجموعة قليلة من الكتب اشتريها من سوق الكتب المستعملة بجوار الكنسية.. ذهبت إلى هناك مرة واحدة وعدت بها جميعها.. كلها تدور حول العمل والنجاح وتطوير مهارات الذات.. كان عمي فرحا لكوني أفعل ذلك، رغم أنه علق بأن الاحتكاك العملي أفضل من البحث عن أسرار الحياة وسط سطور الكتب، لكنه استدرك أن لكل إنسان طريقة خاصة في التعلم..

نهض البدين وقال لي إنه يستطيع الآن أن يذهب.. لكنه طلب مني أن اصطحبه إلى هناك لسبب ما.. لم يفصح لي عنه.. ولم يقتنع بإلحاحي بأن يظل معي إلى الصباح.. فقط أصر على أن أسير معه. وبالفعل مشينا سويا.. كان يبدو عليه كمن يخاف شيئا ما، ولم يفصح لي عن مخاوفه.. كان يتلفت ونحن نسير في الشارع.. إلى أن قطعنا مسافة لا تقل عن كيلومترين.. وصلنا إلى بيت أرضي له باب صغير.. كان ذلك الباب يقود لغرفة بحمام منفصلة عن البيت الكبير.. هنا يقيم البدين.. أردت أن أودعه لأعود، فترجاني أن أبقى معه.. وأخبرني بسبب توجساته طوال اليوم السابق:

"وصلني خبر أن أخواني سوف يصلون اليوم هنا.. لا أعرف متى سيصلون بالضبط.. لهذا أنا خائف"

سألته:

"ولكن ما الذي يخفيك؟"

كان سؤالي لا معنى له.. فقد أردت أن أفهم سبب إحساسه بالتوجس.. استطرد يخبرني:

"في البداية قررت أن أهرب بأن أبقى معك طوال الليل.. لكنني قررت أخيرا أن أعود هنا لكي أواجههم متى حضروا ...

صمت لبعض الوقت.. كان يتنفس بقوة.. كأنه ثور ذبيح.. استلقى على السرير الخشبي، وضع كامل جسده الكبير على الخشب يصدر طقطقة.. مد يده أسفل السرير تناول قارورة عرق، مليئة إلى النصف.. ارتشف منها عدة جرعات متوالية، لم يفصل بينها زمن كاف. كانت عيناه تحمّران ووجهه يشحب وسط الإضاءة الشحيحة بالغرفة.. قال لي:

"أنا خائف جدا.. تعال لأحضنك حتى أبدد مخاوفي..

ومد يديه نحوي ببطء.. كانت الخمرة قد تمكنت منه سريعا.. قلت لنفسي هل كانت تلك حيلة منه.. ضمن تخيلاته الممزوجة بالواقع لكي يأتي بي إلى هنا.. وسمعته يكرر ما قال.. وهو يتمتم:

"سوف أشفى لو أنني وجدت حضنا دافئا.. أنا تائه ومعذب في هذا العالم.. أنا وحيد.. أنا مجنون"

لم يقدر على فعل شيء.. على التحرك من السرير.. كان جسده ثقيلا جدا.. كان وجهه الشاحب قد خفت رويدا ورائحة العرق عبأت الغرفة.. شغلت له المروحة بسرعة وسط.. أطفأت الإنارة وتركته يغوص في النوم.. وعدت إلى غرفتي بالمحل لأقضى باقي الليل إلى الفجر الباكر، حيث استيقظت لاستقبال متعهدي اللحوم والخضار الذين يأتون من مزارع في أطراف المدينة الكبيرة، أنزلوا الأغراض من سيارة الشحن الصغيرة، كنت أرتبها في مواضعها بالثلاجة وفي الأرفف قبل أن أصنع لي كوبا من الشاي الساخن، أجلس على الكرسي البلاستيكي الذي تعود عمي أن يجلس عليه طوال اليوم في مدخل المحل.. أراقب الشارع.. قليل من المارة في أول الصباح، كانت ثمة قطرات مطر تزقزق في الشارع.. استطيع أن أرى أيضا طائرة تهبط في المطار، أتخيل أنني أحد ركابها.

كان البدين قد ظهر عند أول الزقاق القريب للشارع المتصل بالمحل.. رأيته يتهادى كأنه لم يبرح الحالة التي كان عليها.. حياني بطريقة آلية ودخل المحل، حيث شرع في العمل الروتيني.. غير أنه يبدو سيء المزاج أكثر من أمس.. طلبت منه أن يجلس بالغرفة الداخلية أو يرتاح قليلا.. وأنني سأواصل العمل وحدي إلى أن يشعر بأنه قادر على الأداء بشكل جيد. عمل بنصيحتي.. دخل.. بعد ربع ساعة ألقيت نظرة عليه، كان قد شرع في النوم كذلك الثور الذبيح مرة أخرى.. كان عمي قد وصل في السابعة تقريبا.. مع تزايد قطرات المطر، كان يحمل مظلة تحسبا لذلك التغير المفاجئ في الطقس، فهذا ليس موسما للأمطار.. سألني عن البدين، لماذا تأخر؟ ليس هذه عادته.. حيث لم يره بالخارج.. أخبرته أنه بالداخل وحكيت له ما جرى وأنه يعاني منذ الأمس من شيء غير مفهوم.. بدأ عمي قلقا وهو يسمع لي. قال لي:

"هل يعاني من حمى أو مرض ما؟"

"ليس ذلك.. هو خائف من شيء ليس بمقدوري تحديده.. وهو لا يحكي عنه"

لم أقصّ له بالتفصيل ما حدث ليلة أمس.. فقط أخبرته أنني أوصلته لسكنه.. ودخل العم إلى الغرفة الداخلية، تأخر بعض الوقت قبل أن يخرج صامتا.. كان حزينا بشكل واضح.. قال لي:

"لم يحدث له أن عاش ظرفا كهذا أنا أعرفه منذ سنوات طويلة.. مهما كان حجم مخاوفه فهو يظل سعيدا على الأقل يحزن أو يخاف قليلا.. لكنه لا يفقد تعلقه بالحياة.. إنه يحب نفسه كثيرا ويحب كونه جزءا من العالم"

انتظرت حتى أكمل عمي، سألته:

"هل أخبرك بشيء؟ أو بيّن سببا لمخاوفه؟!"

"لا.. لم يقل شيئا.. إنه يهزأ ومتضجر.. لنتركه حتى يهدأ"

في منتصف النهار تقريبا.. كانت الشمس تدلق أشعتها من جديد على الأرض، فقد توقف المطر وعادت السماء صافية وتبددت نسمات الصباح الباكر. كانت شاحنة كبيرة (لوري) قد توقفت أمام المحل، تقافز من أعلى شحنتها مجموعة من الرجال، لم يتحدثوا مع أحد.. كانت أوجههم متجهمة تنبئ عن غرابة تحيط بهم. كأنهم قادمون من فجيعة. دخل منهم اثنان المحل سراعا وهم يتصايحون.. أين هو؟ لن نتركه؟!

كان عمي يراقب الوضع دون أن يتدخل، في حين بقي الزبائن يراقبون ما يجري.. رأوا الآلات الحادة التي كان الرجال يحملونها على شاكلة سكاكين كبيرة وسواطير.. وصرخ أحدهم بقوة:

"فتشوا المكان جيدا.. تأكدوا إنه ليس هنا"

كان آخر يصيح:

"إذا لم يكن في البيت فقد جاء هنا"

لم تمر سوى دقائق حتى اقتحموا الجزء الداخلي من المحل.. وسمع الجميع أصوات معركة ضارية.. لعنات وضرب وصياح ومطاحنة.. بعدها شاهدنا رجلا يقفز في الهواء عبر الباب الفاصل مع الداخل، كان البدين قد رمى به بعيدا ثم بآخر.. كان يحمل أحد السواطير في يده. كان قد هوى به في وجه أحدهم.. ثوان وانهمر الدم من وجه الرجل، بعد أن شقّهُ الساطور.. كانت الدماء قد تدفقت في أرضية المحل.. كان يوما سيئا للغاية.. يوم كريه يجلب النحس.. أحسست بذلك من جراء ما أرى، وأنا غير مستوعب لما يجري أمامي.. عمي هو الآخر كان مستاء أشد الاستياء لما يحدث أمامه. كان ثلاثة من رجال الشرطة قد وصلوا المحل يحملون بنادقهم أحاطوا بالرجال، كان عددهم أربعة عدا الرجل الذي فارق الحياة. جنزروهم بالسلاسل القوية، وقيدوا البدين، كذلك، كان يلقي النظرات نحوي وعمي وهو يشعر بحزن يتجلى في ملامح وجهه، كان ينظر إلينا بشدة كأنه يريد أن يعتذر بشكل ما عن سر معين في حياته لم يكن ليقصه لنا، لسبب مجهول وغامض. كانت الشاحنة الكبيرة قد تحركت قادها أحد رجال الشرطة، تناثرت حبات البصل تتقافز مثل كرات، تتدفق من الجوالات المحملة بها. كانت اللوحة الرقمية للشاحنة تشير إلى أنها قادمة من مكان بعيد خارج العاصمة.

بعد هذه الحادثة ولأسبوعين ظل المحل مغلقا بأمر من الشرطة، لأن المطعم تحول إلى مسرح جريمة قتل بتعريف المحقق الذي وصل لعدة مرات.. ومنعت من البقاء بالمحل طوال الفترة المحددة، ما اضطراني وبأمر عمي أن أبقى معهم بالبيت في الغرفة التي سبق لي أن نمت بها في تلك الليلة. شعرت بأن عمتي لم تكن راضية بعض الشيء عن بقائي معهم بالبيت، لم يكن ذلك موقفها

المبدئي.. فقد رحبت بي في البداية، لكن تغير موقفها بعد أن سمعتها تكلم امرأة تلبس ثوبا أزرق وقرطين كبيرين من النحاس يتدليان من أذنيها، كانت تزورها نهارا في غياب العم، الذي كان يذهب إلى مخفر الشرطة حيث كان يطلبونه بشكل شبه يومي.. كانت تلك المرأة كما تبين لي من خلال ملاحظات أولية قارئة بخت أو وداعية ترمي بأصداف البحر على الأرض أمام الزبون لتتنبأ بمستقبله وتحدد له طالعه. كانت العمة تحاول أن تخفي الأمر، ونجحت خبراتي القديمة في البلدة في اكتشاف ذلك بسهولة. العم نفسه كان يشعر بأن ثمة أمر يحدث من وراءه، وسألني بعد الظهر:

"هل جاء أحد هنا لزيارة عمتك؟"

لم أكذب عليه، لم يحدث أن قلت له كلاما غير صحيح.. أخبرته بما رأيت وعن تخميني بالضبط، رد عليّ:

"أدرك ذلك فقط كنت أريد أن أتأكد.. أنا أعرف إيمانها العميق بهذه الأمور.. تبدد فيها الكثير من الأموال.. هذه هي نقطة ضعفها الوحيدة"

في النهار التالي، جاءت الوداعية من جديد.. وأغلقت العمة أبواب ونوافذ البيت الداخلي، وشممت رائحة البخور تنبعث من الداخل، وصوت تهويمات تأتي من بعيد وتروح كأنها تخرج من عمق بئر، وتخيلت أن العم يصل الآن ليكتشف الوضع، وخاب تخيلي، وبعد دقائق سمعت صوتا يناديني أنه صوت المرأة الغريبة، كانت تطلب مني أن أتي بأمر العمة.

دخلت عليهما في الغرفة.. كانت العمة جالسة على الأرض، أمام الوداعية التي فرشت رملا على البلاط، وهي ترمى بالصدف عليه وتتمتم بأقوال غير مفهومة، نظرت نحو السيدة التي بدت لي هذا اليوم أكبر سنا مما عرفتها.. هي أصغر من عمي بنحو خمس سنوات لا أكثر بتقديري.. لكنها اليوم تبدو أكبر منه بكثير.. لا أعرف السبب.. ربما كان تخيلا مني.

كانت الوداعية تشير نحوي وتقول:

"أبعدوه لن يكون فيه خيرا.."

كانت تتحدث أمامي وهي غير مبالية بي البتة.. ورأيت عمتي يتجهم وجهها وهي تدقق في عيني، لم أشعر بتلك الحميمة التي كانت تكسوها من قبل ساعة كانت تخاطبني كولدها. كانت ملامح الوداعية بوجهها العريض، غير مريحة وشعرت كما لو أنها تنوي شرا ما.. قامت عمتي بإخراج رزمة من المال من حقيبة صغيرة وقدمتها للمرأة التي عدتها بشغف وهي تبل أطراف أناملها بالبصاق وتكرر العد في تلهف، قبل أن ترتشف باقي فنجان قهوة تركية أمامها، بالطريقة نفسها التي كان الأعرج يتكرع بها العصائر. رمت بالفنجان على الرمل، بلامبالاة.. ونهضت لتغادر.. في حين كانت عمتي لا تزال جالسة في مكانها على الأرض، ساهمة في أمر ما.

تخليت أنها سوف تقوم بطردي على الفور من بيتها، ولم يحدث ذلك. وخشيت أن يتوتر الجو فآثرت أن أخرج لكي أتجول في المدينة، وفكرت أن أذهب لرؤية بعض من أصدقائي القدامى في الشارع الإفرنجي كما يسمونه. وأنا في منتصف الطريق رآني عمي، فعدت معه إلى البيت. ونحن

عائدان حكيت له ما حدث بالضبط هذا اليوم، لأنه أخذ مني عهدا برواية كل شيء.. كان قد قال لي:

"إن عمتك متوترة منذ رحيل ولدها.. هي وجدت فيك نوعا من السلوى وكثيرا ما تؤكد لي ذلك، بل تتمنى أن تكون معنا بالبيت دائما.. لكنها هذه الأيام تشعر بقلق جراء ما حدث في المحل.. لقد تشاءمت من الغرباء كما تقول لي.. لكنك لست غريبا يا ابني"

قاطعت عمي.. دون أن انتبه، فأنا لا أقطع عليه حديثه في العادة:

"عمي.. لو أن الأمر يزعجكم فسوف أدبر مكانا للإقامة به حتى يعود المحل للعمل ويكون بإمكاني الإقامة في الغرفة هناك مجددا"

أخذني إليه، نادرا ما يحتضنني، بعكس السيدة.. قبلني عدة مرات على خدي، أشعرني بحنين الأب الذي لم أتذوقه طوال حياتي.. قال لي:

"ولدي.. لا تقل ذلك.. أنا أثق فيك جيدا.. وعمتك كذلك.. هي متوترة فحسب.. ستكتشف مع الأيام أنها تحبك أكثر مما تتصور وأنها لن تتخلى عنك"

كانت عبارات عمي قد زرعت في يقينا بأن انتظر وألا استعجل في اتخاذ خطوة بالخروج من عندهم، وتحاشيت أن أتكلم مع عمتي أو أكون بجوارها.. وكان عمي حريصا أيضا على ذلك، ومضت عدة أيام.. هي لا تراني فيها حيث أظل خارج البيت معظم الوقت، حتى انقضى الأسبوعان وفتح المحل من جديد، لأعود إلى غرفتي.. وفي اليوم التالي مباشرة.. كانت السيدة قد وصلت ظهرا.. كانت قد أسرعت وسط الزبائن لتحضنني إليها، وتقبلني، وهي تسألني بعتاب:

"أين هربت يا ولدي طوال الأيام السابقة؟"

أجبت بكذبة بيضاء:

"اعذريني يا عمتي كنت مشغولا بترتيب الأوضاع في المحل"

كنا قد خسرنا بعض الأشياء مثل زجاج الخلفية لصندوق الشاورما الكبير، الذي يقف المعلم خلفه، فقد تهشم جزءا كبيرا منه. كما كانت عملية تنظيف البلاط مضنية.. خاصة أن رائحة الدم استغرقت وقتا وكمية كبيرة من المواد الكيمائية لإبعادها نهائيا.. لكن ذلك لا يعني السبب المباشر لعدم رؤية عمتي وهي تعرف ذلك تماما.. فقد نظرت إليّ وابتسمت بطريقتها المعهودة لي، وقالت:

"عمك سيسافر اليوم عصرا.. وستأتي لتكون بجواري في البيت"

وخرجت وهي تشير لي بألا أتأخر.. ومضى يوم طويل مع رحلة الحياة اليومية.. كنت وحدي وكان مطلوب مني أمام نفسي أن أثبت جدارتي وأتحدى ذاتي.. ليس بإمكاني التقييم الآن، ستمر أيام قبل أن أفهم جيدا هل أنا قادر على التحدي الحقيقي والمواجهة أم لا.

5

أكثر من مرة تم استدعاء عمي إلى المحكمة.. كانت أيام ما بعد اقتياد البدين إلى السجن والمحاكمة.. قاسية ومحاصرة بالأحزان.. حتى لو أن الرجل أثبت أمامنا وليس تخيلا أنه قاتل. في الماضي يمكن أن يتخيل الإنسان أن مروياته الشفاهية فيها شيء من الخيال أو هي كذلك.. لكن التجربة الأخيرة عقّدت الوضع.. وسمعت عمي يناديني بعد أن انتهينا إلى بوابة المحكمة الكبيرة بأن أجلس هناك في مقعد بالصف النهائي من الصالة ذات المقاعد الخشبية المتراصة.. كان ثمة بشر كثيرون والمكان يضج إلى أن دخل الرجل الذي وقف له الجميع وطرق بقطعة خشب مدببة من رأسها على الطاولة. يبدو المشهد كما لو أنه فصل دراسي..

كان البدين يقف وراء قفص من الحديد.. صامتا.. فقد قليلا من وزنه.. رمقني من بعيد بنظرات حنونة، وتألمت لمشهده، فيما فاضت دموعي، لم استطع أن أقاوم ذلك الضعف الذي انتابني وبدأت استرجع لحظات متكررة وجميلة كانت لنا سويا.. بما جعلني أُقدِّر في هذه الهنيهة بالذات أنني أحببت هذا الرجل رغم كل شيء.. وكما يقول عمي نقاط ضعفنا كثيرة وعلينا أن نبحث عن الأشياء الإيجابية.. ولوحت بيدي.. ورفع يده هو الآخر.. لم يكن مهتما بما يجري كأنه يعيش في عالم آخر غير هذه القاعة المحشودة بالناس، أغلبهم من أقاربه الذين جاؤوا من مختلف مدن البلاد.. أقاربه وأقارب القتيل.. لا فرق.. فالقتيل هو أخوه.. قابيل قتل هابيل.. هكذا هم أبناء آدم..

وقف رجل بثوب فضفاض أسود ونظارة مُحكَمة الإمساك بالأذنين وبسلسل طويل يتدلى منها على الجانبين وعدسات سوداء معتمة.. بدأ في قراءة أوراق عديدة، استمر في القراءة لأكثر من نصف ساعة.. كان القاضي يقاطعه من مرة لأخرى.. لم أهتم بما أسمع.. كنت أفكر في مصير البدين.. فقد سمعت بعضهم يتهامسون أن نصيبه سيكون الإعدام.. كان هؤلاء المتكلمون وشوشة هم أهله وأحباؤه الذين انقلبوا عليه جميعهم كما يبدو، لا يوجد هنا من ينظر إليه بشفقة، يبدو اللؤم جليا على وجوههم الكالحة المكفهرة.. شعرت بكراهيتهم.. لقد كان من الممكن أن يكون البدين في عداد القتلى.. هم الذين هجموا عليه.. أرادوا قتله.. ما الفرق إذن؟ لابد أن ثمة خطأ ما في القانون..

نادى القاضي عمي.. وقف سأله عدة أسئلة.. لم أركز إلا في نهايتها:

"منذ سنوات طويلة يعمل معي.. نعم لم أرَ منه خطأ ما"

اختتم القاضي شهادة عمي.. ورفعت الجلسة للنطق بالحكم بعد أسبوعين.. خرجنا دون أن يكلم أحدنا الآخر.. وهذه المرة لم استطع تحمل رؤية مشهد البدين وهو يجرجر سلاله في اليدين والقدمين ويصعد على سيارة لا نافذة فيها.. سيارة سوداء قبيحة المنظر.. فتحوا البوابة الخلفية رموه في الداخل مثل جرذ وأغلقوها، كان صامتا وجسورا لم يبد عليه أي خوف من شيء.

في تلك الثواني وأنا أراقب ما يحصل مع البدين، كان عمي قد وقف مع الرجل صاحب الثوب الفضفاض الأسود، كانا يتحدثان عن المحاكمة، وسمعت الرجل يقول لعمي:

"حاولت ما بوسعي لإنقاذه.. لكن صعب جدا أن يخرج براءة"

أخرج عمي حزمة أوراق مالية من جيب بنطاله، سلمها للرجل.. سارع إلى عدها دون أن يلقي بالا للناس في المكان.. كان منظره مثيرا للانتباه.. وقدرت أن عمي لم يكن مرتاحا للمنظر خاصة أنني أعرف تماما مدى احتقاره للناس الذين يحتفون بالمال أمام العيان.. كنا قد عدنا إلى البيت، وكانت العمة في انتظارنا.. هي اليوم زاهية جدا، كانت بكامل أناقتها، يبدو أنها تتجهز للذهاب إلى مناسبة ما، كان شعرها مغسولا وملمعا بمكواة الشعر، وكان وجهها براقا كأنها طفلة، كان عمي على علم بمقصدها، لكنه لم يكن يعرف أنها تريد أن تأخذني معها. ولهذا السبب كان علي أن أذهب أنا وعمي للسوق الإفرنجي.. أخذنا سيارة أجرة واشترينا بذلة كاملة لي، بدوت معها في المساء كما لو أنني أمير صغير، أشبه تماما ابنهم الذي فقدوه بسبب المرتزقة.

كانت عمتي فرحة شديدا، وذرفت دموعا متلاحقة من محجرها، قبل أن ندخل صالة بأحد الأندية الكبيرة في المدينة، لم يسبق لي أن دخلت مثل هذا المكان من قبل. فقط كنت أمر عليه من الخارج أثناء تسكعي بالشوارع.. وأراقب هيئة وأزياء الناس الذين يأتون هنا. الآن أنا واحد منهم، بقدر ما أشعر بالفخر والزهو.. كنت حزينا بعض الشيء أن أمي لم ترني بهذه البذلة الرائعة. وكعادتي تناسيت وعشت لحظات مميزة في حياتي.. وجدت احتفاء كبيرا بي، كانت النساء كبار السن يقبلن خدي ويشتممن رائحة عطري غالي الثمن الذي اشتراه لي عمي خصيصا بتوصية من العمة التي كتبت قائمة بما يجب أن يتم إحضاره لهذه الليلة، حيث كان عرسا كبيرا لأحد أبناء السادة في المدينة، ولم أهتم بمن يكون العريس أو العروس، كنت أتأمل الحياة في مكان آخر.. لم اكتشفه من قبل.. وتذكرت أن خالي وزوجته كانا يخرجان بكامل أبهتهما في الليل لمثل هذه المناسبات، لكن لم يأخذاني لواحدة منها أبدا.. وما كان لي أن أتذكر خالي لولا أنني رمقته من بعيد يجلس وبجواره السيدة في إحدى الطاولات وبجوارهما فتاة أظنها ابنة خالي قد عادت، لربما يبصرونني ويحدث أمر لا يحمد عقباه، وفكرت هل أخبر عمتي بالأمر أم أحاول أن أتجاهلهما.. وهل لو تعرفا علي سيهتمان بي.. لست متأكدا!.

كان المكان يضج بالبشر، مختلف الألوان والأشكال والسحنات والأزياء، تحت أضواء باهرة، إنه النصف المجهول من تلك المدينة، هنا الحياة الحقيقية التي لا تراها في الشارع، منذ ذلك اليوم كنت قد بدأت التعرف على حياة جديدة، وعالم آخر قد أجد نفسي جزءا منه مع الأيام، بطريقتي الخاصة. تم توزيع الطعام، كان عبارة عن كوكتيل من الأطعمة في أصحنة من الورق الراقي، كان صبيان بمثل سني يقومون على خدمة المدعوين، يبدو أنهم يتبعون لإحدى الشركات. قارنت بين شكل الأعراس في البلدة والعرس هنا، لا توجد مقارنة تماما، وارتفع وسط استغراقي في التنقل بين الأمس واليوم، صوت المغني إنه ذلك الفنان المعروف الذي يسمونه فنان أفريقيا الأول، كان

العازفون في منصة عالية يلبسون زيا موحدا، والموسيقى تنسجم مع فرقعات لأشكال ملونة بدأت تغطي السماء، كان رجل يطلق شيئا ما لأعلى لتحشد القبة السماوية بفيض من الأنوار المزركشة.

وسط تموجات المدعوين وهم يتراقصون مع إيقاع الموسيقى والغناء، كان خالي قد اكتشفني وأنا في موضعي قريبا من عمتي.. اختلس النظر نحوي مرة ومرتين.. زوجته لم تكن منتبهة في حين كانت ابنة خالي تراقص شابا أكبر منها سنا، لا يحتاج ذلك لدليل. كانت الساحة الوسط المفروشة بالبساط قد احتشدت بالراقصين، وفاحت رائحة الخمور في المكان، وتلك الرائحة الغريبة التي كنت اشتمها سابقا عند الأعرج وزوجة خالي، كما ارتفع دخان السجائر يسد الأفق.. تحول أغلب الحضور هنا إلى كائنات شبحية تتمايل أمامي مع اختلال الرؤية عندي بفعل الضوء المتساقط عشوائيا في المكان. شعرت السيدة بأنني قد أكون مستاء بعض الشيء، فطمأنتني أننا سوف نذهب بعد قليل، كانت هي بغير الأغلبية جالسة في مقعدها لم تشارك في الرقص، اكتفت بتبادل البسمات المشرقة مع كل من ينظر باتجاهها ويحييها.

لم تمض سوى دقائق حتى وقف خالي أمامنا، سلم على السيدة عمتي، لم تبد اهتماما كبيرا به، لا أظنها تعرفه.. صحيح أنها عكست مشاعر طيبة في ملامح وجهها، وبادلته التحيات بل وقفت له إلا أنها كانت أظهرت استغرابا لا يحتمل الظنون، لمصافحته لها. ومد يده نحوي، مددت يدي. دون أن أهتم كثيرا به، أو أُقدِّر أنني أنا ذلك الذي يعرفني جيدا.. ابن أخته.. تقمصت أنني كائن آخر، وأرجعت يدي واقفا بطريقة مهذبة غير مبال، قبل أن تجلس عمتي. بدا خالي في حالة من الذهول لسلوكي.. وأظن أنه شك هل هذا أنا، فبهائي وطلتي لا يدلان على ذلك الولد القديم، لا أدري طبيعة مشاعري غير أني لم أجد في قلبي منفذا لكي أمرر به ذرة حب اتجاهه في تلك اللحظة، ولسبب ما أحسست بأنني احتقره دون أن أدقق في الأسباب.

وكاد أن يفتح فمه لكي يتكلم، ليسأل.. أخيرا قال:

"أين أنت يا ولد؟"

تغيّر وجه عمتي.. نظرت إلى خالي بانزعاج واضح، كأنها تطلب منه أن يحترم نفسه، فكلمة ولد كانت مثيرة للاستفزاز بالنسبة لها، رغم أنها كانت محببة عندها ولي ساعة تناديني بها. ودللت على رغبتها في إنهاء الحديث لرجل لا تعرفه بأن أشارت نحوي بأن أجلس، وهي تقول:

"ماذا هناك أيها السيد؟ لماذا تخاطب ابني بهذه الطريقة؟"

تراجع خالي للوراء.. يبدو عليه تداخل عجيب ما بين الحيرة وعدم التصديق والتصديق أيضا.. كان قد غسل وجهه بالعرق المفاجئ الذي تدفق من بين خلايا الخدين والجبين العريض.. شفط الدخان من غليونه وهو يسير غير منتبه لما حوله، حتى أنه كاد أن يسقط أرضا بعد أن أصطدم بطاولة إحدى العائلات. لم أعرف هل أضحك أم أشكر عمتي فحسب، أنها جعلتني ابنها. وظللت صامتا، لا أشعر بأي ذنب.

في طريق العودة، سألتني عمتي:

"من هذا الرجل؟ هل هو أحد زبائن المحل؟"

ثم استطردت:

"سلوكه في الكلام غير مهذب أبدا"

أجبتها دون تردد:

"إنه خالي"

شعرت بالدهشة.. قالت لي:

"إذن هو عرفك."

جاء ردي بشجاعة:

"لست مهتما بذلك إن كان عرفني أم لا.."

لم تسأل بعدها ولم تتطرق إلى الموضوع مرة أخرى، سواء في تلك الليلة أو لاحقا.. ومضى كأنه حلم. في حين بقيت صورتي خالي المهزوم في ذهني.. أكاد أشعر بالتعاطف معه أحيانا، ثم أسرع لإزاحته جانبا لأواصل حياتي المعتادة، فالأمس لا يهمني.

ومضت الأيام بي.. لا أصدقاء لي تقريبا، بعد أن سافر صديقي إلى الجنوب ولم أعد أسمع عنه.. كانت أخبار الحرب قد انقطعت عني منذ أن تركت رفاقي في الشارع، فالعمل أخذ جل وقتي.. بات عالمي الأكيد، وصار عمي يهتم بي كذا عمتي.. انتقلت للعيش معهم بالمنزل، جهزوا لي الغرفة التي نمت بها ذات ليلة.. وعلقوا بها صورتي بجوار صورة تلك المرأة التي عرفت أنها والدة عمي، رحلت قبل سنوات بعيدة.. لم يكن في الحياة من أشياء مزعجة سوى تذكر الماضي أحيانا، لكن بذرة قلقة في ذاتي تمنعني بقوة من الرجوع للوراء.. أن أفكر في تلك البلدة أو في أهلي.. أمر لا استطيع أن أتحكم فيه، لربما أكون مريضا بحسب الطبيب النفساني الذي جاء يوما ليجري اختباراته على أولاد الشارع.

منذ أن غادر البدين المحل، بت وحدي.. أقوم بكل شيء.. كان عمي يريد أن يحضر عاملا آخر معي، بيد أني أصررت على أن أسير إلى النهاية بنفسي، طالما أن حدود العمل لا تتطلب أكثر من ذلك.. أما إذا جاء الغد وتوسع الحال فسوف نحضر عشرات العمال، كانت تلك صورة مصغرة في رأسي لما يفترض أن يكون ذات يوم أراه قريبا. بخصوص البدين، فقد ظل حبيس سجنه بعد أن حكم عليه القاضي في ذلك النهار الذي لن أنساه بالسجن لعشرين سنة، أظنه ساعة يغادر المحبس سوف يكون قد اقترب عمره من الثمانين.. وأنا سأكون شابا يقترب من الأربعين.. لو أننا عشنا طبعا.. ياه ما أبشع الحياة ساعة تواجهها بحسابات السن والأعمار.

قال لي عمي ونحن نغادر المحكمة:

"لقد فعل المحامي المستحيل ولم نصل لنتيجة"

سألته:

"هل كان تنازل أخوته سوف يعفيه؟"

"هم رفضوا ذلك.. والتنازل لن يجدي ما دام الحكم ليس إعداما.. فهو لم يتقصد القتل"

تبادر سؤال لي:

"عمي سبق أن قلت لي مرة.. هل أخبرك عن كم قتل من البشر قبل أن يأتي إلى هنا؟.. هل كنت تعلم أنه قاتل.. هل قتل كثيرين؟"

ابتسم عمي.. قال:

"الأمر مجرد مبالغة.. هو يحكي عن قصة لا أعرف مدى مصداقيتها.. حتى لو قتل أحدا فهو لا يتقصد ذلك"

كعادة الحياة تمضي وتقرر أشياء جديدة.. مع الوقت نسينا البدين.. وتلاشت ذكراه عن ذهني.. عمي هو الآخر لم يعد يذكره.. فقط كان ذلك الوداع القاسي حيث رأيت دموع عمي تتقطر، كان حزينا بجد، وتمتم بأنها العُشرة لا تذهب هدرا.. في ذلك النهار عرفت أن لعمي قلب آخر لم أره من قبل.. قلب مفعم بالمحبة لمن يخلص له، ولمن يحبه بحق.. كان البدين يحب عمي ما من شك في ذلك وكان مخلصا له.. كان يؤدي واجبه بكل جدية، وإذا كان ثمة ترهات صغيرة فهي لا تعني شيئا مقابل الجانب المضيء.

صرت أعرف بابن التركي.. الكثيرون يظنون أنني ابنه حقيقة.. وأنا شخصيا لم أتدخل يوما ما لأنفي هذا الأمر أو أثبته.. كانت نظريتي لأدع الناس يقولون ما شاءوا، وهي تقريبا الفكرة نفسها التي يؤمن بها عمي. ومن أين اكتسبتها أنا إن لم يكن منه، فقد صار أبي ومعلمي بل صارا هو وعمتي عالمي.. لم أر منهما سوى المحبة الفائضة، كانت عمتي قد اقترحت علي بأن أذهب للمدرسة لإكمال تعليمي.. غير أني لم أكن أرغب في ذلك، كنت قد وجدت نفسي في عالم السوق والمحل والشاورما.. لم تعد المدارس تمثل لي شيئا مهما.. كنت أرى المئات ومن ثم الآلاف يتخرجون سنويا وهم متبطلون لا يجدون وظائف، بعضهم كان يأتي عندنا في المحل باحثا عن عمل.. قد لا يكون الأمر متعلقا بقيمة التعليم في حد ذاته يا ولدي.. وإنما بشيء غامض اسمه القدر أو الإرادة الإنسانية.. دعني أبسط لك الأمر.. في الحياة يندفع الإنسان مرات كثيرة في أكثر من اتجاه وبأكثر من مسار، غير أن هناك شيء غامض هو الذي يحركنا ويحتكرنا لصالحه، لغايته، إنه المصير المحبوك لنا في الغيب المثير، عند العناية الإلهية التي لا تخطئ أبدا.. يحاول الإنسان أن يكون أكثر من شيء.. ولن يكون سوى شيء واحد.. هو لا غير.. وهذا أنا يا ولدي.

عمي لم يكن يتدخل في قراراتي.. كان فقط يشحنني بالحكم والفضائل التي يمكن أن تفيدني، أما القرار فهو ملكي، حتى في شؤون العمل كان هذا منهجه أيضا.. كان يقول إن الذكاء لا تصنعه المدارس.. بل تخصمه.. ربما كان يتحدث عن تجربته الخاصة، التي حتى اليوم لا أعرف عنها الكثير.. ولم أسأل عنها.. كان يقول ذلك وأشياء كثيرة أخرى، وكان علي اتخاذ القرار.. عمتي مع الوقت تنازلت عن إصرارها بأن تراني طبيبا أو مهندسا أو أن امتهن أي مهنة كبيرة كما يقال

في البلد.. هناك اعتقاد بأنه لكي تحصل على المال يجب أن تصير واحدة من هذه المهن.. هي نفسها قالت لي ذات يوم:

"هاهو أبوك ما الذي ينقصه.. لم يبق في المدرسة غير سنوات قليلة"

صارت تلقبه بأبي وصرت أنا الابن وهي أمي.. وهذه عائلتي.. ليس من مفر إنها الأقدار، بعضها لذيذ ورائع وبعضها قاس.. ومضت السنوات.. تسابق بعضها.. أحيانا لا يعود الإنسان يشعر بالزمن وهو يجري سريعا.. وأحيانا يبطئ جدا ويدخل في مطبات حرجة ووعرة.. وطوال السنوات التي مضت إلى أن بلغ عمري العشرين تقريبا.. وأصبحت رجلا.. لي شارب صغير ولحيتي حليقة ومواظب على الاجتهاد والعمل.. كانت قد تكونت لي طريقتي الخاصة في الحياة.. كانت تمر لحظات أشعر فيها بأسى يعتصرني أو نوع من اللذع كالإبر التي تغرس بالبدن، إنه الاشتياق إلى الأهل.. بمرور الوقت أقاومه وأقضي عليه تماما.. حتى لكأني أرى أشباحا قديمة في حياتي هي تلك البلدة البعيدة وعائلتي التي نسيتها هناك. كانت صورة أمي تتباعد عني خاصة مع ارتباك الرؤية عندي، وقد صرت استعمل نظارة طبية لتقريب الأشياء البعيدة وضبط النظر، معها بدت الأشياء أكثر قربا ووضوحا إلا الماضي كان يتباعد.

كان عمي يسافر كعادته، أظن أن لديه أشغالا في بلده الأم تركيا. وأنا لا استفسر كالعادة عن الأشياء إلا أن تقال لي. وعلمت فيما بعد أن له ابنة هناك عمرها يتجاوزني ربما بعشر سنوات.. ربما هي في الثلاثين أو أكثر لا أعرف بالضبط.. وهي من زوجته الأولى التي توفيت في اسطنبول بمرض لعين، قبل عشرين سنة أو أكثر.. ولأن ابنته متزوجة وتقيم مع زوجها فهي كما تقول عمتي.. تهتم بحياتها مع زوجها، ولم يسبق لها أن جاءت إلى هنا.. فعالمها يتشكل في تركيا.. هي تعمل في مجال الصحافة كما علمت وتؤلف الكتب والقصص والروايات.. سألت عمتي:

"هل سبق أن تقابلتما؟"

ردت علي:

"نعم ولكن قبل زمن بعيد.. يا ولدي"

كان عمي يحب ابنته تلك ويحبني أيضا، فقد كانت صورة ابنه الراحل تتعاظم تدريجيا في هيئي.. فكلما مر عام وكبرت كان يربت على كتفي وينظر بنحوي كثيرا ليقول لي:

"كبرت يا ولدي"

أتخيله يراني هو.. أو أنه بات يصدق ذلك إنني هو.. فالإنسان أحيانا يخترع توهمات وأشياء ثم يصدقها، ويصعب عليه أن يعود إلى الحقيقة.. أنا ربما أكون جزءا من وهم تلك العائلة.. بيد أن الوهم لا يمكن أن يصبح حبا جارفا كالذي تبديه عمتي لي.. وهي تشرف على أشيائي بدقة.. وتتعرف على شؤوني.. وتناقش عمي حول أحوالي.. ليس من دليل يعكس الحالة التي أنا فيها إلى مضادها لأكون خارج العاطفة التي يغدقاني بها. وأنا لم أكن لأعيش حياة أفضل من ذلك لو أنني

كنت في مكان آخر.. فالمشاعر الحسنة هي التي تجعل المرء سعيدا، ومثابرا بجنون على حب الحياة والطموح.

كان للابنة وأمها صورتان معلقتان في غرفة عمي الخاصة، والتي لم أكن لأدخلها في البدايات، ومع السنوات صار البيت كله مملكتي أدخل في أي مكان دون أن أشعر بالحرج.. في الصورة تبدو الزوجة القديمة بهية الطلة صغيرة السن وعلمت أنها توفيت في ريعان الشباب وهي لم تبلغ الخامسة والعشرين.. لسبب مجهول أنجبت بنتها وبعدها بعامين أو ثلاثة كان قدرها المحتوم مع تلك اللعنة، وبقيت الابنة مع أهلها لأمها في اسطنبول يعتنون بها إلى أن كبرت وتزوجت.. البنت تبدو إلى حد كبير تشبهني.. تحمل قسمات وجهي الحزين لمن يتأمله جيدا، أظنها تفكر كثيرا لأنها تشتغل بالكتابة.. قال عمي إن الكتابة عمل مرهق وهو يعرف ذلك من خلال تجربة ابنته.. ويقول عنه أيضا إنه رغم ذلك يظل شأنا إنسانيا عظيما، لأن الكاتب يصنع حياته للآخرين، خاصة إذا ما كان مخلصا لتجربته ونضاله من أجل أن يكون العالم مكانا أفضل للعيش وجديرا بالاحترام والثقة في أن يكون محتفيا بالمستقبل.

لا أعرف كيف يؤلف الناس الكتب، فقط كنت أهتم بالقراءة.. وكما أخبرتك أركز على تلك الكتب التي تطور قدراتي في الحياة والعمل.. رأيت عمي مرة يحمل كتابا لابنته مكتوب باللغة التركية وكنت لا أعرف عنها شيئا.. نعم أحفظ بعض العبارات أو الكلمات من عمي وعمتي.. أما أن اقرأ أو أكتب لم يكن ذلك واردا إلى أن جاء يوم قررت فيه أن أثقف نفسي في هذا الجانب حيث اتفقت في برنامج مع عمتي التي سوف اكتشف أنها مثقفة وذكية دون حاجة إلى مطالعة الكتب، وتدريجيا وخلال ست أشهر كنا نسهر في آخر الليل ثم استيقظ لعملي في الفجر الباكر، كنت قد بدأت أفك شيفرة القراءة والكلام.. وهذا مكنني من أن اقرأ في البداية عناوين كتب ابنة عمي وبعض من سطورها.. أو أتصفح صحفا تركية كان عمي يحضرها معه أثناء زياراته لاسطنبول، كان يذهب إلى هناك على الأقل مرتين في السنة. مع الوقت كانت الأمور تسير بخير، خاصة أنني كنت إذا رغبت في أمر أتعلمه بسرعة وبالشكل الجيد، ليس هذا إطراء للذات، هذه قدراتي التي كنت أعرفها ومتأكد منها.

أشياء مثل تعلم اللغة التركية، كانت مثل نقاط كثيرة في حياتي تثيرها اهتمامات في فترة معينة، وتتملكني رغبة في تعلمها أو فهمها.. هذا جزء من طريقة تركيبي ونظريتي للحياة.. ولهذا بالإضافة إلى انشغالي بالعمل، غالبا ما كنت أبحث عن هوايات أو أمور محببة أقضي معها بعض الوقت، حتى لا أتكلس وأفقد التماهي مع الحياة في شكلها الروتيني واليومي، فقد كان عمي يقول لي:

"إن الإنسان يصدأ مع الأيام إذا لم يكن له من اهتمام غير العمل فحسب"

بتعلم التركية كانت أمامي عدة كتب لابنة عمي، لكنني سأكون صادقا أن قراءتها تأخرت كثيرا، ليس لأن قدراتي كانت ضعيفة في اللغة. أبدا. كان السبب يتعلق بأن اهتمامي كان قد مضى إلى

أمور أخرى. رغم أنني كنت مهتما بدرجة كبيرة أن أفهم حياة عمي من خلال ما كتبته ابنته. كان عمي قد أخبرني أن ثمة إشارات حتى لو لم تكن مباشرة في كتابات ابنته وأن بلدي من الأماكن التي يرد ذكرها بوصفها المهجر الذي وجد فيه إنسان يبحث عن ذاته ومستقبله متكأ حقيقيا استطاع فيه أن يتخلص من الأوجاع التي كان الماضي سببا فيها. كان يقول ذلك ولم يكن ليعبر عن طبيعة هذا الألم أو حجمه في ذاته.

كان السبب المباشر لانشغالي أن عمتي (أمي)، قد فاجأتني ذات يوم بعد أن بلغت الحادية والعشرين بأنها سوف تقول لي سرا، وأن علي ألا أبوح به.. وشرحت لي أن هذا سيكون لي دافعا لكي أعمل وأركز بشكل أفضل في مهامي بالمحل، قالت لي إن عمك خصص لك جزءا من ثروته في صك سجله بالمحكمة، ولن يكشف عن هذا إلا ساعة يكون قد جاء الوقت المناسب.. ورجتني بهدوء:

"أعرف أنك جاد وكتوم.. ستعدني أنه لن يعرف بأنني أخبرتك"

بدر لذهني أمر معين، سألتها:

"لكن لديه ابنة هي أحق مني؟!"

ردت:

"هي ليست في حاجة لشيء.. ثم أن هذا الأمر تم بطلب مني.. أنت ابني ألست كذلك!"

لم أعرف بما أرد.. وأخذتني إلى حضنها.. كانت ساهمة في أفق غير محدد، لا أدري بما كانت تفكر.. ودخل عمي علينا.. رآني في حضنها، ابتسم دون أن يزعجنا وهو يأخذ طريقه إلى غرفته الخاصة.. التي يفضل أن يجلس فيها متأملا ربما سنوات عمره القديمة.. ذكرياته وطفولته ورحلته في الحياة.. أتخيل ذلك.. مرة قلت له مثل هذا الكلام، فقال لي:

"أنت وهي لا فرق بينكما.. كلاكما مولع بالتأليف والخيال"

كان يعني ابنته وفهمت ذلك.. وسمعته يضيف:

"أنا أُفضِّل الخيال الذي يتم توظيفه في الواقع.. في العمل والمعاش"

سر عمتي.. ظل سرا.. ولست متأكدا إن كان عمي قد شك في أنني عرفت أم لا، ولا اعتقد ذلك، لأن علاقتي مع العمل كانت كما هي تتطور وتكبر.. في خلال شهور وجيزة من معرفتي بالسر، كنت قد ابتكرت أشياء مهمة في المحل.. كانت داعما جيدا للتسويق وزيادة إقبال الزبائن.. لم يكن عمي ليهتم بأمور كالدعاية والإعلان، وهذا هو الجانب الذي عملت فيه.. اتفقت مع شركة محلية على شراء إعلانات مثبتة في الشوارع.. وبالفعل تم تركيبها في مناطق مهمة، واحدة كانت بالمطار، قريبا من مدخله الرئيسي، دفعنا بعض المال.. لكن العائد كان أفضل.. عمي لم يمانع في أفكاري رغم أنه لم يكن قد جرب ذلك من قبل. كان نتيجة ذلك أن زبائن جاؤوا من المطار مباشرة لمحلنا.. الذي خضع أيضا لتحسينات في الواجهة وركبنا مجسما كبيرا للشاورما في الساحة

الصغيرة التي أمامنا، كان يضيء في الليل ويظهر من بعيد متوهجا بالأنوار التي تثير الانتباه وتشد الجائعين لتفتح شهيتهم، فلا أحد يمر من هناك إلا ويتحسس بطنه كما سمعت بعضهم يقول ذلك.

هذه اللافتات والابتكارات كما أسميتها.. برغم أنها فتحت أبواب الرزق لمزيد من الرخاء وفي زمن وجيز، الأمر الذي عزز ثقة عمي في قدراتي وربما إحساسه بأن قراره الذي لم يخبرني به كان موفقا.. إلا أنها جرّت علينا بعض المصائب المؤقتة.. والإنسان عموما يتعلم من تجاربه ويحاول أن يحوّل كل مشكلة أو تحدٍ إلى شيء إيجابي بدلا من البكاء والحسرة.. وهذا ما حدث تقريبا.. فخلال أيام من توسع العمل والإقبال بشكل واضح، بدأت وجوه غريبة تدخل عندنا.. كان رجل يأتي بسيارة صغيرة يوقفها ليس بعيدا يحمل دفترا كبيرا.. يطلب ساندويتشا يأكله على عجل، ثم يتأمل وجوه الزبائن يعدهم، يسجل رقما على دفتره بقلم كبير الحجم من النوع الشيني.. ثم يذهب بعد أن يسدد الحساب.. بعد يومين صار الرجل رجلين ثم ثلاثة.. ثم جاء يوم دخل معهم رجل طويل جدا.. وكان يحمل معه دفترا أكبر.. ووقف بجوار عمي يتكلم معه، لم أتبين من بعيد بماذا يتكلم، ومن ثم كان الانزعاج قد بدا على وجه عمي.. وهو يقول بصوت واضح:

"لم يحدث ذلك من قبل.. ما الجديد؟"

كان الرجل الطويل جدا قد اشتاط غضبا وهو يتكلم بأسلوب غير محبب، في حين تحول المشهد لفرجة بالنسبة للزبائن الذين تركوا الأكل، في حين أهملت أنا جزّ اللحم من أمام النار، لأراقب الموقف الذي تطور لمعركة كلامية من طرف واحد، فأنا أعرف أخلاق عمي وصبره على الأذى. كانت نعوت بذيئة قد وجهت لعمي، مثل: أجنبي حمار.. سارق.. تركي ابن... وغيرها، ولم أحتمل سماع ذلك ولا رؤية الضيق على عمي الذي كان صامتا. كنت قد فهمت مقصدهم تماما، إنهم يحاولون القول بأن المحل يفتقد لإجراءات قانونية، رغم علمي التام بأن كل شيء هنا يتم بشكل سليم ويراعي المسائل التنظيمية واللوائح والشروط الصحية، فعمي لم يكن يغفل أمرا، وكان يجدد الترخيص سنويا وقبل ذلك بأسابيع يُكون قد جهز المحل بديكور جديد، وأعد ترتيب أمور الأثاث والنظافة والخدمة، وكنت أشرف على ذلك بنفسي وأتأكد منه تماما مع عمي. إذن ثمة ما هو غير واضح أو ملتبس أو مقصود في هذا التدخل الشائن.

وقبل أن أتدخل، حيث غضبت كثيرا.. كان أحد الزبائن الذين أراهم يأتون من مرة لأخرى بهندامه المميز، ويبدو عليه رجلا محترما.. إن لم يكن العكس صحيحا.. غير أن خبرتي بهذه الأمور أصبحت جيدة في السنين الأخيرة.. لم أعد أخدع من الوهلة الأولى وباتت لي حصافة في فهم الوجوه والناس من هيئتهم العامة.. كان هذا الزبون قد تدخل بإشارة من إصبعه باتجاه الرجل الطويل جدا، بأن يأتي جانبا.. في البداية لم يهتم الطويل أو كان يتمادى.. مع همس الرجال الآخرين في أذنه، كان قد انتحى باتجاه الرجل المحترم. وهو يستمع له بأدب. قام الرجال بلملمة سوء أدبهم إثر ذلك وغادروا ولم نعد نراهم، بعدها.

عاد الزبائن إلى مواقعهم يواصلون الأكل، في حين تكلم الرجل المحترم المهندم مع عمي قبل أن يغادر هو الآخر:

"ليس صحيحا ما يدعون إن القانون قد تغير.. وأن الأجنبي لا يمكن فتح محل باسمه"

صمت الرجل قليلا وأضاف:

"أنا أعرف ما الذي يتقصدونه بالضبط.. دعني اعتذر لك سيدي عما حدث"

لم يكن عمي يعرف الرجل، من يكون، وأنا طبعا لا أعرفه. وانصرف عنا دون أن نتأكد من هو؟ وقال لي عمي لاحقا إنه خجل أن يسأله من يكون فالرجل لم يعرف بنفسه وليس جيدا أن تسأل.. ولاحظنا أن بعض من الزبائن كانوا ينظرون إلى الرجل وما قام به باستغراب شديد.. لكن لا أحد قال بأنه يعرف من يكون.

مثل هذه الحادثة ذكرتني بذلك اليوم الذي جاء فيه صاحبي العجوز وأخرجني من السجن، أو المعتقل.. وهو اللغز الذي لم يكن لي من حل له إلى هذه اللحظة.. كانت أمور كهذه تحدث معي طوال حياتي.. وأفكر فيها لبعض الوقت وفي النهاية أنساها أو أتناساها.. لأن الحياة وكالعادة تندفع نحو وقائع جديدة يكون على المرء أمامها ولازما عليه أن يغير اتجاه التركيز نحو أمر مختلف. المعني أننا قد نفهم وقد لا.. إلى أن نلقى الله قد نتفهم كيف تشكلت بعض تفاصيل وجودنا، في حين تظل ثمة غوامض كثيرة غير غبر قابلة للتفسير البتة. لكن بالنسبة لهذه الحادثة فالسر انكشف بعد أيام قليلة.. لم يتأخر كثيرا..

كان نهار آخر قد جاء، وكنت بكامل أبهتي كما عمي، نستعد لتصوير واجهة المحل من قبل مصور محترف عثرنا عليه بواسطة أحد الزبائن، قال إنه مثال للإخلاص في عمله والدقة في الأداء والنتائج الباهرة، كذلك الأجر المعقول، وهو أمر نادر الحدوث في هذا البلد. فهناك الكثير من الأدعياء. المهم أن الرجل جاء يحمل الكاميرا وثبتها عند ناصية تبدو بعيدة في الشارع الأمامي. وشرح لي حيث كنت أرافقه قائلا:

"التصوير فن يا ابني.. لابد من تحديد الزاوية بدقة"

كان يبدو عليه الشباب رغم أن الشيخوخة بدأت تدب فيه بوضوح.. كان يلبس جاكيت مفتوح الأزرار ويضع على الجيب الكبير في اليمين معدات لا أفهم ما هي بالضبط، عرفت واحدة إنها عدسة مكبرة يمسك بها وراء الكاميرا، ومن ثم يلقي نظرة باتجاه المنظر الخارجي ويعود لتكرار ما يقوم به مرارا، ويسرع مرة أخرى لتحريك حامل الكاميرا.. لمكان آخر..

قبل أن ينتهي من عمله، وبعد أن التقط عشرات الصور التي سوف يتم الاختيار منها بعد تحميضها لكي توضع ضمن الإعلان الصحفي الذي سوف ينشر للمحل، في واحدة من خططي وأفكاري الترويجية التي نالت رضا عمي. كانت قد تقدمت نحونا سيدة نزلت من سيارة ذات دفع رباعي، يقودها سائق أصلع. كانت بثوب أبيض شفاف يكاد يكشف تفاصيل جسدها، لا تبالي بمن حولها. وتوقفت أمام المحل، ألقت نظرة إلى اللافتة قبل أن تسألني:

"أين السيد التركي؟"

أجبتها مشيرا لعمي:

"إنه هناك بالداخل"

بخفة لا تعكس قوامها الممتلئ قليلا في قامة متوسطة، كانت قد دلفت لداخل المحل، وتحدثت مع عمي. لم أتلصص وبقيت بعيدا كعادتي. إلى أن انصرفت، ناداني عمي وقال لي وهو ينظر إلى وجهي ليتعرف على ردة فعلي:

"هي زوجة أحد السياسيين الكبار وقد جاءت لتعرض شراء المحل وبثمن كبير جدا.. ما رأيك؟"

"شراء..."

"نعم هي ترغب في ذلك.. وتريدك أن تبقى معها.. لأنك تجيد الصنعة.. لديها معلومات كافية عمّا يجري هنا"

"وهل تعرف من هو ذلك السياسي الذي هي زوجته؟"

"لا أعرفه شخصيا.. فقط أعرف إنها زوجته.. وهي صديقة لعمتك"

طبعا ما كان عمي ليرضى أن يبيع المحل وحصاد عمره، خاصة بعد أن بدأت الثمرة تؤتي أكلها بعد رحلة طويلة من الصبر.. وأنا الآخر لست مالكا ولن أرضى بالبيع، لا يتعلق الأمر بكوني سوف أرث جزءا من الثروة كما تقول عمتي.. كنت أفكر في أن هذا المكان أصبح جزءا من عالمي بما فيه عمي.. حتى لو اشتراه شخص آخر فلن استطيع أن أكون حرا في العمل معه كما أتمتع بالحرية الكاملة حاليا، كما أن الفكرة الرئيسية التي تشغلني أن هذا ميراث عائلتي الذي لن أسمح بتبديده أبدا. وبقدر ما كنت متشوقا لمعرفة من يكون هذا السياسي الذي يريد شراء المحل وما هي دوافعه وراء ذلك، فقد كنت مشغولا بكيفية منع حدوث أي فكرة مضادة لما ينبغي أن يحدث.. أي منع البيع.

كانت السيدة زوجة السياسي قد اتفقت مع عمي على أن تعود في المساء المتأخر، يعني ما يقارب منتصف الليل لكي تعرف رأيه، كانت في غاية الاستعجال كما زعمت له. كان الموعد بالبيت، وكنا في الانتظار وكان عمي قد اتخذ القرار.. لا وألف لا.. لكن بطريقة لطيفة طبعا، كما قال عمي:

"هؤلاء المتنفذون يجب عدم معاندتهم بشكل واضح.. إنهم يبدون شراسة ساعة يرغبون في شيء ما"

وصلت السيدة وقامت عمتي بالترحيب بها، كانت تعرفها جيدا، قبّلت كل منهما الأخرى في خدها. جلستا تتسامران وتحتسيان القهوة التركية، كان الوقت متأخرا.. لكن عادة هذه الأسر المتنفذة أنها تحب السهر، أعلم ذلك منذ سنوات منزل خالي. إنهم يدمنون عشق الليل.. وانتهت السهرة بأن سمعت السيدة الإجابة.. لا.. سمعتها من عمتي.. وبشكل بارع.. قالت لها:

"لا أحد يرضى أن يقطع يده ويقدمها لإنسان آخر"

تغيرت ملامح زوجة السياسي، هي لم تغضب.. أو حاولت أن تبدو متماسكة.. أعرفهم جيدا.. يبدون الصمت والاتزان ويتحولون بعدها إلى كائنات أخرى تلتهم كل ما يقف في طريقها.. الواقع أنني كنت خائفا من الغد. ماذا سيحدث.. كان عمي هو الآخر غير مستقر من الناحية النفسية.. وبقينا وقتا طويلا إلى قريب الفجر، لم يكن أحدنا يكلم الآخر إلا قليلا.. كنت أفكر في مستقبلي.. فبعد أن قطعت خطوات جيدة بشأن حياة أفضل هاهي كارثة في الطريق.. ليس بإمكاني الثقة بأي كائن آخر.. عمي كان أيضا قلقا، لم أره يعاني مثل هذه الحالة من قبل، قال لي بعد سكوت طويل:

"هذا البلد ينحدر نحو الحضيض يا ولدي.. لا أظن أنني سوف أبقى طويلا لو استمر الحال هكذا.. سوف نعود إلى تركيا وستعود معنا"

كان يعني أشياء كثيرة تغيرت منذ عقدين من الزمان تقريبا.. ففي السنوات الأخيرة بالنسبة لعمي طغت طبقة من التجار على الأحوال.. هم في الأساس سياسيون بوجوه تجار.. سياسيون فشلوا في أن ينقذوا البلاد من المآسي المستمرة والحرب الجارفة في الجنوب والمجاعات في الغرب والشرق، فآثروا أن ينجحوا على صعيد هواهم الشخصي.. هم وعوائلهم، ربما كانت تلك أفكارهم المضمرة منذ الوهلة الأولى.. كان عمي مستاء مما يحدث.. لم أره في الماضي يهتم بالسياسة أو الحديث عنها.. كان مشغولا فقط بالعمل لا شيء آخر..

"لكن النهر الجارف قد وصل بيتنا ماذا سنفعل؟"

استطرد قائلا، وهو ينظر إلى السماء المظلمة، حيث لا بدر، كانت أضواء المدينة تتراخى في هذا الفجر كأنها كسولة أو ميتة.. ولكأن أمرا غريب يحاك في ردهات الغيب الملغز. قال لي عمي مرة أخرى:

"استطيع أن أتخيل ماذا سيفعلون.. لقد بدؤوا المسرحية ولن يرتاحوا حتى يكملوها إلى النهاية.. ما أن يرون عملا ناجحا حتى يرغبون في السيطرة عليه ليصبح ملكهم وحدهم"

شعرت بنوع من التحدي القوي.. أنني يجب أن أقود هذه المعركة الفاصلة وانتصر فيها.. لا أدري كيف ولا امتلك الثقافة ولا الأدوات الكاملة للقيام بذلك الدور الصعب.. غير أني أعرف نفسي ما أن أنوي على شيء حتى أسير فيه وأكون مقتنعا بالنتيجة أنني سوف أحقق الانتصار حتما.. قلت لعمي قبل أن أذهب لصلاة الفجر في المسجد:

"هل تمنحني ثقتك لكي أحل هذا الأمر؟"

ألقى نظرة حنونة نحوي.. كان يحبني جدا.. أنا متأكد من ذلك.. وكان يثق في كثيرا.. منحني فرصا لم يقدمها لي كائن آخر في حياتي.. لم ينطق بكلمة.. ورأيت في ملامح وجهه التي بدت تكتسي بالإشارات الزاهية أنني موثوق بي ولي حق التصرف.

كانت عمتي هي الأخرى قلقة.. أخبرتنا أن هذه السيدة زوجة السياسي.. ماكرة وغريبة الأطوار.. صحيح أنها صديقتها لكنها لا تثق فيها.. كررت القول:

"لا يمكن الثقة في أهل السياسة إنهم يتلونون بأكثر من وجه"

أضافت:

"أعرفها منذ وقت طويل تطمع في كل ما تراه يلمع ذهبا في أيدي الآخرين"

كنا جالسين أنا وعمي وعمتي نحاول أن نفكك الأمر بإيجاد مخرج، وقد تأخرنا عن العمل في ذلك اليوم.. إذن فقد بدأ الارتباك مبكرا.. كان عمي قد نظر إلى عمتي قائلا وهو يشير لي:

"أتركي الأمر للبطل المنقذ.. لا تخافي"

ابتسمت عمتي.. هي تثق في.. أما في هذا الأمر فالمسألة تبدو مستحيلة كما تشير طريقتها غير المرحبة بشكل واضح، فهي تعرف من تكون تلك المرأة أكثر منا.. ولم تتكلم.. وقمنا باتجاه العمل، في حين بقيت هي في مكانها تحت ظل إحدى حوائط البيت، تمارس إحدى هواياتها التي نستها منذ سنين أن ترقع بعض الملابس القديمة.. لا لحاجة تستدعي ذلك، إنما لتزجية الوقت وقتل القلق الذي يسكنها.

في المحل، كنت أركز في عملي وبالي في مساحة أخرى، أنني قدمت وعدا ويجب أن أفي به، لابد من حل ينهي هذه الأزمة.. ولابد أن يكون هذا الحل نهائيا بحيث لا يسمح مداهن آخر لنفسه بالتدخل من جديد.. فإذا قطع دابر هذه المرأة وزوجها فقد يطل آخرون.. ووردت لذهني فكرة دون أن أتأكد هل ستنجح أم لا، وكما يقال التجريب هو الذي يوضح النتائج.. وفي منتصف النهار استأذنت من عمي بأنني أريد أن أبدأ مهمتي.. لم يسألني عن خطتي.. فقط سمح لي.. وباشر هو العمل بنفسه، الأمر الذي نادرا ما يفعله في وجودي، حيث يشرف على الحسابات أو يرحب بالزبائن ويطيب خواطرهم.

ذهبت إلى البيت استحممت ولبست بذلة زاهية زرقاء وتعطرت.. ومن ثم اتجهت تماما إلى مبنى البنك الكبير.. إلى حيث خالي.. وأنا أخبر نفسي بأنه قد يطردني أو يفعل أي ردة فعل غير موفقة.. خاصة بعد موقفي معه ليلة ذاك الحفل.. وأني لم أبدِ اهتماما به بل أني مثلت أني لا أعرفه.. لكن لا علي فقط يجب أن أجرب هذه هي الخطوة الأولى.. وكان شعوري الداخلي بأنه سوف يقوم بشيء إيجابي لصالحي.. أنا متأكد من صفاء ضميره وقلبه، لولا تلك الزوجة العجيبة.. هؤلاء السياسيون تخربهم نساؤهم في أغلب الأحيان ربما هذا الأمر صحيح إلى حد كبير.. لن أشغل نفسي بالعثور على إجابة لسؤالي.

ووصلت غايتي.. كان الشاب الحارس يقف في مكانه، ذلك الذي نبذني ذات يوم ثم صار صديقي.. عرفني ورحب بي.. يبدو أنهم لا يعرفون أنني هربت عن بيت خالي.. وحتى لو كان يعرف لا يستطيع أن يفعل غير الترحيب بي.. أنا أفهم هذه النوعية من البشر، إنهم مسكنون بالخوف والطاعة العمياء والتجبر أمام الضعفاء.. ودخلت إلى مكتب خالي.. كانت بذلتي الزاهية

وحدها مع حذائي اللامع، كفيلة بأن تغدق التحيات باتجاهي.. إنهم أيضا يعشقون أصحاب الملابس الراقية.. وفتح لي مدير المكتب الباب، ودلفت إليه.. كان جالسا يدخن غليونه كالعادة.. بجواره رجل أظنه ذلك الوزير الذي يظهر كثيرا في التلفزيون والصحف، هنا يبدو أكثر نحافة.. وهناك سيدة عرفتها إنها تلك التي رأيتها في ليل اعتقالي وهي تتجول في ساحة المعتقل.. تلك التي كانت تلتصق بخالي في ذلك الحفل بمنزله.

وقف خالي، سلم علي بترحاب شديد.. وهو يحتضنني.. حتى شككت إن كان ذلك الموقف يومها في العرس قد حدث أم لا.. وعلى إثر ما فعل.. كنت قد وجدت ترحيبا من السيد الوزير وتلك السيدة.. خاصة بعد أن تم تقديمي لهما:

"إنه ابن أختي.. هو رجل أعمال كبير"

شعرت بفخر مبطن حتى لو أن مصدره كاذب.. أنني صرت بعرف خالي رجل أعمال.. إذن هو يعرف أين أنا.. هذا البلد ليس فيه أسرار.. وجلست على المقعد البعيد في الأرائك الصوفية.. تحرك خالي من مكتبه وجلس بجواري.. قال لي هامسا:

"أمك تسأل عنك.. قبل أيام كانت هنا.. لكنني لم أخبرها بمكانك"

صمت قليلا، وقال:

"طمأنتها أنه ليس بعيدا.. وسيعود إليك بالمال الوفير.. إنه في أحسن وضع"

شعرت بوخز في قلبي لذكر أمي وأنني على الأقل لا أساعدها بشيء ولو قليل.. ومن ثم تمالكت نفسي.. لم أرد، قلت له مباشرة:

"أتيت إليك لخدمة إن كنت ستساعدني"

عدل وضعية جلوسه بشكل يدل على الاهتمام.. قال لي:

"سمعا وطاعة.. أعرف أنك أتيت لخدمة"

وجذب نفثا من الدخان وعيناه تبديان اهتماما كبيرا. كان يتكلم غير مبال بالحضور.. وكان حوارنا مسموعا بالنسبة لهما.. أضاف:

"ساعة يتعلق الأمر بخدمة ما وبرجل أعمال لابد من الثمن.. في الماضي لم تكن تملك شيئا يا ولد.."

وقهقه بصوت عال.. لم أره يتصرف بهذه الطريقة من قبل.. بدا لي وجها آخر غير ذلك الخال الذليل والخنوع.. والطيب والمسالم.. كانت السيدة هي الأخرى تضحك بطريقة غير محبذة وقد وقع ثوبها عن شعرها فيما ظهر أعلى نهديها، كانت ترتدي فستانا قصيرا وضيقا للغاية.. السيد الوزير لم يبد أي تعبير معين، كما لو أنه صنم في المكان.

لا أنكر أنني شعرت بالضيق، ولم أفهم طبيعة ما يجري.. هل هي سخرية مني أم إشادة مغلفة أم.. ماذا؟.. وتوقفت عن التفكير بسماع خالي يخبرني بلهجة حازمة:

"ماذا تريد بالضبط؟"

أخبرته بما حدث.. سمعني باهتمام شديد.. نظر باتجاه الوزير يسأله:

"هل سمعت لهذه القصة؟"

الوزير أجاب وهو يمسح نظارته السوداء الداكنة بطرف قميصه المندلق دون حشو في البنطلون، تكلم دون أن يلتفت نحونا:

"هذه السيدة تريد أن تدخل في مساحات ليست ملكها.. إنها تدفع بهذا الرجل إلى الجحيم"

نظر باتجاه المرأة الجالسة بينهم، كأنما يطلب منها القيام بشيء معين، فهمت لغة العينين، ردت باقتضاب:

"سوف أؤدبها.. هل هذا هو المطلوب؟"

رد خالي:

"فقط أخبريها أن تتوقف عن اللعب مع الكبار"

تلقت المرأة التعليمات.. في حين نظر خالي نحوي قائلا:

"هل لديك أي خدمات أخرى أيها الرأسمالي الصغير"

شعرت بالسعادة أن مهمتي قد نجحت.. شكرته وأنا أودعه حيث سار بجواري إلى باب المكتب وفتحه بنفسه، يقول لي:

"لا تنسى أمك.. مع السلامة"

قال ذلك ليوخز ضميري من جديد.. كانت رسالة لي بأن أفعل شيئا لأجلها.. أن أرسل لها مالا على الأقل غير أن ذلك الوحش سوف يبتلعه لن يتركه لها.. أعرفه جيدا. وتناسيت الأمر كعادتي أغفل ما أرغب في تناسيه.. ووصلت إلى المحل، كان عمي مرهقا يتعرق، فمنذ وقت طويل لم يتولى العمل بنفسه. أسرع لاحتضاني فقد قرأ من ملامحي وأنا أنزل من سيارة الأجرة مسرعا نحوه، أنني قد توصلت لحل.. قلت له:

"لقد انتهت المشكلة"

رد علي:

"ذهبت إلى خالك قطعا"

لم يكن الأمر يحتاج لكثير تفكير.. ما يتطلب ذلك هو هل سأكون جريئا وأذهب إليه أم لا.. وقد فعلتها.. وفي المساء كانت عمتي مبتهجة للخبر، وما إن مضى قليل من الليل، حتى وصلت السيدة زوجة السياسي، لتخبرنا أنها تراجعت عن الأمر، وطبعا لم تحك لعمتي باقي القصة.. لكن عمي لم يكن مرتاحا أيضا.. فبعد فرحه بالنهار عاد قلقا بالليل، لاحظت عليه ذلك، وسألته فأخبرني:

"هؤلاء لا يقدمون الخدمات مجانا.. يجب أن نعرف ما هو الثمن؟".

صمت واستطرد:

"إن كان خالك قد انتصر لك أو لنا.. فلا يمكن أن يهزم أحباءه ورفاقه السياسيين إلا لسبب معين"

شرحت لعمي نقطة ربما لم أوضحها له بشكل جيد.. لأنني لم أحك كل التفاصيل تقريبا:

"الأمر يتعلق بتصفية حسابات فيما بينهم"

"أعرف ذلك يا ولدي.. لدي الخبرة الكافية في الحياة لفهم ذلك.. ما أعنيه أن خالك لابد أنه يفكر في أمر ما"

استغرقت أفكر دون أن أصل لفكرة معينة، قال لي عمي:

"لا تشغل بالك بالأمر ما دامت المشكلة قد حلت.. لنعش بشكل اعتيادي إلى أن يحدث العكس"

أشار لي بأن ننام مبكرا لأننا سوف نذهب في الفجر قبل العمل إلى مكان مهم.. لم يدر بذهني أي مكان محدد إلى أن جاء الغد، فأخذنا سيارة أجرة وكنا في طريقنا إلى السجن المركزي الكبير الواقع أسفل الجسر الذي صبوا فيه الإيطالي.. فقد اكتمل منذ سنوات خلت.. كانت بوابة السجن كبيرة يقف أعلاها على الجانبين صندوقان من الخرسانة المسلحة بداخلهما جنديان يحملان بنادقهما، يصوبانها نحو فراغ مجهول. لأول مرة أدخل هذا السجن، فدخولي السجن في تلك المرة لم يكن هنا. في موقع آخر، فهذا مخصص للسياسيين وكبار التجار وأصحاب الشيكات المرتدة والمحكوم عليهم بسنوات سجن طويلة أو مؤبد ومن ينتظرون حكم الإعدام.

دخلنا إلى صالة استقبال وسخة ومتهالكة، بعد قليل كان قد وصل البدين.. أصبح مترهلا ضعيف البنية، يبدو عليه أثر السنوات الماضية من التعب والأوجاع المتراكمة، واستطالت لحيته جدا.. لم تكن له لحية من قبل.. كان يلبس ملابس السجن البيضاء.. احتضننا بقوة وهو يغرق ثيابنا بالدموع.. وهو يواصل الاحتضان كلما فكنا.. قال إنه نادم على أشياء كثيرة في الحياة، وإنه تاب إلى الله وحفظ القرآن في السجن فلا يوجد لديه شاغل هنا سوى الاستعداد للدار الآخرة.. بل أصبح إماما للمصلين بالسجن، بما فيهم قادة سياسيين يأتون بهم بعض المرات في المعتقل، قال لنا وهو ينظر نحو الأرض:

"العمر يمضي بسرعة ليكتشف الإنسان أنه ضيعه في عمل غير صالح"

ربت على كتفي ورأسي وقال يوصيني:

"أنت في أيد أمينة.. فأحرص على أن تطيع عمك وعمتك واشكر الله على النعم.. ولا تنسى أن تزور والديك في البلدة فمهما يكن فبرهما واجب"

لم يستمر بقاؤنا معه.. فقد انتهت الزيارة.. وفي الطريق كان عمي متأثرا بما رأى.. أنا لم أحدد طبيعة مشاعري.. قد أكون حزنت لما رأيت.. لكن هذه طبيعة الحياة.. كنت أقول لنفسي دون أن أكون قادرا على مقاومة مشاعري السلبية في تفاعلي الضعيف مع بعض الوقائع والأحداث التي أمر بها، حتى أنني كنت أتذكر أحيانا ما قاله ذلك المحلل النفساني الذي سجل خواطره عني ذات

يوم في الشارع، ووصفني بأنني مصاب بمرض نفسي مستعص. ربما يكون الأمر كذلك فأنا لم أذهب لطبيب بهذا الشأن. إذا كان البدين قد استرق حواسي فإنني سرعان ما سأنسى حتى ما قاله عن والديّ، فقد يكون كلامه مؤثرا في البداية لكنه لن يظل يهيمن على دماغي. كان عمي يعرف هذه النقطة فيّ، ولا أدري إن كان يصنفها ضعفا أم قوة.

ونحن في الطريق إلى المحل، سألته:

"من أين جاءتك فكرة الزيارة؟"

رد وهو يغطي وجهه قليلا من الغبار الكثيف العالق في السماء والذي بدأ فورانه بالأرض فهذا الشهر والذي يليه يعرفان بشهري الغبار، حيث كل شيء يغتسل بالتراب السماوي:

"منذ وقت طويل كنت أفكر في ذلك.. لكنه تأخر.. لا أعرف ما هو الدافع الحقيقي لأن نذهب اليوم.. المهم أن هذا حصل"

لم نناقش بعدها موضوع البدين ولم نتطرق للسجن، واستمرت الحياة معنا كالمعتاد في العمل حيث جل الوقت ومن ثم البيت. أحيانا أفكر في الذهاب ولو ليوم واحد لزيارة عائلتي في البلدة لكنني أتغاضى أو أنسى أو أتناسى.. يصعب علي التحديد.. فقد كانت شخصيتي تتشكل بهيئة قد أكون أنا صانعها، وقد أكون لا.. ليس من مفر سوى أن يستمر الإنسان في مطاوعة قدره.. كذلك أن أرسل لأمي مبلغا من المال، أيضا لم يحدث.. ليس لأنني أقدر المال كثيرا أو أنني أعاني ضيقا فيه.. أو أنني بخيل.. أبدا.. بل لأن نفسي كانت تقول لي يجب أن يتأخر ذلك إلى الوقت المناسب. ومضت سنوات أخرى كثيرة قبل أن يأتي الوقت المناسب.

6

لربما كان حدس عمي موفقا في اختيار توقيت زيارة البدين، الذي لم يعد كذلك. فخلال أقل من شهرين من تلك الزيارة حدثت تطورات في البلد.. عجلت بأشياء كثيرة لم تكن لتخطر على البال.. عصفت بالكثير من الأحلام والناس والتجار.. كان رئيس البلاد قد سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بهدف العلاج من مرض غامض لم تفصح السلطات عنه. الرئيس الذي كنت قد وقفت أمامه ذات يوم بالكنيسة وأنا أحمل أكليل الورد، والذي كان مثل فرس حديدي لا يتخيل المرء أنه سوف يقع فريسة الوهن. يقولون إن وضعه تدهور ويصعب إنقاذه. لم تكن الإذاعة التي تنبعث من الراديو الكبير في المحل تفيد بشيء جديد، ولم تتطرق إلى صحة الرئيس ولا الأنباء الحقيقية التي كان الناس يتناقلونها في الشارع، كانوا يرسلون التهاني بمناسبات غير مفهومة وخطب مدبجة منذ سنوات خلت، كان الجميع يعرفون أن ثمة خديعة تمارس. وكان الشارع يفور بشكل عجيب. خلال يومين تحولت المدينة الكبيرة إلى صراخ جماعي. تعطلت شبكة المواصلات والهواتف الثابتة وأضرب الأطباء والسائقون والخبازون والصيادلة.. كان المرضى والحوامل يموتون فلا يجدون من يهتم بهم. كانت تلك خطيئة بنظري. وخلال أيام انتهى كل شيء بأن خرج ضابط هزيل الجسد من الجيش ليعلن النهاية في التلفزيون والإذاعة المحليين، أنه استولى على السلطة في البلاد، يحدث هذا تقريبا في بلادنا وبشكل دوري منذ الاستقلال وخروج الإنجليز.

سمعنا بأنباء السجن الكبير وأن الجميع فروا ليلة الانقلاب، قد تكون السلطات الجديدة وراء ذلك، وربما هي الحرية التي كان المسجونون ينتظرونها قد وجدوا الوقت المناسب لكي يصنعوها وبكل امتنان للقدر. وفي الصباح الباكر، كان البدين يطرق باب البيت استقبله عمي، بترحاب، كان قد جاء لكي يودعنا وداعا نهائيا كما قال. لم يفصح عن وجهته القادمة. تحدث أنه لا يثق في المقبل وعليه أن ينصرف بسرعة، فقط جاء لكي يقول لنا وداعا. واحتضناه بقوة ومضى في سبيله. عمتي هي الأخرى كانت حزينة وتمنت لو أنه بقي للعمل في المحل لكن عمي أوضح لها:

"في الأمر مخاطرة فلديه سنوات كثيرة متبقية في الحبس.. ربما يقبضون عليه مرة أخرى لو أنه بقي هنا"

كنت أتخيل يوم حكم عليه أنه سيغادر وقد اقترب عمره من الثمانين.. وسأكون أنا قريبا من الأربعين.. ولكن.. جاءت هذه اللحظات العجيبة لتغير اتجاه الريح.. وتعكس أمورا كثيرة... فالكثيرون من رجالات العهد القديم والسياسيين فقدوا مراكزهم وكان خالي أولهم، كنا نسمع للتعيينات الجديدة في المذياع، ولم يعد اسم خالي واردا.. لا أعلم كيف سيكون وضعه الآن، هل سيكون راضيا؟ قطعا لا!.. ربما سيكون بإمكانه التماسك، أعرف طبعه.. أما المصيبة الأكبر فستحل بالسيدة زوجته، إذ كيف ستحتمل الحياة وقد فقد السيد الكبير وضعه الاجتماعي ومركزه المالي.. وقلت لعمي ضاحكا:

"هاهو قد ذهب دون أن يقبض الثمن"

نظر إلي عمي ما يوحي أنه لم يرض عن طريقتي في التعليق على الأحوال. قال لي:

"علينا أن نتعلم عدم السخرية من الآخرين.. فالمصائب في العالم يتم تدويرها بين البشر"

شعرت بالخوف.. وتذكرت أنني في الماضي القريب لم أكن سعيدا بما يكفي.. بل لم أكن سعيدا أصلا.. يجب أن أركز في أموري الخاصة وألا أضيع الوقت بالتفكير في الناس ماذا فعلوا وماذا سيفعلون، فهذه حيل الضعفاء والفاشلين كما نبهني عمي.

في السنوات القليلة التي تلت الانقلاب على الرئيس، عاشت البلاد فترة من الترقب كان كلنا جزءا منها، مهما يظن الإنسان أنه معزول عن الإطار العام والسياسة والحكومة فهي تؤثر فيه، ولاحظنا ذلك بشكل مباشر في عملنا الذي بدأ يشهد تذبذبا بعد الانتعاش الذي عشناه في السنوات الماضية.. تراجع الزبائن لأسباب بدت مجهولة في البداية، ثم اكتشفنا أن معظم الذين كانوا يأتون عندنا سافروا وعوائلهم خارج الوطن، بعضهم كان قد نفذ بجلده من المحاكمات التي أعلن عنها من قبل السلطة الجديدة ضد كل من تم تعريفهم برموز الفترة السابقة، كانت بعض المحاكمات تتم غيابيا وتصدر أحكامٌ بالإعدام وبالجملة دون أن تنفذ لأن المتهم غير موجود، لم يستطيعوا الوصول إليه. وكان آخرون قد هاجروا لأنهم فقدوا مراكزهم وآثروا لملمة ما بقي من أموالهم في بنوك بالخارج، وزحفوا باتجاه استراليا وأمريكا بحثا عن ملاذات لهم ولأبنائهم.. كان يأتي زبون ويودعنا وآخر.. وكان عمي يواجه الملمات بالصبر.. فالعهد الجديد كان كارثة بل انتقام رباني حقيقي كنا من ضحاياه. وتذكرت نصيحة عمي بشأن خالي، فهاهي المصيبة تشملنا نحن أيضا.

الضرر وصل أيضا لأصدقائي القدامى في الشارع.. فخلال أيام تم جمعهم من مواقعهم المتعددة وإلى أين تم أخذهم؟.. لا أحد يعلم.. وبدأ الوضع الجديد أكثر بشاعة، ولكن يقال رب ضارة نافعة.. وهذا ما عكس اتجاه الريح من جديد.. لأنه بمضي عدة أشهر بدأ السوق ينتعش مرة ثانية فقد أنبتت الأجواء سياسيين جددا وتجاراً آخرين يلبسون أحذية أفرنجية أكثر لمعانا ويتحدثون الإنجليزية بلكنة أمريكية. كانت الأحاديث تدور حول عودة بعض أبناء الساسة مقابل مقايضات مع النظام الجديد، بدلا من أن يأتي السياسي القديم عائدا للوطن، كان يرسل ابنه للمشاركة في الحكومة، وبالتالي ضمان حق "العيش الكريم" للجماعات نفسها، ومنهم كان خالي، فقد وصلتني أخباره من الزبائن أنه بعد أن هاجر إلى مصر في طريقه لدول غربية، عادت ابنته لتتولى منصبا كبيرا في إحدى الوزارات كمقدمة لعودة الأسرة كلها.. إذن السيدة الكبيرة لن يطول حزنها.. ربما لن يكون الوضع كسابق عهده تماما.. كنت أقول لنفسي ذلك، ولم أخبر عمي بمثل هذه الأفكار العابرة لأنه لا يطيق مثل هذا النوع من التفكير في شؤون تخص الآخرين وغير مجدية للإنسان.

انتهى صبرنا بأن بدأ الحال يتحسن مجددا.. ليكون ممكنا لنا تعويض ما فات من خسائر.. فلو أن ذلك الانتعاش تأخر لربما كنا في السجن من الديون التي بدأت تتراكم علينا والتي يطالب بها المتعهدون من تجار الماشية والخضروات والتوابل.. وكان عمي قد توقف عن السفر في تلك الفترة، لأن الوضع المادي لا يسمح بذلك.. كما أن عمتي التي كانت قد بدأت تكره البلد الذي كانت تقول إنها أحبته أكثر من وطنها الأم. هاهي اليوم تستعيد نشاطها ورحلاتها المتكررة إلى الكوافير وبيوت التجميل، وتستعد لحضور بعض الأعراس دون أن أكون معها فالعمل لا يترك لي وقتا.

أسابيع قليلة وتدفق المال بأكثر من الفترة ما قبل الانتفاضة، فالزبائن الجدد كانوا شبابا عشقوا ما نقدمه وأحبوه، مزاجهم يقوم على عادات جديدة غير ما ألفه الآباء والأجداد من وجبات البلد في المطاعم التقليدية. بات سلوك الأكل الجماعي للساندويتشات لاسيما الشاورما ظاهرة تضاف للتحولات التي حدثت في العهد الجديد، وهذا انعكس علينا خيرا، ولذا تركني عمي لأيام وسافر ليرى ابنته فقد تأخر عنها بسبب ما مر بنا من أزمة كادت تعصف بعملنا، وبقيت وحدي أدير المحل. الإضافة التي حدثت أنني استعنت بعاملين من الشباب الأثيوبيين بعد جهد جهيد، بدأت تدريب أحدهما على تقطيع اللحم وتجهيزه بطريقة منظمة وإضافة البهارات والمتبلات والخلطات الضرورية، طبعا يستدعي التعلم الذي يخرج بالنتائج الباهرة وقتا، وهذا شأن كل أمور الحياة، لهذا يجب التدخل والمراقبة الجيدة حتى استطيع أن أتأكد أن العامل فهم كل الخطوات ونفذها بدقة وبمحبة فائقة. العامل الثاني كانت وظيفته تختص بالتنظيف المستمر للطاولات والمحل وخدمة الزبائن، في حين استلمت بنفسي المحاسبة، حتى خلال وجود عمي الذي تركته يرتاح بالجلوس على الكرسي ومراقبة الوضع واستقبال الزبائن من أحبائه. خاصة أن تقدم السن بدأ يؤثر عليه، فقبل سنة أو أكثر بقليل كان بإمكانه الوقوف لساعات طويلة، الآن يصعب عليه فعل ذلك، كان أيضا قادرا على القيام بأعمال شاقة في الغرفة الداخلية حيث تجري التحضيرات قبل توضيب اللحم الجاهز في ماكينة الشاورما الخارجية.

طوال غياب عمي، كنت أشعر بأن ثمة شيء ما ينقصني، رغم أن الانشغال مع العمل يجعل المرء ينسى كل شيء، حتى إحساسه بذاته. مرة وصف لي عمي العمل بأنه صلاة حقيقية ساعة يخلص له المرء يثاب عليه، وقال لي إن الرزق يتدفق من الإخلاص الحقيقي لما يقوم به الإنسان. كان ذلك صحيحا إلى مدى كبير من حيث انعكاسه الشخصي علي، فمتى ما أفرغ من ساعات طويلة من العمل في الليل، أتنفس بعمق وأقول الحمد لله، أكون وقتها قد شعرت بفرح غامر يعبئ مسامات جلدي وأرى نفسي كما لو أني أطير في اليقظة. أخبرت عمي بذلك فأشار لي بأن ذلك علامة على النجاح، فالمثابرة والتعب يأتيان في النهاية بثمرة لا يذوق طعمها إلا من يجرب الكد والاجتهاد.

كان العاملان يتعلمان مني ومن عمي.. وكانا يبديان محبة لنا، أرى فيهما إخلاصا أكثر من بني جلدتنا، لم يكن اختيارهما سهلا وهذا ما أكسبني خبرة أن على صاحب العمل أن يقضي

وقتا طويلا في انتظار العامل المُكِّد والمطيع والمبدع، وبعدها سوف يشعر بالرضا التام. هذا ما حدث معي. كان عمي قد كلفني بالمهمة ولم يتدخل.. استطيع أن أقول أن عملية الانتقاء استغرقت مني وقتا واختبارات مرهقة.. كانت القاعدة التي استندت عليها من ميراث عمي أن "الصانع الجيد يصنع العمل بقلبه لا بيده.. وكذا يؤديه بقلبه لا بيده".. كان علي إذن أن أنفذ إلى صدورهم لكي أحدد من هو الجيد للبداية معنا. اكتشفت خلال تلك الفترة أن أقراني من الشباب يبحثون عن العمل ولكن لا يرضون بأي شيء.. لا يؤمنون بأن الإنسان يمكن أن يبدأ بمساحة صغيرة ثم يتوسع مع الزمن.. يريدون للسماء أن تهطل مرة واحدة وتسكب كل مائها على الأرض، يريدون لقانون العاطفة أن يسود بديلا عن العقل.. كل ذلك ضد قانون الحياة.. كانوا قد اكتسبوا ذلك من نواميس الفوضى في البلد، فهم يرون هناك من يصعد لأعلى المراتب بين ليلة وضحاها بغض النظر عن مؤهلاته أو قدراته.. أيضا كان كثيرون يفتقدون لأمر هام هو الإرادة والعزيمة الكبيرة، ودون ذلك ليس أمام المرء من فرصة أبدا.. فالفرص كما تعلمت من عمي هي من ابتكار الإنسان نفسه، ليست الحياة تقوم على المصادفات إنما على الاجتهاد والمثابرة وبقوة. هناك نقطة أخيرة كان الذين تعرضوا للاختبار للعمل معنا يفشل فيها أغلبهم، تتعلق بالقدرة على التضحية ونسيان كل شيء سوى العمل.. أن تعمل لأجل العمل.. وليس لأجل أن تعيش حياة أخرى.

قبل عودة عمي وقد طال غيابه هذه المرة.. وذات ليل.. وأنا استعد لمغادرة المحل إلى البيت، لأن عمتي لن تنام قبل أن أصل حيث نتسامر سويا لبعض الوقت، كان قد أطل لي وجه بدا لي غير واضح من بعيد لأن نظارتي كنت قد خلعتها وأنا أغسل وجهي قبل أن أنشفه بمنديل ورقي.. يتشكل ذلك الكائن شيئا فشيئا مع عودة الرؤية لوضعها مع النظارة.. إنه ذلك الشاب قذر الطباع ابن الحارس العجوز في بيت خالي، لا يزال حليق شعر الرأس، ربما هو يبقيه هكذا دائما.. ولعله انتقص طولا.. أم أنه كان يلبس في الماضي أحذية عالية.. وقف أمامي بحذر وهو يستأذن بأدب أن يسلم عليّ.. مددت يدي وسلمت عليه، في انتظار أن يفصح عن مقصده، فهناك غاية قد جاء لأجلها.. لا يبدو عليه بأية حال أنه ذلك الذي كان أحد أسباب هجراني لبيت خالي.. أشرت له بأن يتفضل بالجلوس.. جلس، وأحضر له العامل الأثيوبي كوبا من الماء البارد، ارتوى به، وهو يتجشأ بشكل تلقائي.. لا يبدو أنه يتعمد ذلك. قال لي:

"أرجو أن تجد لي المعذرة أنني جئتك.. أعرف أنني كنت...

قاطعته فهو كان يتمتم لا يعرف ماذا يريد أن يقول بالضبط، كان يبدو أنه خائف مني أن أصده:

"أتفهم الوضع.. ماذا الذي تطلبه الآن؟"

رد علي ورأسه إلى أسفل:

"أبحث عن عمل.. ليس لدي مصدر رزق لي ولا لعائلتي.. خاصة أن أبي عاد للبلدة بعد أن هاجر خالك.."

"لكن الابنة عادت أليس كذلك.. لماذا لا تعمل معها؟"

"عذرا سيدي.. لا نستطيع أن نعمل إلا مع السيدة الكبيرة.."

تذكرت أفعاله في تلك الليلة ساعة قفز من النافذة.. رأيته عاريا أمامي في هذه اللحظة واحتقرته.. كدت أن أنفجر وأواجهه بحقيقته القبيحة التي يعرفها قبلي تماما.. وآثرت أن أتريث وألا أدخل في موضوعات أخرى.. فهو قد جاء لشأن محدد ويجب أن أخبره إما لا أو نعم.. هذا ما علمتني له الحياة هنا. الاختصار والتركيز في الأمر المعين. كان عمي يوصي بذلك في بداياتي.. لأنني في بعض المرات أثرثر أو أسأل أسئلة لا معنى لها.

كان ابن الحارس في انتظار إجابتي.. دون أن يكون قد أجاب على سؤالي عن عدم عمله مع السيدة الصغيرة.. تركته وشأنه أن يغفل الجواب أو ينسى لأنه كان مضطربا.. إنها تمثيلية لكي يصل لمقصده.. أعرف هذه النوعية السيئة من البشر.. ووجدت أنني أقف من على مقعدي ولم أتردد في أن أشير إليه بأصبعي وبصرامة وقوة في التعبير لم يتوقعها مني:

"لا يوجد عندنا عمل.. شكرا لثقتك"

ولكي أكون صادقا فليس بإمكاني تعيينه حتى لو أنه كان صاحب قدرات خارقة، فالمحل لا يتطلب عمال إضافيين.. كما أن قاعدتي باتت معروفة هي الكفاءة وهذا ما جعلني استبعد بعض الشباب الذين جاءت توصيات بوضع اعتبار لهم من قبل بعض الزبائن الكبار.. لم اهتم بذلك، وأكدت لعمي، وكان يعرف أنني لن أنظر إلى الأمور بأي نوع من العاطفة الجوفاء.. ولم أحفل بأن أشرح أو أبرر لابن الحارس، فلست في حاجة لذلك، أما هو فقد رفع رأسه بصعوبة، ومطّ شفتيه يتمتم بكلام غير مفهوم قبل أن يغادر باتجاه الباب الخارجي للمحل.. مرة أخرى تبادرت لي صور مشوشة لتلك الليلة الفضيحة، متداخلة مع موقفه معي يوم لوى ذراعي ورماني أرضا وسرق مالي وطردني من الغرفة.. نظرت إليه بقوة أظنه فهم معنى نظراتي أنني أخبره بأن من ينتصر هو الذي يحقق المكسب بعرق جبينه، وأن الذكاء الحقيقي في الدماغ وليس في قلة الأدب. لم أشعر بأي تعاطف نحوه.. كان رثّ الثياب كمن خرج من بالوعة.. صحيح أنني لم اشتم رائحة عفونة فيه، غير أن حاسة الشمّ عندي كان لها خيالها الذي تسرح به في اشتمام روائح لا وجود لها، يعتمد ذلك على المواقف والأشياء والناس.

لم تمض تلك الليلة على خير، كما درج القول. فهذا الصعلوك لن يترك الأمور تمضي هكذا.. لأن ردة فعله بمجرد أن وصل الباب الخارجي أن ضرب بعنف على الزجاج بقبضة يده.. مصدرا صوتا عنيفا ومهشما جزءا منه، في حين سال الدم من أصابعه.. وهو يلقي نظرات نحوي بطريقة متوحشة.. وصرخ بصوت عال.. يتأوه.. دلالة على غضب مدفون.. قبل أن يهتف بعنف:

"هل تظن نفسك شيئا أيها الأعرج"

كان يعيبني بعرجي الذي كِدْتُ قد نسيته.. قد أكون شعرت بوخز قليل في مكان مجهول من جسمي.. غير أني تجاهلته، ورفعت أصبعي بقوة أهدده:

"أخرج من هنا وانتظر حتى تعود سيدتك المحترمة لتعمل معها"

لم يتمالك نفسه. فهم أنني أعني أمرا محددا.. واندفع بقوة يدفعني إلى الوراء بكلتا يديه. كنت قد تأرجحت قبل أن أتماسك بصعوبة وأنجو من السقوط أرضا. لحسن الحظ كان العاملان الأثيوبيان يراقبان الموقف وحسبتهما سيتدخلان في الوقت المناسب، وقد كان ذلك. فهما لن يسمحا بأن أضرب. واستغربت أنهما كانا قادرين رغم ضعف بدنيهما على الإمساك به ورفعه عاليا ثم خبطا به الأرض وكانا سيكرران ذلك أكثر من مرة لولا أنني أشرت لهما كفى.. كان قد ترنح كثيرا.. كسكران.. وهو يتلمس طريقه في الشارع يتوارى عن الأنظار.

ظننت أن المسألة قد انتهت.. ولكن بعد ليلتين.. وفي الوقت نفسه تقريبا.. كان قد جاء وهذه المرة كان شرسا، وراءه خطة لئيمة يريد أن ينفذها، كما يبدو من الوهلة الأولى. لا يحتاج الشر إلى تعريف يا بني. وصل في اللحظة التي يكون علي فيها أن أغلق الباب الخارجي للمحل وانسحب للخارج، وكان العاملان قد غادرا. أظنه كان يراقب المحل إلى أن تأكد من الوقت المناسب للهجوم. هؤلاء الناس الذين على هذه الشاكلة لا يمكنهم إلا أن يكونوا أشرارا، لقد خلقوا لهذا الغرض.

وهو يقترب مني وأنا لا أكاد أرى جيدا بفعل ضباب الظلام بعد أن أطفأت الإنارة الخارجية، وتركت لمبة صغيرة تظل مضاءة إلى الصباح بلونها البنفسج. كان قد هجم علي بشكل سريع ومباغت. لم يترك لي أن أفكر أكثر في اللحظة المقبلة. هوى على جسدي النحيل بخنجر حاد، لم أتذكر غير أني صرخت آه بشكل متكرر.

استيقظت في المستشفى بعد أيام.. لا أعرف عددها كنت في المكان نفسه الذي دخلته يوم كان ذلك الحادث اللعين الذي مات فيه الأعرج.. ومرة أخرى كنت كمن في حلم.. أتذكر أنني سرت في أنفاق طويلة تحت النهر حتى دخلت مدينة بعيدة يوجد فيها أقزام لا يفعلون شيئا سوى التقافز فوق الأشجار كالقرود والغناء بأصوات شجية.. وكانت ثمة موسيقى تعزف كان ينبغي علي تتبعها إلى أين ستقودني.. وكان أبي يقود سيارته الحكومية المهلكة وقد تقدم به العمر، وكانت شاحنة تحمل عائلتنا في البلدة والجيران وكثير من الأهل وترمي بهم جميعا في حفرة عميقة وتهيل عليهم التراب.. كان صعب علي أن أفزر علاقة الموسيقى والأقزام بهذه المناظر الأخيرة.. المهم أنها أحلام والمنطق بشأنها غير وارد في أغلب الأحيان..

ورأيت عمي كان يقف بجواري يتحسس شعر رأسي المجعد الذي استطال كثيرا، وهو يقول لي:

"حمدا لله على سلامتك.. لقد كدت أن تموت لولا لطف الله"

كانت عمتي تذرف دموع الفرح.. وكنت في حالة من الغياب الذهني.. غير قادر على الكلام.. بصعوبة أنطق الكلمات.. أشار لي عمي بأن أرتاح فكل شيء سيكون جيدا في وقته. ودخلت ممرضة تحمل إبرة طويلة حقنتني بها في مؤخرتي فدخلت في غيبوبة مجددا. ومضت أسابيع في

المستشفى.. ومعها تكررت في أحلامي تلك الصور القديمة للبلدة وأخواني.. وأبي وأمي.. وأنا هذه المرة أطارد في أشباحهم في حوائط طويلة وعالية جدا كأنها شاشات سينمائية.. واكتشف أنني أقف في صحراء لا أحد فيها سوى أنا.. واستيقظ لأجد أن عمي بجواري وعمتي.. قلت لهما:

"أنا خائف ومضطرب.. تطاردني كوابيس مزعجة"

قال لي عمي:

"سوف تصبح بخير.. هذا طبيعي بعد ما جرى معك"

"وأين هو ذلك الـ...؟"

"لقد هرب لا أحد رآه والشرطة لم تعثر عليه"

ذات ظهيرة كنت قد خرجت بعد أن تماثلت للشفاء، وبقيت لأيام في البيت، لا أفعل شيئا سوى القراءة في تلك الكتب التي أعشقها عن تنمية الإنسان وسيرته في الحياة مع العمل والنجاح.. كان المشي صعب علي في الأيام الأولى بسبب تقوس في الظهر وآلام حادة.. حتى أنني كنت أتبول في الغرفة.. لا أعرف ماذا فعل هذا الملعون حتى جعل خنجره يصيب ظهري بعد أن حوّل بطني لخريطة غريبة الشكل.. وخفت أن استمر على هذا الحال.. لتضاف إليّ عاهة أخرى.. كانت الكوابيس قد توقفت بعد إحساسي بأن الحياة يجب أن تستمر وأنني لن أقف عند هذه الخطوة.. لن أعود للوراء.. فقد قرأت في أحد الكتب التي معي أن الإنسان يفكر أحيانا في ماضيه بطريقة تجعله محببا، لكن ذلك يكون في كثير من الأحيان عاطفة كاذبة عليه أن يتخلص منها.. وأن الحقيقة تكمن في اللحظات الحاضرة وفي المستقبل.. لا أحد يمكنه أن يساندنا على أن نكون أقوياء سوى أنفسنا.. مهما كانت درجة القرابة أو المحبة.

لسبب مجهول لا أفهمه جيدا ظل يلازمني الشعور بأنني قد أكون ارتكبت خطيئة كبرى تستحق التكفير ذات يوم.. لكن الوقت المناسب لم يأت.. كان صعب علي أن أفكر مع نفسي بشكل جيد.. لا يتعلق الأمر بالوقت.. ولكن بحساسية افتقدها مصدرها الخلو مع الذات والصفاء النقي، ذلك الشيء الغامض والمثير الذي يجعلك في لحظة معينة ترى بعض الأمور بوجهتها الصحيحة.. يحدث ذلك في ظروف معينة وفي أوقات ليس لنا فيها أيد بأن نعمد إلى اختيارها.. ولم أفكر في مناقشة ذلك مع عمي.. آثرت أن أكون شجاعا للاستمرار في أن أكون أنا.. لا شخصا مستلفا عن الماضي أو الذكريات أو الرغبات الجارفة التي قد تأخذنا في لحظات عابرة إلى نقطة قديمة لنجد أنفسنا في ورطة يصعب الخروج منها. إن حقيقة الإنسان في أن يظل مقاوما إلى النهاية.

طوال فترة غيابي عن العمل، كان المحل يعمل بواسطة عمي والعاملين الأثيوبيين، غير أن الوتيرة تضعف كما علمت لاحقا.. وقد كان عمي وعمتي يخفيان ذلك فهما يدركان أنني سوف أنهض بأي شكل كان للاتجاه إلى المحل، لو أنني علمت.. وكان أن عدت.. وفي ظهري قليل من الانحناء.. قال لي الطبيب إنه سوف ينتهي مع الزمن.. مع قليل من التمارين والعلاج الطبيعي.. كان الزبائن قد افتقدوني في الفترة الماضية.. والواقع أن هناك من زارني في المستشفى أو البيت أو سأل عني

على الأقل. كنت نشطا وأشعر بالتحدي المضاعف أنني يجب أن أكون أفضل.. فإذا كانت طعنة قد أصابتني فلن أقف هنا سيكون علي أن أمضي وأثابر أكثر.. قال لي عمي وهو يرحب بي في المحل:

"الكل في شوق للقائك.. مرحبا يا ولدي"

ألقيت نظرة على المحل.. دققت في التفاصيل.. أحسست كم أعشق هذا المكان بكل ما فيه.. وأحفظه تماما.. إنه عالمي المصغر والكبير.. كان عمي يراقبني ويشعر بما أشعر به.. وبدأ فرحا.. عمتي هي الأخرى كانت حاضرة وهي تشهد هذا اليوم باعتباره عيدا، وفي اليوم الأول عملت بشكل أقل وهذا طبيعي. ومرت الأيام ليتضاعف نشاطي وأجد أن رأسي يزدحم بالأفكار التي يجب أن أطبقها من تلك التي رسبتها فترة النقاهة في ذهني وما اختلط بذلك مما قرأت في الكتب وبعض من الأحلام الشاردة.. تفاعل كل ذلك برأسي في شكل خطط وأمور يجب أن تتم فورا.. على الأقل المهم منها.

مضى أسبوع.. أسبوعان.. شهر.. شهران.. عاد المحل مزدهرا.. لكن عمي قل حضوره بسبب الإحساس بالتعب.. لا أدري كيف تسير الأقدار في هذه الدنيا.. غير أنه ما أن عدت أنا للمحل حتى كانت متلازمة الإرهاق قد بدأت تطارد عمي.. كان جسورا في مقاومته للأوجاع، لكن الأمراض لا تحترم الأرواح ولا الشجاعة التي يملكها صاحب البدن.. تظل تتوغل حتى تعلن عن انتصارها.. كانت تلك بعض من حكمة عمي وهو يرقد على السرير في البيت، يعاني من أوجاع متكررة في المفاصل والعظام، ربما هي سنوات العمل الطويل والشاق.. رحلة الحياة التي قطعها في الوجود إلى أن أدرك هذه اللحظة، كان يسألني ذات ليل وأنا عائد من المحل للتو:

"ماذا بشأن أفكارك الجديدة، لم نر شيئا؟!"

ألقيت نظرة خاطفة ودقيقة في الوقت نفسه على وجهه المكشوف بين جسده المغطى كاملا ببطانية صوفية رغم أن الطقس لم يكن باردا كثيرا. لم يكن في الواقع يسألني، كان يحاول أن يبدي نوعا من المقاومة للوجع والألم والإحساس بأن لهذا البدن عمرا افتراضيا يجب بعده أن يرتاح في نومة أبدية. لا أعرف لماذا كانت هذه الأفكار المزعجة تطاردني وأنا أتأمل وجهه الذي ترهل وتجعد كثيرا في حين تكشف ابتسامته الصغيرة المتسللة بصعوبة وسط الارهاق النفسي، عن حزن عميق، لربما شعور بأن الحياة بقدر ما تكون جميلة ومليئة بالمغامرات والأفراح تتعثر في بعض المناطق وتصبح مؤلمة وقاسية ليصبح الهروب منها خيرا. نحن لا نتخذ ذلك القرار في أغلب الحالات، لأنها دائما هي التي تقرر بنا وتنتصر لإرادتها الأزلية.

كرر عمي سؤاله بصعوبة هذه المرة.. واتضح لي بدرجة أعمق أنه يبحث عما يجعله يتمسك بأمل في هذا العالم بأن يكون وراءه من يحمل مشعله.. كنت أتلبس بثوب حكمته وأسبغه على أفكاري وطريقة رؤيتي للأشياء وتقييم الوقائع من حولي. أجبته:

"سأصنع كل ما يفرحك عمي.. وقريبا جدا"

ووجدت نفسي أقول دون خطة مسبقة:

"سنفتح محلا جديدا آخر قريبا"

لم يكن لهذا القول من أساس سوى أنه خرج في لحظته وصار تحديا يجب أن أنجح في تحقيقه لأجل أن يسعد عمي.. وبالفعل مضت ثلاثة شهور وعمي في البيت يقاوم الأوجاع المتزايدة.. تارة نأخذه إلى الطبيب يقوم بإجراءات روتينية.. ونعود.. فالأطباء في بعض الأوقات يكون دورهم شكليا لا أكثر. لا يقدمون لك شيئا سوى أنهم يحاولون تقديم اعتذارات عن سوء الطقس أو ضعف الأدوية التي في البلد، بسبب المقاطعة التي تفرضها الدول المتقدمة على بلادنا بزعمها أن الحكام الجدد جزء من شبكة الإرهاب الدولية، حتى لو كانوا قد درسوا وترعرعوا في بلادهم.

خلال هذه الأشهر الثلاثة.. تحقق الحلم.. كان المحل الجديد جاهزا.. بدأت باختيار الموقع الذي كان في منطقة قريبة من ملتقي النهرين عند أسفل الجسر الجديد، كانوا قد أقاموا المزيد من الجسور لتضاعف عدد النازحين الذين يستخدمون المواصلات العامة للوصول إلى مركز المدينة، حيث الكل يبحث عن مصدر رزق. في تلك المنطقة كانت ثمة فنادق يردها أجانب وكافتيريات كثيرة قد تكون المنافسة بينها صعبة.. لكني كنت أؤمن بأن النجاح يأتي وسط الصعوبات وليس في الأماكن السهلة. كان إيجار المحل مكلفا، غير أن حسبتي أننا سوف ننجح في تحقيق عوائد أعلى في منطقة توصف بأنها سياحية.. وجهزت المحل بديكور حديث وألوان زاهية وإضاءات ملونة وكانت الصورة الكبيرة لي أو لابن عمي الراحل.. التركي.. قد رسمت مجددا هنا، بحيث باتت كعلامة مميزة لنا وشعارا، تماما كما يظهر في مأكولات الكنتاكي الأمريكية الشهيرة، الاختلاف هنا رسم لشاب صغير بشعر مجعد وهناك رجل متقدم السن.

طوال هذه الفترة تركت العاملين الأثيوبيين يعملان في المحل الأم، وقد أجادا العمل.. في حين كنت شبه متفرغ لأمر المحل الجديد.. وتجهيزه.. ومضى كل شيء وفق ما خططت له في ذهني منذ تلك الليلة التي أعلنت فيها لعمي ذلك.. ففي ذلك الليل وإلى الفجر لم أنم حيث رسمت الخطة كلها.. من اختيار المحل إلى شكله النهائي إلى رؤيتي الزبائن وهم يتحركون داخله ومن ضمنهم كانت ابنة خالي.. فقد كنا أقمنا حفلا للافتتاح، كان حدثا عظيما في المدينة الكبيرة.. كمثل أحداث كثيرة للطبقة المتنفذة.. وكان ما يشغلني أن أصل إلى النقطة النهائية قبل أن يحدث مكروه لا قدر الله.. فقد كان ثمة شيء غامض يطاردني بأن عمي في أواخر الرحلة.. هذا الأمر الذي كان من الصعب التخلص منه، لدرجة أنني بدأت أشك في طبيعة ذاتي.. هل أنا كائن شرير وشيطاني لينسج دماغي مثل هذه التخيلات غير السارة.. هل حقيقة أن هناك شياطين توسوس لنا بحيث تفصلنا عن عواطفنا الحقيقية وما يتحرك في نفوسنا من خير؟ أم أنا لنا أقران يعملون ضدنا بكل قوة وجبروت؟.. كنت أقاوم شرور نفسي ووقاحتي لدرجة أنني أحيانا أتخيل أن عمي قد مات

وأنني ورثت كل شيء.. وأسرح في التخيلات التي لم تكن لتسرني، وأطردها لكنها تعاودني في أوقات عديدة وبكثافة أحيانا.

عمتي كانت مطلعة على خطتي واستمراري في التجهيزات.. هي لا تجد الوقت الكافي لكي تلاحظ ما يطرأ من تقدم يوميا، فقد كانت مشغولة بعنايتها بعمي، إلا أنها على الأقل تسألني وتطمئن على مفاجأتي التي أحضرها لعمي.. ومرة ذهبت معي لتشاهد كيف أصبح المحل شبه جاهز.. وبالفعل كان أن حددنا الموعد لهذا الحدث المهم بالنسبة لي، بالطريقة نفسها التي نسجتها في تلك الليلة ساعة وضعت الخطة كاملة. إذن فقد جاء يوم الافتتاح.. وتقدم عمي ليشهد المناسبة السعيدة، كان فرحا وهو يقاوم الألم والأوجاع.. كأنه يعود للحياة قويا وشابا، وامتلأت الساحة أمام المحل الجديد بالمدعوين الذين أعددت قائمتهم بالتركيز على زبائن المحل المداومين، كذلك بعض الجهات المهمة وشخصيات من المجتمع. تقريبا لا أحد تأخر. ومضت تلك الليلة رائعة كما رسمتها في خيالي.. مع فارق واحد أن ابنة خالتي لم تكن حاضرة كما تخيلت.

في آخر الليل وبعد أن انتهينا من كل شيء.. قال لي عمي في البيت:

"لقد صنعت شيئا رائعا يا ولدي.. أشعر بسعادة غامرة.. أنت فخر حقيقي لي.. سأخبرك بسر طالما أخفيته عنك وقد آن الأوان المناسب لكي أبوح به"

كنت أتوقع شيئا معينا.. عن ذلك الخبر القديم بخصوص الوصية، بالفعل قال لي:

"لقد خصصت صكا باسمك في المحكمة.. عرفانا لجميلك يا ولدي واجتهادك معي طوال السنوات التي عملتها معي.. لكن في الواقع أنت أكثر من ذلك. أنت ابن حقيقي"

رأيته يبكي كما لم يحدث ذلك من قبل أبدا. وفاضت دموعه تتقطر على اللحاف.. كان يسعل بقوة.. وخفت عليه دون أن أجد ما أرد به، ما الذي سأقوله، ليس عندي من كلام، فقد سكتت حاسة النطق عندي أم تعثرت.. كان إحساس يصعب تصويره اليوم بعد مضى سنوات طويلة.. فأحيانا يجد الإنسان أن حياته تصنع في مكان آخر غير ما يتوقع.. هذا حدث معي.. وللحظات وأنا احتضن عمي.. كنت أفكر من أكون أنا؟ وما شكل علاقتي الحقيقية بهذه اللحظة من الزمن؟ هل هي موجودة وحاضرة أم أنها نسيج من التخيلات؟ هل أنا كبرت وهذا أنا؟ أم أنني ذلك الولد الصغير الذي يخاف أن يرى أمه تضرب ليلا وهو يعاند بكبرياء فكرة اليقظة لكي يهرب إلى الأحلام يتسلى بها عن مرارة الواقع أمامه؟ وربما أكون داخل واحد من تلك الأحلام لم أخرج منه بعد.. لتكون حقيقة وجودي مجرد حلم لا أكثر.. حتى أنا هنا.. حتى ما حدث في هذه الليلة وافتتاح المحل الجديد.

ليس حلما، كانت تلك حياة كما ينبغي للحياة أن تكون.. ومهما كانت النتائج فإن الماضي لا يشطب والعبرة في أن يمضي الإنسان إلى الأمام، إلى المستقبل. كأنما صوت يخاطبني من داخلي بأن هذه حقيقتي التي يجب أن أتمسك بها. في الصباح الباكر ورغم أني نمت لساعات قليلة، كنت نشطا وقويا وحاضر الذهن.. وكان علي أن أسرع لقائمة من العمل المطول الذي يجب

إنجازه بعد أن تضاعفت الواجبات بافتتاح المحل الجديد، وأنا في طريقي كانت ساحة المطار قد احتشدت بالبشر، يبدو أن هناك حدثا كبيرا يجري. في الواقع أنا لا أتابع الأحداث الخارجية كثيرا، بقدر ما أنني مشغول بالعمل وعائلتي. أتابع ما ينذر نفسه لي وما أسمعه من الزبائن خشية أن تتأثر أمورنا سلبيا. كان ثمة ضجيج وأصوات مرتفعة تصيح عاش.. عاش.. فهمت الأمر أنهم يهتفون بحياة الرئيس السابق الذي كان قد ذهب للعلاج ذات يوم في أمريكا.. عرفت أنه سيعود ظهر اليوم إلى البلاد، وقد تسابقت هذه البشرية لكي تستقبله، بعد أن خرجت ذات يوم مطالبة برأسه مطلبا شعبيا.

كان سائق الأجرة يكلمني أن الناس تظل في هذا البلد متمسكة بالأوهام، لا تعرف ولا تفهم ما الذي يجري في الغد، يكرهون شيئا ما يطردونه، ثم يعودون لاستقباله مجددا، وفي كل الأحوال لا جديد يحدث. كانت شوارع المدينة الداخلية في وسطها شبه خالية من المارة. حتى صبية الشوارع كانوا قد تسابقوا إلى المطار ليروا الرجل المعجزة كما أطلقت عليه صحف الصباح. كنت استغرق في تأملاتي الداخلية بخصوص صحة عمي ومستقبل ما سيجري بشأن العمل، كيف ستكون الظروف المقبلة، كان السؤال الوحيد الذي يشغلني هل ستؤثر عودة الرئيس السابق إلى البلاد وهذه الحميمية الجارفة التي يستقبل بها على عملي. هذا هو ما يهمني من كل القصة، سواه لا قيمة له عندي. كانت أفكاري تتواتر وسط ما يجيء ويذهب من كلمات السائق، وهو ينسج قصصا عن التوقعات:

"يقولون إنه سوف يتولى رئاسة الوزراء، منصب جديد يجري اختراعه لإحداث توازن سياسي"

يضيف:

"هناك رواية أخرى أنه سوف يترشح في الانتخابات القادمة.. هل تظن أنه سوف يكتسحها.. هل هذه الجموع التي خرجت ستصوت له فعلا، أم سوف ينسون بعد يومين؟.. الحياة بدأت تضغط في هذا البلد يا ابني والناس تريد من يطعمها.. هل تسمعني.."

كنت ساهما في أموري الخاصة، وتوقفت بي سيارة الأجرة.. ونزلت أهرع إلى المحل الجديد.. في هذا اليوم قلّ الزبائن، لم يأت سوى بعضهم من الذين كانوا ساخطين على الوضع الذي يحدث هذا الصباح في البلد، كيف أنهم يركلون كل الماضي فجأة ويتجهون لترميمه من جديد، كان أحدهم يتحدث، هل سيعود هذا العجوز ليحكمنا مرة أخرى، لا أظنه قادر على الكلام.

مضى ذلك اليوم ثقيلا جدا، وكان علي أن أنهي النهار لأذهب إلى البيت لرؤية عمي قبل أن أذهب للمحل الآخر. هذا بات برنامجي اليومي فوضع عمي الصحي أصبح يقلقني. بقدر ما كنت اعتقد أن افتتاح المحل الجديد سوف يحقق بعدا إيجابيا عليه إلا أن تحسنا كبيرا لم يظهر في النواحي المباشرة. صحيح أنه كان مسرورا ويبدو متماسكا غير أن ذلك لا يبدو كافيا لتكوين إشارة جيدة عما يخبئه الغد. وخطرت لي فكرة أن يذهب عمي إلى تركيا فربما ستكون العناية الصحية هناك أفضل. خاصة أن الأطباء الجيدين في البلد تركوها وسافروا إلى الخارج، فالرواتب

لم تعد كافية والوضع يتعثر. خفت أن أفاتحه بهذا الأمر فيتضايق لأنني أعرف محبته لهذا المكان. وأخيرا قررت أن أناقش مع عمتي الموضوع مبدئيا، قلت لها:

"هل سنترك أبي على هذا الحال هنا؟.. الأوضاع هنا ليست على ما يرام"

ردت علي بحزن:

"أنا أرى ذلك.. ما العمل.. ماذا تقترح؟"

"السفر إلى الخارج"

"خطر لي ذلك غير أن المشكلة لا تتعلق بعلاج وقتي.. هو يحتاج إلى عناية مستمرة.. وهذا يعني وقتا طويلا جدا لا نعرف كم سيستمر.."

صمتت قليلا ثم أضافت:

"في كل الأحوال لن يكون مرتاحا في أي مكان في العالم أكثر من هنا.. أنا أعرف ذلك جيدا"

كنت أدرك أن ما يعانيه عمي ليس مرضا بعينه سيعالج في زمن محدد، إنما تراكم سنوات العمر الذي تولدت عنه فجأة كل هذه الأوجاع.. هو صبور ما من شك في ذلك، غير أن العناية لها دور في تخفيف الألم وجعل المرء يعيش بوجه أفضل.. كان ذلك يدور بذهني.. وتقريبا كانت عمتي تحمل الأفكار نفسها. رؤانا متطابقة.. واتفقنا مبدئيا.. لكن إلى أين سنذهب، وكيف سيكون البرنامج المقبل، وكم سوف يستمر من الوقت، وكيف سنترك الأمور هنا، وهنا اقترحت ما بذهني من الأساس:

"هل يمكن أن تكون تركيا هي المكان المناسب؟"

نظرت عمتي نحوي.. لم استطيع التكهن بردة فعلها اتجاه ما قلت.. بدت نظرتها استعجابية وغير مسبوقة، وسألتني:

"ماذا تقصد بالضبط؟"

"أعني أن يكون بجوار ابنته"

هزت رأسها بقوة.. كأنها أصيبت بدوار.. قالت:

"لا يمكن أن يحدث ذلك.. هو لن يكون أفضل هناك"

هل بإمكاني أن أوجه لها سؤالا بخصوص السبب.. استحييت طالما أغفلت هي ذلك ولم توضح لي بقية الأمر.. لماذا لن يكون سعيدا لو أنه ذهب إلى بلده وكان بجوار ابنته، أعرف أنه يحبها كثيرا.. لقد كان يسافر من وقت لآخر لها وفي المرة الأخيرة قضى وقتا لا بأس به معها.. إذن ما هي الأزمة المستعصية التي تحول دون ذلك.. كانت عمتي قد قرأت الشرود الملموس على ملامحي، أسكتت تساؤلاتي قائلة:

"هناك أمور قد لا تعرفها يا ابني.. ترتبط بتاريخ قديم، ليس بالضرورة أن يقال الآن.. لأن ذلك ليس مهما بالنسبة لك"

زاد ذلك حيرتي.. وفهمت أن هناك ما هو مجهول بالنسبة لي بخصوص تاريخ هذه العائلة، هم يعتبرونني ابنا وقد منحوني العطف والمودة وكل شيء تقريبا.. أيضا نصف أموالهم على الأقل.. غير أن الكثير من الأمس البعيد وربما القريب غير مدرك لي.. تاريخ عمي.. علاقته ببلده التي بدأت أعي ولأول مرة من إشارات عمتي المتناثرة أنه لا يحبها كثيرا أو بالأحرى يفضل أن يكون هنا.. هو يذهب إلى هناك على مضض لأجل ابنته وترتيب أمور عائلية أخرى.. هي بمثابة دين أو كفارة لأشياء وقعت ذات يوم بعيد.. كنت أسمع كل يوم من عمتي إضافة جديدة تكشف لي جانبا توضيحيا أو سببا مضافا لما يمنع سفر عمي للبقاء مع ابنته في تركيا. وكان ثمة تلميح واضح أن لا أحكي له أي شيء بخصوص هذا الموضوع، حتى لا يتعقد وضعه الصحي.

أحيانا كثيرة نظن أننا نفهم بعض الأشياء لأننا أصبحنا جزءا منها أو صارت تشكل حياتنا، غير أن الحقيقة هي عكس ذلك تماما. مع الزمن يكون علينا أن نكتشف أن ثمة أمورا غائبة ومجهولة بالنسبة لنا. هذه هي الحياة في أغلب الأحيان وفي أي موقع كان. كان عمي في الماضي يردد مثل هذا القول الذي ينطبق عليّ اليوم، هل كان يعني أمرا محددا.. لست متأكدا.. وقد كانت تلك طريقته في إطلاق بعض الحكم، تعليقه بأنها قد لا تكون بالضرورة صحيحة في كل الأحوال.. فثمة ما هو صحيح في وضع معين وفي ظرف خاص.. وقد يكون ذلك الأمر نفسه خاطئا في ظروف أخرى.

وكأننا أنا وعمتي قررنا الصمت بشأن وضع عمي، أن نترك القدر ينسج ما شاء.. وبقدر ما كنت منهمكا في تفاصيل الحياة الروتينية حيث تشعر أحيانا أن الزمن يتوقف للإحساس بالضيق. إلا أنني خصصت جزءا من وقتي لاسيما في الليل لعمي الذي رغم المرض وعدم مغادرة السرير كثيرا، كان يسهر لوقت متأخر وينام لساعات النهار. وكان يجد سلوته في القراءة.. يضع مؤلفات ابنته بجواره ما يشعرني بأنه كان يرى من خلالها عوالم خاصة ليس بإمكاني أن أراها أو أفهمها، قد تكون بعض من أشواقه المفقودة أو حنينه لمجهول، غامض.. أحيانا يفتح صفحة معينة.. ويطلب مني أن أقرأ له.. وأبدأ في القراءة بالتركية.. أتوقف عند بعض الكلمات نطقا لكنني أفهم المعنى شفافا جليا، دون عثرات. ورغم أني لم اقرأ كل هذه الكتب أو أكملها تماما.. إلا أني أعرف مناخها العام من أحاديث عمي، فهي تدور حول بلد يتغير بسرعة، عن تجاذبه بين الشرق والغرب، عن أجيال جديدة تحاول أن تركل الماضي وتستقبل المستقبل بأحلام أخرى غير تلك المتوارثة، غير أن أكثر ما استوقفني تلك الرواية التي كان عمي يفضلها، أن اقرأ له منها والتي تحكي عن قصة كفاح أب يأتي من الريف التركي إلى المدينة الكبيرة من أجل أن ينشد حياة أفضل وتحدث معه قصص وحكايات كثيرة تجعله لا يحب بلده، إلى أن يهاجر إلى بلد آخر ليكسب نفسه وحياته الأخرى.. هي لا تسمى هذا البلد الجديد.. كأنما تتحدث عن تجربة حياة عمي، ومرة سألته بعد أن قرأت مقطعا من نهاية فصل يتحدث عن كيف أن الحياة وسط الغرباء تجعل الإنسان سعيدا أحيانا:

"هل ترى في هذه القصة صورة لك؟"

بادلني نظرة مكسوة بابتسامة مقتضية.. لم يكن المرض ليترك له أن يكشف عن وجهه الجميل الذي كانت أساريره قوية ومعبرة في الماضي القريب. قال بصوت متقطع ومتحشرج:

"ربما.. ربما يكون ذلك صحيحا.."

لم يزد.. أو يفسر أكثر من ذلك.. فيما كنت اعتقد أن لديه الكثير مما يقال.. وأنا أرفع صوتي اقرأ مطلع الفصل الأول من الكتاب:

"..عشت قصة شبيهة بك.. لهذا أفهم وضعك جيدا.. في سنوات طفولتي هربت من عائلتي في أنطاليا جنوب غرب بلادي، ووصلت إلى اسطنبول بعد رحلة مضنية، لأبدا في صناعة حياتي بنفسي.. ولكن في بلد آخر.."

كان هنا من يتكلم ليحكي قصته لشخص آخر مجهول، وكان ذلك الراوي يقول إنه عاش قصة شبيهة بالمحكي له، لكنه لا يعرفه بها.. أفكر في كم أن التجارب الإنسانية تتشابه.. وكم أن هذه القصة قد تشبه ما أنا فيه من حال.. ومثل هذه التفكير كان يرهقني.. فأحاول أن أتفاداه حتى لا أقع في الجرح العميق الذي يشغل مساحة من روحي.. المشاعر نفسها ربما كانت عند عمي.. فأنا كثير ما أرى نفسي صورة مصغرة له، لكأنني ابن حقيقي له، من صلبه.. إنها نوع غريب من العلاقة التي لا تفسر إلا لمن يعيشها.. صعب على الناس أن تصدق ما لم تجربه – يا ولدي –..

خلال عدة شهور وصلت الابنة إلينا، كان لابد من إخبارها بما يجري واستعصاء حالة والدها، خاصة في الفترة الأخيرة.. حيث صعبت عليه الحركة وصار يقضي حاجته في الغرفة تقريبا وصار شبه منوم لأغلب اليوم.. والأطباء لا يفعلون شيئًا مهما.. كان أحدهم يأتي بشكل شبه يومي، يخرج معداته ويمارس عمله الروتيني.. قياس الضغط.. الحقن.. إعطاء النصائح المكررة.. والحال على ما هو عليه.. وذات يوم قبل أن تصل الابنة بصحبة زوجها، قال لي:

"أريد أن أخبرك بأمر بخصوص والدك..."

كان يبدو عليه أنه متردد في القول، وطلبت منه أن يختصر مشاعره ويخبرني بما يريد أن يفصح عنه، فقال:

"أبوك مصاب بمرض مستعص.. يصعب عليه الشفاء.."

"أتعني.."

"نعم يا ولدي.. للأسف.. إنه قضاء الله وقدره ماذا سيفعل المرء أمام الإرادة الإلهية.. سأفعل ما بوسعي.."

لدقائق شعرت برجفة في جسدي.. خفت كما لم أخف من قبل.. يعني أن النهاية المحتومة قد اقتربت.. وكانت عمتي هي الأخرى تشعر بذلك، ولا أعلم إن كان الطبيب قد أخبرها أم لا.. ولم يكن بإمكاني أن أخبرها طبعا.

كان عمي سعيدا لوصول ابنته التي كانت تشبهني لحد ما، كما في صورتها تلك المعلقة بالبيت.. كانت ملامح حزنها التي تبدو في الصورة لا مكان لها في الواقع.. فهي تحب الحياة، رشيقة وخفيفة الظل.. ورغم ظروف والدها العسيرة، كانت تبتسم لا أظنها تفعل ذلك تكلفا.. غير أن ذلك لا يعني أنها غير عاطفية.. فمرات كنت أراها تبكي وهي ترقد بجواره تحتضنه، هي كانت تحاول أن تخفي مثل هذه المشاعر أمامنا أنا وعمتي.. كذلك زوجها الذي كان لا يستحقها كما حكمت مبدئيا.. يبدو مكور الوجه، قصير القامة.. ممتلئا قليلا.. عرفت أنه يعمل صائغ مجوهرات.. كان يرتدي قرطا كبيرا من الذهب في أذنه اليسرى يتدلى بمسافة خمس سنتيمترات على الأقل. لم يكن ليبقى في البيت طويلا، يخرج صباحا ولا يعود إلا في آخر الليل، لا يخبر أحدا أين يذهب في بلد لا يعرف عنه شيئا.. ولم تكن هي لتقضي معه وقتا.. هل هي حياتهما هكذا على الدوام في بلدهما.. ليس بإمكاني التكهن.. ورغم أني لم أرتح له.. إلا أنه كان لطيفا معي.. يمازحني بالتركية ووعدني بأن يصنع لي مجموعة من المجوهرات الراقية هدية لشريكتي ساعة أقرر الزواج.

كان ذو القرط صانع المجوهرات يحب الحياة، كأنما أتى إلى هنا، في رحلة ترفيهية ولم يكن يحفل بما يدور في العائلة وحالة العم التي تردت كثيرا، كنا جميعنا نعيش ألما كبيرا ونحن نرى ذلك الوجه البشوش وقد بات مصفرا وصاحبه غير قادر على الكلام ولو بكلمة واحدة. بالنسبة للابنة وخلال أسبوع تغير وضعها وفقدت بعض من وزنها كان ذلك واضحا عليها، وكانت العمة تغلق الغرفة عليها وتبكي وحيدة وهي تحتضن صورة للعم، وتصفه بأجمل الصفات على طريقة نساء بلادي ساعة يموت رجل، زوج كان أم أخ، أو قريب من العائلة. كان الوضع يسوء وانعكس ذلك على العمل الذي لم يتوقف لكنه تأثر في ظل غيابي المتكرر وبقائي لمراقبة الحالة المستعصية كما قال الطبيب، الذي كلما دخل علينا وخرج، ألقى نظرة باتجاهي كأنه يقول لي أن ساعات قليلة قد تبقت.

كان ذو القرط مستمرا في تفاهاته، لا يعود إلا في آخر الليل وفي أغلب الأحيان يكون ثملا، يدخل إلى الصالة الكبيرة في البيت يستلقي على الأريكة، يدخن السجائر بشراهة، قبل أن يكون قد نام إلى الفجر في المكان لم يغادره ورأسه إلى ركبتيه، يستيقظ بعض المرات وكأنه يحلم ليوجه سؤالا لنفسه:

"هل العم بخير.. هل هو بخير؟"

يكرر ذلك القول ثم يستمر في النوم.. ويستيقظ ثانية ليكلم كائنا مجهولا، ثم ينهي حالته هذه بأن يشتم عمي:

"ليذهب إلى الجحيم هذا العجوز.. إنه يضيع وقتنا"

كان ذلك مستغربا بالنسبة لي.. سلوك غريب لا يصدر من إنسان محترم.. كان ذلك تصنيفي لما أراه.. ولم تكن الابنة لتهتم أو تلقى بالا لذلك.. وخطر لي ذات مرة أن أسألها عن شكل علاقتها بهذا الرجل غريب الأطوار.. ثم تناسيت الموضوع لأن الظروف غير مناسبة حاليا.

في الصباح يمارس الرجل حياته بشكل معتاد، لكنه لا يدخل غرفة عمي أو يلقي نظرة باتجاهه.. يسأل عن الشاي والقهوة والعصائر والطعام.. يريد أن يأكل ويشرب هذا كل همه.. لم يكن من أحد ليهتم بخدمته.. يصيح كثيرا وفي النهاية يدخل المطبخ بنفسه ويعود يحمل صينية كبيرة بما تشتهي نفسه. ويخرج باللباس الداخلي القصير، يظهر عضلاته المفتولة، والتي رسمت عليها أشكال فيها مربعات ومثلثات متداخلة وبعض الحيوانات كالأفاعي. يقضي على ما في الصينية ثم ينفض يديه، يترك الأواني في مكانها. يدخل الحمام يكون صوت ضراطه مسموعا في الصالة الخارجية. يمارس هذا السلوك الهمجي، ثم يسرع لارتداء ملابسه دون أن يحشو البنطلون أو يتأنق ويخرج لا نراه مرة ثانية إلا في الليل المتأخر.

وتعقد الوضع ليس وضع عمي.. إنما وضع ذلك الرجل الأبله ساعة جاء ذات مساء مبكرا قليلا.. ومعه شلة من الشباب الذين يشبهونه في الحجم والشكل والأقراط التي توضع على الآذان.. واحترت في أمره متى تعرف على هذه المجموعة المنتقاة بعناية، كأنهم صبوا في قالب واحد، وسهروا في ساحة البيت الخارجية يغنون ويضحكون بأصوات مرتفعة وهم يشربون العرق البلدي المصنوع من تمر النخيل. وكان غريبا أن يتم التفاهم بينهم لأنهم من المفترض لا يعرفون اللغة التركية. وذو القرط لا يعرف سواها كما أعرف. وفوجئت به يناديني رغم تبرمي الواضح، ليخبرني قائلا:

"هؤلاء أصدقاء قدامى درسوا معي في اسطنبول.. لقد جمعتهم اليوم هنا لنحتفل معا بذكرى سنوات قديمة.. لم أكن لأظن أننا سوف نلتقي ذات يوم.."

صمت قليلا وهو يبدو متزنا رغم السكر الواضح عليه، استطرد:

"قل لهذا العجوز شكرا لك أن مرضت جدا. لكي نأتي هنا.. لولاه لما رأيت رفاق العمر.."

قام الشباب سلموا علي بأيادٍ قوية وأبدوا بشاشة، بعكس ما ينبئ مظهرهم الأولي أنهم مخيفون.. أو أشرار بأي شكل كان.. وقال لي أحدهم:

"نحن نعرفك لكنك لا تعرفنا أو قد لا تذكرنا.. لقد زرنا المحل كثيرا"

كان صعب علي أن أتذكر كل الزبائن الذين يردون إلينا.. أعرف الكثيرين، غير أن هذه الوجوه رغم ملامحها المميزة، لم تكن يسيرة التذكر.. قلت لنفسي ربما يكذبون.. ولم أعلق، فقد كنت في أشد الضيق من عبارات ذي القرط بخصوص عمي.. ودخلت إلى البيت وأخبرت عمتي بما أرى.. قلت لها:

"هذا الوضع غير محتمل.. إنه لا يستحي أن يشتمنا"

كانت هي تلاحظ كل شيء من البداية، غير أنها لم تعلق أبدا على الوضع. أعرف عمتي جيدا أنها لو أحبت أن تثير مشكلة لفعلت ذلك، هي إذن لا ترغب في تعقيد الأمور، خاصة مع وضع عمي الصحي، وقالت لي بهدوء:

"أعرف أمثال هؤلاء كيف يمكن التصرف معهم.. دع الأمر الآن"

امتثلت لأمرها، وذهبت إلى عملي، في ذلك المساء الذي بدا لي باردا بغير المعتاد، فيه سحب داكنة في السماء، تشير إلى احتمالات غامضة. منذ الصغر تبدو لي قبة السماء علامة لأمور أتكهنها وتحدث أحيانا كثيرة. تداخلت في ذهني مشاهد غريبة لصورة الرجل ذي القرط وهو يطعنني بخنجر حاد على شاكلة ما فعل ابن الحارس العجوز، ورأيته شرسا كما لم أتوقع أبدا. كانت ابتساماته ودعاباته لي قد تحولت إلى لغة أخرى مرعبة. وأزحت هذه الخواطر جانبا، وبقيت إلى آخر الليل أكثر من المعتاد في المحل القديم، أراجع بعض الدفاتر والحسابات لا لشيء سوى قلق كان ينتابني صعب علي تحديد مصدره، ربما هي الخواطر التي جاءتني قبل قليل.. أو حاجة معينة في دواخلي ليس لي القدرة على الإمساك بها.. ففي بعض المرات يعجز المرء عن تحديد الأسباب الحقيقية وراء أوجاعه النفسية وتوتره.

ولم يخب حدسي ففي التوقيت الذي من المفترض أن أغلق الباب الخارجي، كان ذو القرط أمامي ثملا، وهو يتثنى. لم يكن بوجهه المعتاد الذي عرفته، كان متجهما وعيناه تمتصان الأضواء المتناثرة في الشارع، كان يحمل مسدسا لا أدري من أين جاء به، وهددني قائلا:

"لما ذهبت واشتكيت لها.. هل تعتقد أنني لا أفهم.. لو كانت تريد أن تتدخل من البداية لتدخلت لكن أنت من أججت الوضع"

أجبته بلطف وبهدوء دون أن أبدي انزعاجا:

"أتفهم ذلك.. يمكن أن تتفاهم معي.. لكن ما حاجتك لهذا المسدس؟!"

ضحك وهو يموّج رأسه ببله، وحسبته متخلفا عقليا، قال لي:

"أنا حفيد أشهر صناع المجوهرات في تركيا.. أيها العبد الحقير.. هل تعرف تركيا هل سمعت بها يا وقح.. جدي كان يحكم أجدادك هنا ذات يوم.. هل قرأت ذلك في التاريخ.. لكن يبدو أنك لا تعرف.. لأنك كهذا العجوز الحمار لم تذهب إلى المدارس"

كان الوضع معقدا، كان يشتمني وكذلك عمي.. وكان بإمكاني أن أقول له أتعرف الإمام المهدي الذي طرد جدك وجيوشه من هنا شر طردة، هذه هو التاريخ الذي تجهله، وسمعته يستطرد في القول:

"أنا غويشة واحدة في محلاتي تسوى ثمنك يا حقير"

وفي اللحظة التي كان يحرك المسدس وهو يتأرجح كأنه يريد أن يضغط على الزناد وربما فعلها.. كنت قد قفزت على رجلي السليمة لأعلى.. عاليا جدا ما استطعت سبيلا، إلى أن ارتددت للوراء قليلا وصفعته على خده الأيمن صفعة قوية كان قد وقع على إثرها على الأرض في حين سقط المسدس بعيدا عنه. أخذت المسدس وضعته في جيبي، أغلقت المحل. واتخذت طريقي إلى البيت دون أن أهتم به، ورأيته من بعيد حين التفت مرة واحدة، كان قد قام بتثاقل يجرجر قدميه.

بعد نصف ساعة تقريبا من عودتي للبيت وأنا أجلس في الفناء الخارجي في واحد من الكراسي التي كانت في مكانها حيث رحل أصدقاؤه في السهرة، كان قد دخل من البوابة الخارجية فقد سمعت خبطها. كان يصرخ بصوت مسموع ويسب ويلعن في عمي وعمتي وفيّ أنا.. كانت ابنة عمي تسمعه وتراه وهي غير مهتمة بما يدور، ولما رأت تذمري وضيقي، في حين كانت عمتي مختفية لا أدري أين هي.. قالت لي بهدوء:

"دعه إنه على هذه الشاكلة دوما.. سيعود إلى صوابه بعد قليل"

لم أقل لها إنه جاء لكي يقتلني.. لم أخبرها بذلك.. فقد كانت ابتسامتها كافية لتمنحني نوعا من الاستقرار النفسي الذي ألجم أي أفكار شريرة اتجاه زوجها غريب المزاج.. أخذته من يده وجرته بسلاسة وانقاد لها دون أي اعتراض، أدخلته في غرفة داخلية بالبيت، في ركن قصي، كانت لهما يستخدمانها منذ أن قدما.. وأغلقت الباب. وبعد دقائق خرجت لتعتذر لي قائلة:

"هو هكذا.. يعاني من أزمة نفسية منذ سنوات طويلة.. لا تلمه"

هل تعني أنه مريض نفسيا، له مشكلة معينة.. أم أنها تحاول أن تغطي ما حدث باعتذار تغلفه على هذا النحو. قبلت اعتذارها خاصة أنها لا ذنب لها، أن تتحمل أوزار هذا الزوج التعيس. وجلست بجواري أشعلت سيجارة، بدت ساهمة وقد تطرز وجهها بملامح أسى مفاجئ. كانت تنظر في مساحة بعيدة من الفراغ المظلم أمامنا، تنفض السيجارة على الأرض، وهي تنفثها بقوة، كمن يعاني رغبة الانتقام من شيء يدركه وحده. لم أرغب في أن أكلمها، وتركتها تعيش حالتها هذه.. يبدو أن هذا الرجل يزعجها كثيرا، خاصة أنها إنسانة حساسة كما يتضح من ميولها الفطري للأدب والفنون والشعر والمشاعر الحسنة، وكما هي في كتبها ورواياتها، وكما يصورها والدها كثيرا، ويحكي عنها. تأملتها من بعيد وسط هذا الحزن المخيم، فرأيت وجهها الصغير المكسو بلمحة واضحة من تقاطيع عمي وتضاريسه التي تعمقت في السنوات الأخيرة.. تخيلت أنها أخت حقيقية لي.. مزاجها يبدو مثلي.. ربما كلانا تطبع من هذا الأب وأخذ من طريقته في الحياة، رغم أنها لم تقض بجواره وقتا طويلا كالذي قضيته أنا معه. وفي لحظة غامرني شعور غامض بأنني احتضنها إلي، طوال السنين الماضية وأنا انشغل خلال ساعات اليوم، ليلا ونهارا مع العمل، لم يكن عندي الوقت الكافي ربما لم أحفل بأن أنظر لأنثى كما ينبغي، لماذا يحدث ذلك في هذه اللحظة بالتحديد، ولامرأة من المفترض أنها أختي وأكبر مني على الأقل بخمس عشرة سنة. غير أن بعض الأحاسيس البشرية لا يستطيع المرء أن يتخلص منها أبدا.

وقاومت الفكرة الغريبة التي غطت دماغي بأن أنهض وأحتضنها بقوة، فأنا لست متأكدا من ردة فعلها، ربما لن تكون العواقب سليمة، كما أن الظرف ليس مناسبا. وقاومت بأقصى ما يمكن ذلك الشيء الذي كان يحركني باتجاه جمالها الأخاذ، وشفتيها المسلوبتين جميلتين بلون أحمر باهت مع العتمة، ورغبتي في أن أقبلها بأي شكل كان. وقمت من مكاني سريعا إلى الباب الخارجي، وقفت قليلا ثم تمشيت في الشارع بجوار البيت، حتى أنسى هذه النزعة الشيطانية التي لم أعشها

من قبل. وكنت أسأل نفسي، ما الذي يحدث معي بالضبط، هل هي ردة فعل وانتقام لزوجها الوقح. لا يبدو الأمر كذلك، فهي كائن مختلف لا تشبه هذا الخنزير، هي مصنوعة من لحم حقيقي ودم، وذلك من قذارة.. ولم أعد إلا بعد أن أنهكت وشعرت بالتعب أنني يجب أن أنام. ودخلت البيت لأجدها في مكانه نفسه لم تبرحه، سألتني:

"أين ذهبت.. كنت في حاجة لمن أتكلم معه.. فعمتي اليوم ليست هنا؟"

"بالمناسبة.. أين هي.. أين ذهبت؟"

"لا أعلم.. لم تخبرني.. فقط قالت أنها سوف تأتي متأخرة جدا وربما في اليوم التالي"

أعرف أن عمتي لا تستلطفها كثيرا، غير أنها لا تحتقرها ولا تشعر نحوها بكراهية.. فعمتي من النوع الذي إذا أحب إنسان معين أحبه، وإلا لما فكر فيه أصلا، أما الكراهية فنادرا ما تدخل قلبها .. ولها فلسفة في ذلك أن الذي يكره لا يعرف أن يحب من يكون له قدر عنده.

استأذنت منها لأرى عمي.. لم أمر عليه منذ الظهيرة تقريبا .. كان نائما في غرفته مغطى الجسد.. كمن في منام أبدي.. يشخر بصوت ضعيف مثل هسيس ريح بعيدة.. كان هواء مروحة طاولة صغيرة يضرب بالقرب منه، يحبها أن تتحرك بجواره طوال الليل حتى لو أن الطقس كان باردا .. وأزحت الغطاء عن وجهه قليلا لأراه متعرقا بشدة، طبعت قبلة على جبينه، ورفعت رأسي لانتبه أن الابنة كانت تقف ورائي مباشرة تراقب ما أقوم به، واستطعت أن أرى بوضوح رغم قلة الإضاءة بالغرفة أن دموعا انحدرت من مقلتيها لربما هو ذلك الحنين الدفاق إلى الأب وروحه الجميلة، خاصة أنه لم يعد يتكلم إلا بصعوبة.. في حين نحف جسده كثيرا .

كلانا كان يبكي في تلك اللحظة، ولم نتمالك أنفسنا، لم أدر بالضبط ما الذي جرى حيث إنها أسرعت لاحتضاني بدلا من أنا أكون أنا المبادر، ضمتني إليها بقوة. لم يكن ذلك شبقا أو نوع من التسلية المؤقتة، كان إحساساً آخرَ بدفءٍ مفقود، يعيدك إلى تلك الغريزة التي تحسها ساعة يكون لك أخت أو أخ بحق وحقيقة، وساعة يكون لك والد وعائلة تحبها . وشعرت بقوة أن هذه عائلتي وأن هذه أختي، كان قلبي يضرب بقوة، ولم أكن أكذب على مشاعري أبدا . وكانت هي الأخرى تبادلني تلك الخاصية الإنسانية العجيبة نفسها، ساعة يحتاج الجسد إلى الجسد لأجل شيء غامض غير تلك اللحظات العابرة. أخذتني من يدي، كانت تضغط بشدة على كفتي، وجلسنا سويا في الساحة الخارجية للبيت مرة أخرى، قالت لي:

"لا أعرف كيف أشكرك على حبك لوالدي.. أنت شاب نبيل"

لم أعرف كيف أرد عليها، أو أعلق، فأحيانا يكون الإطراء مدعاة للصمت الإجباري، لأنك لن تجد أفضل مما قيل.. وسمعتها تقول أيضا :

"والدي يحبك جدا .. لا أبالغ إن كان حبه لك يفوق حبه لي.. مرات كثيرة ساعة كان يزورنا في تركيا كان يتذكرك ويطري عليك، يتحدث عنك كنعمة هبطت من الجنة.."

وابتسمت وسط دموعها التي ما زالت متدفقة، ضربت على خدي بحنان، تقول:

"ما السر الذي فيك.. فعلا أنت صغير السن.. أمامك سنوات طويلة في الحياة، لكنك ذكي ونشيط وتحب أن تكون أنت"

شعرت بأنها تفيض حكمة مثل والدها، يبدو أن ذلك الشيء متوارث عند العائلة، كانت تريد أن تحكي معي الكثير جدا .. هل كانت تبحث عمن يسمع لها وهي صامتة أغلب الساعات منذ أن قدمت إلى هنا؟ أم أنها كانت قد أحبتني بحق لتفضفض لي بتفاصيل قد لا يكون من الضروري قولها من الوهلة الأولى. قالت لي إنها تزوجت ذا القرط لأنها أحبته فعلا، هو أكبر منها بخمس سنوات تقريبا .. كان يسكن جار لأهل أمها .. في بنايتين متجاورتين.. كان يأخذها بالسيارة معه في الطريق إلى مكتبها بالصحيفة التي تعمل بها .. حدث ذلك بعد أن تطورت علاقتهما .. الحكاية طويلة.. المهم أن العائلتين تعارفتا .. وتعمقت العلاقة.. لكن مع الأيام والسنوات اكتشفت عمق الجرح الذي وقعت فيه بعد فوات الأوان إنه يعاني من مرض عصابي مستعص ومتوارث عند عائلته، فوالدته ووالده وأخوته كلهم يعانون من هذه الحالة. قالت لي وهي تذرف المزيد من الدموع دون أن ترفع يدها عن كفتي:

"لقد أحببته بحق.. وكان صعب التراجع بعد كل هذه السنوات.. ليس لهذا أن يحدث.. صرت لا استطيع أن أعيش دونه.. وصار مرضه الذي ينتابه من مرة لأخرى.. مدعاة لتعاطفي الكبير معه.. هو إنسان رقيق وحساس وجميل جدا .. أصدقاؤه المقربون منه يعرفون ذلك.. ولهذا لا ينزعجون من تصرفاته"

سألتها:

"هل تعرف عمتي ذلك؟"

قالت:

"لا.. هي لا تعرف عنا شيئا.. لا أنا ولا هو.. لهذا قد تكون منزعجة منه"

سألتها:

"يعني ذلك ألا أغضب منه.. أتعرفين ماذا فعل معي؟"

"لا أعرف.. لكنه يمكن أن يفعل أي شيء.. ماذا حدث.. هل بصق في وجهك.. هل شتمك.. مثلا.."

"لا.. لقد هددني بالقتل.. جاء يحمل مسدسا وأنا أغادر المحل"

دخلت في نوبة ضحك، رأيتها تضحك كما لم يحدث ذلك من قبل، قالت لي موضحة:

"هذا المسدس ليس فيه ولا رصاصة واحدة.. هو يحمله معه أغلب الوقت ويهدد به من أراد.. صدقني هو لا يقدر على قتل بعوضة.. هذا إدعاء فارغ منه.. إنها الحالة التي يعانيها"

"لكن ماذا لو أن هناك رصاصة.. ألن يضغط على الزناد؟ ألن يقتل أحدا؟"

أطرقت قليلا، ردت:

"ممكن أن يحدث ذلك.. ساعتها سيكون الوضع مختلفا.. المهم أنت الآن بخير.. شاهد ماذا سيفعل معك في الغد.. صدقني هو يحبك جدا.. ويعرف قصتك وحب أبي لك.."

"لكنه يشتم عمي كثيرا"

"هذه حالته.. حتى عندما يزورنا أبي.. هو يفعل ذلك.. غير أن والدي يتفهم الوضع تماما.. لديه تخوف أن أبي يأتي ليقتلعني منه"

تكمل:

"هو يعرف جيدا أنه مريض وأن هذا قد يكون سببا في أي نتيجة غير محبذة لا قدر الله، تجعل أبي يتحرك بشيء ما ضده.. هو طبعا يتوهم أمورا لن تحدث"

"ولكن ألم تجربا علاجا ما.. عيادة نفسية؟.."

"هو يتعالج منذ سنين.. الحالة قلت كثيرا عن الماضي.. غير أن الشفاء النهائي كما يقول الطبيب المشرف عليه يحتاج إلى المزيد من الوقت.. هو يوصي بأن لا نقيد حركته ولا أفعاله أن نتركه يتصرف مثل طفل"

"ألهذا أنت لا تسألينه أين جاء ولا أين ذهب ولا تتدخلين في أموره؟"

"تقريبا ذلك.. غير أني أفكر فيه كثيرا.. أفكر فيه جدا"

في تلك اللحظات قلت لنفسي إنني كنت سأكون مخطئا إذا ما قمت بأي تصرف غبي، في تلك اللحظة الشهوانية، كانت النتيجة ستكون كارثة تنقلب علي.. أحمد الله أنني عبرت بأعجوبة.. فالمرأة تحب زوجها جدا، وهي تحبني أيضا ولكن بطريقة مختلفة.. هي ترى في صورة مكملة لها كأخ وليس ككائن شهواني، حتى لو أنني معجب بوسامتي منذ ذلك اليوم الذي كلمتني زوجة خالي عن وجهي الجميل.. صحيح أنني أعرج ومقوس الظهر قليلا، غير أنني يمكن أن أفتن النساء.. أنا أعرف ذلك عن نفسي.

أستأذنتها للذهاب إلى النوم، فقد تأخر الوقت وعمل كثير ينتظرني في الصباح، كانت هي التي طبعت قبلة على خدي.. أحسست بملمسها المثير، دون أن أفكر في أي شيء آخر.. وأسرعت إلى غرفتي أنام هادئ البال، وأنا أفكر فيها طوال الليل ما بين يقظتي وأحلامي.. تمنيت لو أن زوجتي القادمة في علم الغيب تكون على شاكلتها، تشبهها بشكل ما، وتأخذ من تقاطيع وجهها ومن عينيها ومن روحها التي سرت في أوصالي. كانت صورتها لا تفارقني إلى أن استيقظت في الصباح لأجد ذا القرط واقفا في منتصف الصالة وهو يتثاءب، نظر نحوي وحياني كأن شيئا لم يحدث ليل أمس، قلت إن زوجته على حق، فعلا هو يعاني من مشكلة نفسية معينة، هي تعرفها جيدا، لهذا قادرة على أن تتعامل معه وتدير علاقتها، كان الله في عونها.

مررت على عمي، قبل أن اتخذ طريقي إلى العمل، كان شبه مغمض العينين.. وفي ذلك الصباح الباكر كانت الأحوال ليست على ما يرام، يبدو أن شيئا غامضا جديدا يحدث في البلد، كان الناس يتهامسون عن سيطرة فصيل من الجيش على الأوضاع في المدينة الكبيرة وأن كتيبة قادمة من الأقاليم البعيدة لكي تعيد الوضع إلى ما كان عليه سابقا، كان العسكر منتشرين في كل مكان تقريبا، ودبابات قد عبأت الشوارع، متى تجمعوا وبهذا الشكل، فعند عودتي للبيت ليلا بعد أن تركت ذا القرط مرميا على الأرض، كانت الشوارع هادئة ولا أثر لسوى الأضواء المتناثرة على الأسفلت. لكنها طبيعة الحياة هنا، لابد للجيش أن يقفز في أي لحظة لكي يسيطر على الأمور بحجة أن الفساد قد عم وأن البلاد قد دخلت في نفق مظلم.

لم استطع أن أصل إلى محلنا الثاني بجوار مقرن النهرين، وعدت إلى البيت راجلا أمشي لمسافات طويلة حتى أنهكت، كانت نقاط التفتيش كثيرة لا عد لها، لا يفصل بينها سوى أمتار، وكانت البنادق مصوبة اتجاه كل من لا يحترم الامتثال لضباط الجيش الذي يصدرون الأوامر للجنود من على سياراتهم العالية ذات اللون الأخضر والمنقطة على شاكلة جلد نمر. وعندما وصلت البيت كان ذو القرط يجلس أمام شاشة التلفزيون الصغيرة في الصالة، وقفز عاليا وهو يخبرني:

"جنرال جديد يستولى على السلطة في بلادكم.. ألف مبروك"

كدت أن أقول له لا غرابة هذا ما تعودته بلادنا، منذ الاستقلال ونحن نخرج من ورطة جنرال إلى آخر.. سألته:

"من اسمه؟"

وكنت أدرك أن الاسم ليس مهما، لأن الذين يظهرون فجأة على المنصة والشاشة يكونون نكرات في الماضي، لا أحد يعرفهم مطلقا، من أين يأتون لا أحد يعلم.. وتداعى لي صوت ذي القرط يخبرني مخترقا صوت ضجيج وهتافات في الشارع المجاور، يصعب تمييز ماذا يقولون بالضبط، يبدو أن حصار العسكر للشوارع قد انتهى:

"يلقبونه بالصقر الجارح.. لقد قدموه في التلفزيون بهذا الاسم"

"تعني لم يذكروا اسمه الحقيقي"

"ربما ذكروه لم أركز.. لكن المذيعة كانت تكرر لفظة الصقر الجارح"

تداعى لي هذا الاسم.. كأنما سمعت به من قبل.. أحيانا نسمع بأسماء أو نرى أشخاصا ونعتقد أن ذلك قد مررنا به من قبل.. هل أنا متأكد من سماعي لهذا الاسم.. هل هو أحد الزبائن المرموقين من ضباط الجيش الذي يأتون إلى محلنا في النصف الثاني من المساء، ويأخذون كميات كبيرة من الطعام، ثم ينطوون في العتمة ثم يعودون بعد ليال أخرى. لم استطع الوصول إلى نتيجة محددة، وحسمت المسألة على أنها مجرد وهم في ذهني، لا أساس له.. فيمكن للعديد من الناس أن يطلق عليهم لقب الصقر الجارح.

كان ذو القرط مبتهجا كأن الانقلاب العسكري حدث في بلده أو أنه سيكون شريكا في الحكومة الجديدة، وهرب من أمامنا أنا وزوجته إلى الساحة الخارجية، ثم رأيناه يحمل عصا من بقايا سيقان أشجار النيم المتساقطة جوار بوابة البيت، ويسرع بها إلى الشارع لنسمع صوته يقترب وينأى وهو يهتف مع الجماهير التي كانت تعبر من أمامنا، كانوا واضحين من خلال زجاج النوافذ في الصالة، يسابقون بعضهم، ويحملون أعلاما ملونة ويربطون شارات على الجباه. نظرت ابنة عمي باتجاهي وهي تحرك رأسها دلالة على التعجب المغلف بالابتهاج، قالت لي:

"هو هكذا لا يتغير ولن يتغير"

صمتت قليلا قالت لي:

"المهم هذه لحظة تاريخية في بلادكم.. سأكتب عنها ذات يوم في أحد كتبي"

وسألتني وهي تقترب مني لتقف جواري عند النافذة:

"هل تحب أن أكتب كتابا عنك يروي قصتك؟"

نظرت للوراء، رأيتها تكاد تلتصق بي.. كانت رائحة عطر فواح جميل تنبعث منها، أحببت هذا العطر، صار متعلق عندي، في ذاكرتي كرمز لهذا اليوم التاريخي كما أسمته هي.. وعبرت لها بملامح وجهي عن إعجابي بفكرتها حتى لو أنني لا أفهم في الكتب التي تروى القصص كثيرا. ومضى ذلك اليوم طبعا دون عمل.. كانت الأفراح مستمرة حتى المساء وتأخرت عودة ذي القرط، كما تأخرت عمتي التي لم نعرف أين ذهبت، هي نادر ما تتغيب دون سبب. كان عمي وحيدا في غرفته يرتفع صوت كحته ثم ينخفض رويدا.

قبل حلول فجر اليوم الثاني.. كانت الشوارع قد خمدت، لأن السلطة الجديدة أعلنت حظر التجوال. وقبل ذلك بساعة أو أقل كان ذو القرط قد عاد منهكا واستسلم لنوم عميق على الأريكة بالصالة وهو يلقي باللعنات المتواصلة على الجنرال الجديد، هذه المرة كان عمي قد نجا من شتائمه. وبعده ظهرت عمتي، كانت منهكة وأسرعت لدخول غرفتها، وأغلقتها عليها، دون أن تتكلم معنا، اكتفت فقط بإلقاء التحية. لم نفهم أنا والابنة ما يجري بالضبط. وكان علينا أن ننتظر، ودار ببالي أن غيابها هذا لابد مرتبط بمرض عمي، ربما تبحث عن دواء عند أحد هؤلاء المشايخ من رجال الدين، هي تؤمن بقدراتهم على الشفاء، أو ربما هي تستعين بواحدة من تلك النساء اللائي تعتقد في خبراتهن بشأن الأمور الغيبية، فقد سبق أن لمَّحت لجدوى هذه العلاجات بشأن مرض عمي.

قبل منتصف الليل، وكنا لم ننم بعد، جالسين أنا والابنة في الصالة نتسامر في أمور متفرغة، نادت عليّ العمة بأن آتيها في غرفتها. وذهبت إليها لتدخلني وتغلق الباب. طلبت مني أن أجلس، وقالت لي:

"لا أظنك تجهل ما يعانيه أبوك"

لم أكن لأكذب عليها، أجبتها:

"أنا أعرف.. الطبيب أخبرني"

صمتت قليلا، لا يمكنني التكهن بما تفكر، قالت:

"على أية حال.. أنا أنفقت يومين في البحث عن دواء يمكن أن يفيده.. لقد سافرت إلى سيدة هناك في الشمال.. يقولون إنها أنقذت الكثيرين من الموت"

"وهل عدت بالدواء؟"

"لا أبدا.. هي تطلب مالا كثيرا.. لا أعرف من أين سنتحصل عليه؟"

"كم تريد بالضبط؟.. لدينا المال"

كنت أقول ذلك رغم عدم قناعتي بفكرة عمتي.. وعدم ثقتي بهؤلاء الناس الذين يتعيشون على الخداع.. أعلم ذلك جيدا.. كان بإمكاني أن أقول لها أن عمي وبمعايير الأطباء يصعب شفاؤه وعلينا فقط أن نصبر وندعو له الله، ما سوى ذلك ليس إلا باطل وتبديد للوقت والمال.. غير أنها لن تقتنع بغير ما تفكر فيه.. وقد يدخلها الشك في أنني لا أرغب في شفاء عمي.. ربما تظن أن الطمع دخل قلبي..

"كثير.. كثير جدا.. يا ولدي"

نطقت بالمبلغ كان رقما كبيرا جدا يكاد يفوق حجم ما نحصله في عام كامل من العمل بالمحل القديم.. وكدت أن أقول لها لا هذا غير منطقي، إنه جشع وكذب.. وتمالكت نفسي.. وقد لاحظت هي تغير تعابير وجهي، فقالت:

"أعرف أنك كنت ستتفاجأ بالمبلغ.. ولكن إما نخسر المال أو أباك"

كانت مؤمنة إلى حد كبير وواضح بما تقول، ولا مجال للمضي معها في أية محاولة للإقناع بعدم جدوى ما تقوم به أساسا، فهي في هذه الأمور لا تنثني بسهولة.. بدر لي سؤال:

"هل حدثتك تلك السيدة عن طبيعة الدواء الذي سوف تقدمه لنا؟"

"لا هي رفضت الإدلاء بأي كلام سوى أن يحضر المال أولا.. وبعدها سوف تأتي هي بنفسها لتشرف على العلاج.. ستبقى لعدة أيام إلى أن يتحقق الشفاء.. أنظر لو أنها مخادعة كما يقول لك ذهنك لقدمت لنا الدواء وشرحت طريقة استخدامه ولما قالت إنها ستحضر بنفسها.. أعرف عقليتك أنك مثل أبيك لا تعترف بهذه الأمور"

لم أعلق.. وفعلا لو كان عمي كما ينبغي ولو استشير لرفض الموضوع برمته فهو لا يؤمن بهذه الأمور أبدا.. وأجبتها:

"الأمر لا يتعلق بهذه التفاصيل.. كل ما يعيد أبي لعافيته سوف نفعله.. لكن.."

قاطعتني بهدوء:

"المال.. أعرف أنه ليس لدينا هذا المبلغ.. حتى لو أننا بعنا أحد المحلين.. على الأقل يبقى لنا واحد.."

أجبتها بعد تفكير لوهلة صغيرة:

"لدي حل آه.. لكنه لن يصلح الآن.. كان يمكنني أن أرهن المحلين لأحد السياسيين ويقدم لنا المال مقابل أن نعيده في زمن محدد.. أعرف بعض من كانوا سيقدمون لنا العون.. اعتقد ذلك.. لكن الوضع في البلد الآن أربك كل شيء.. لسنا متأكدين من أوضاع الجميع.. من سيبقى ومن سيزول؟ لا أحد يقدم العون في مثل هذه الظروف"

فعلا كان التوقيت حرجا.. وفي مثل هذه الظروف تصبح كافة الحلول صعبة.. لأن البنوك هي الأخرى صدرت أحكاما مشددة بشأنها منذ اليوم الأول.. مع فرض تغيير للعملة وتحديد حصة كل فرد من المال الذي يمكن أن يخرجه من البنك.. ولم يكن من حل أخير نفكر فيه سوى أن نبيع البيت، الحل الذي جاءت به عمتي.. لا حل سواه.. أن نبحث عن مشتر وبأسرع وقت وننتقل لشقة صغيرة بالإيجار، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.. واتفقنا أنا وعمتي أن هذا هو الحل الأخير.. ورجتني بأن أبدا سريعا بالبحث عن ذلك المشتري، وبدر لذهني حل أسرع، قلت لعمتي:

"هل تقبل هي بأن تأخذ البيت مباشرة؟"

ابتسمت رغم ما يبدو عليها من الضيق والترقب، ردت:

"أعرف أنك ذكي.. كان هذا المقترح عندي وعرضته عليها سلفا، لكنها رفضت، فهي لا تريد سوى المال فقط"

"إذن عليّ أن أفكر في البيع.."

لطوال يومين فعلت ما بوسعي لكي أبيع البيت.. لكن محاولاتي باءت بالفشل، فلا أحد لديه مبلغ كاف في ظل الظروف التي فرضتها السلطة الجديدة والتقييد على خروج العملة من البنوك، كما أن من ضمن شروط السيدة أيضا أنها لن تقبل شيكا، تريد أوراقا تحسبها وتتأكد منها لتبدأ العمل.. لا أحد لديه المال الكافي تعني أنني وجدت مشترين بالفعل.. صحيح أن اثنين من الزبائن المحترمين وأصدقاء العم رغبوا في الشراء طبعا دون أن يعرفوا السبب وراء فكرة البيع، لأنهم ربما لو علموا لاعترضوا، فلا يزال هناك يوجد أناس خيرون. أعرف أنهم يفكرون بطريقته ولن يقبلوا هذا الابتزاز الواضح، لكن ماذا أفعل مع عمتي، ليس من سبيل لإقناعها.

كانت الابنة قد أحست بالأمر أن ثمة ما يحدث، ولم أكن لأخبرها بناء على توصية العمة، هي شعرت بغيابي الطويل عن البيت رغم أن العمل شبه متوقف في هذه الأيام بسبب ساعات حظر التجوال الطويلة، كما أنها لابد لاحظت أن تعابير وجهي وتقاطيعي ليست على ما يرام، كما لو أنني أبدو حزينا أو يائسا، وأحاول أن أتماسك. وكان هذا حقيقي بخصوص حالتي وتنازعي ما

بين أن يشفى عمي بأي شكل كان، لو أن هناك حلا بجد، وبين هذه الرغبة الجنونية لعمتي في بيع البيت.

في المساء الثاني قلت لعمتي:

"لا يوجد حل يلوح في الأفق.. لا أعرف ماذا أفعل"

نظرت نحوي متضايقة، قالت لي بلهجة غاضبة:

"أبوك يموت وأنت لا تعرف كيف توفر المال لعلاجه.. أين مدحه بشأنك وأنك عبقري؟"

لم أكن لأغضب منها، أعرف أنها تتصرف وتتكلم من داخل ما تعيشه من ألم وعجز، وأنا الآخر أشعر بالعجز.. ليس من حل عندي إلا أن تحدث معجزة سماوية كما يقال.. يمكن للمعجزات أن تكون ولو لمرة واحدة في العمر، كما يقول عمي مرات.. وساعتها تنحل كل المشكلات ويشعر الإنسان بأن قانون القدر أقوى من كل التفكير البشري وعزائم الناس وبحثهم عن الحلول بطرق منطقية عجولة.

مرة حدثت معجزة ساعة جاء صاحبي العجوز وأخرجني من السجن، ثم اختفى. ولكن هذه المرة لا يبدو ثمة ما يلوح وراء الأفق. رغم ذلك كان قلبي يوشوش لي بأن الحل قادم. لابد من حدوث أمر ما. وقفز ذلك الشيطان العجيب الذي يطل أحيانا على الدماغ، ليقول لي، حتى لو أن ذلك الحل كان الموت، نهاية العم. استغفرت ربي. وقلت لنفسي، ما هذه العادة السيئة التي تلاحقني، كيف لي أن أتحكم في ذلك المكان المجهول داخلي الذي يحرك بعض الأفكار المزعجة. ترى هل يحدث ذلك لكل الناس. اعتقد ذلك. وإلا لما تحول بعض الأخيار إلى أشرار فجأة ودون مقدمات أو مبررات منطقية.

كنت شعرت بالضيق، ولم يكن ثمة من فكرة في ذهني أفعلها. وقررت أن أصلي بضع ركعات علّ الله يساعدني في أن أصل لنتيجة مع هذه الأمر، وبالفعل ذهبت إلى المسجد القريب من البيت، لم يكن ذلك التوقيت لصلاة معينة، لكن أبواب المسجد لا تغلق، حيث يجد فيه الكثيرون مرتعا لتقضية الليل والنوم تحت المراوح المتدلية من السقف العالي. وما أن توضأت إلا ودخلت في صلاة عميقة. أظنني صليت كثيرا ولم انتبه، حاجتي لعون الله أوجدت في نفسي هذا الاستغراق الذي أجهل معه ما الذي أقوم به بالضبط. وبين ركوعي وسجودي، ومع قيام أحد الحضور بالمسجد من خفض الإضاءة بإطفاء عدد من اللمبات، يخال لي أنني رأيت كائنا يتحرك أمامي قريبا من النافذة التي أصلي بجوارها. رأيته أم لا. لست متأكدا تماما. طبعا لم أقطع صلاتي، وما أن أنهيت الركعة الثانية، حتى هرعت للخارج لأتلمس من على البعد شبح رجل كان قد ابتعد في الشارع، وتلاشى وسط الظلام، حيث سيكون صعبا اللحاق به، إنه صاحبي نفسه، العجوز يظهر مرة أخرى. وبدأت أبحث حولي، هل ترك لي شيئا معينا، لربما هناك حقيبة أو مخلاة معبأة بالمال جاء بها لأجلي. كانت هذه مجرد أوهام، فلا حقيبة هنا ولا مخلاة ولا مال. وعدت إلى البيت في حين أن الصورة

راسخة في ذهني، وكان شعور جميل يغمرني بأن الفرج قريب حيث استبشرت خيرا بظهور صاحبي.

وأنا أطل على عمي، الذي كان في نومته ويكح بصوت منخفض، رآني ذو القرط، كان جالسا في الصالة يقرأ.. لأول مرة أراه ممسكا بكتاب.. كانت إحدى كتب زوجته، التي يبدو أنها ذهبت للنوم مبكرا. ناداني بأن أجلس معه لبعض الوقت، وصار يقرأ لي فقرات من الكتاب بصوت عال. لم أركز معه، ولم أهتم فقد كنت مشغولا بأمري وقصة الرجل العجوز والمال المتخيل الذي من المفترض أنني تحصلت عليه. كان قد لاحظ ذلك أنني لست معه وغير مهتم، فوضع الكتاب جانبا مقلوبا دون أن يغلقه، سألني:

"ما بك.. هل ما زلت غاضبا مني؟"

"لا أبدا لست غاضبا.. فقط ثمة أمر يشغلني.. مشكلة صغيرة أحاول حلها"

طبعا ما كان لي أن أشرح له أو أوضح طبيعة ما يقلقني. لكنه نظر نحوي بقوة وقال بعد صمت قصير، كأنه فكر في أمر ما:

"معظم مشاكل الدنيا سببها المال.. هل مشكلتك متعلقة بالمال؟"

لم أجبه، حافظت على سكوتي. وسمعته يكرر السؤال من جديد، في الوقت الذي كانت فيه عمتي قد جاءت، من أين، وأين كانت، لم أركز. فقد كانت تقف أمامنا، وقد سمعت غالبا جزءا من الكلام بيننا.. كانت لا تزال متوترة وغاضبة، وغير قادرة على التحكم بمشاعرها، ذكرتني بتلك الأيام التي تلت إغلاق المحل بسبب جريمة القتل التي أقدم عليها البدين، وتضايقها مني وقتذاك بسبب إنني غريب.

واجهت ذا القرط وهي تكاد تمسك بفكه الأسفل، قائلة:

"ألديك حل أيها المخنث.. الأمر يتعلق بالمال.. نعم لا شيء آخر.."

وقف ذو القرط، وقد تفاجأ بوجود السيدة أمامه، كذا وصفها له. لم يتوقع ذلك كما يتضح من ملامحه التي كانت خجولة بعكس عادته. قال بأدب ردا على العمة:

"يمكنني أن أساعد في الأمر.. كم يطلب بالضبط؟"

ردت عمتي وقد زادت حدة في غضبها:

"تساعد.. أنا الذي أطلب وليس هو.."

قال لها وقد بدا كرجل متماسك يمكن الوثوق به بغير صورته القديمة في أذهاننا:

"لا فرق عندي.. أنا جزء من العائلة.. هل هذا غير صحيح؟"

شعرت عمتي بالحرج قليلا.. تراجعت للوراء.. ردت عليه:

"عذرا ابني.. أنا منهكة وتعبة.. والأمر يتعلق بعمك لابد أن نعمل لأجله شيئا.. هذا هي المشكلة برمتها.. لم نكن نريد أن نقلقكم.. نعرف أن المال يصعب الحصول عليه في هذه الأيام.. لم تعد الحياة سهلة كما في الماضي"

كشف عن ابتسامة بانت معها سنة ذهبية لأول مرة أنتبه لها، قال لعمتي:

"لم تكن الحياة سهلة ذات يوم يا عمتي.. هي هكذا على الإطلاق"

تقدم نحوي، أخذني جانبا، بعد أن أستأذن عمتي.. وطلب مني أن أوضح له ما المطلوب بالضبط. ولم يكن ثمة مفر من إخباره، فقد كشفت عمتي سلفا عنه. وقلت له بصراحة كل القصة لم أحجب شيئا، كنت أتوقع أن ردة فعله ستكون ممانعة هذه الطريقة من العلاج التي تقترحها عمتي.. وأنه سيصفها بالاحتيال الواضح.. غير أنه أبدى العكس تماما، قال لي:

"أحيانا تكون هذه الحلول أفضل.. أعرف سلاطين كبار في تاريخ تركيا عولجوا بطرق بسيطة لم تخطر على البال"

أردت أن أوضح له، وقد فهم مرادي سلفا، فقاطعني مختصرا الأمر مضيفا بجدية:

"قل لي كم تحتاجون بالضبط؟"

أخبرته بالرقم.. وأيضا كانت ردة فعله مفاجئة لي.. فالرقم بالنسبة له عادي جدا كما أرى أمامي.. قال لي:

"يومان وأرتب لكم المبلغ.. سأسافر إلى تركيا وأعود"

أخبرت عمتي.. بقدر ما كانت فرحة تكاد تجن، إلا أنها كانت في أشد الاستغراب لتصرف الرجل. قالت لي:

"ما كنت أظنه ذا قيمة.. كان تقديري بشأنه مخطئا"

لم أعلق، اكتفيت بأن طبعت قبلة على خدها.. ورأيتها تبكي فرحا.. وهي تهرول في الصالة ومن ثم إلى الساحة بحثا عن ذي القرط، لتحتضنه إليها بقوة وهي تصدر عويلا مسموعا.. وهي تقول:

"ولدي.. عذرا يا ولدي.. لم أكن أقصد إهانتك أبدا"

مضى الليل سريعا باتجاه الفجر.. ورقد ذو القرط على الأريكة في الصالة وهو يقاوم النعاس، يقع الكتاب منه ثم يرفعه وهكذا إلى أن استسلم للنوم.. كنت أراقبه وأنا أعيد التفكير فيه، وكيف أنني لم أقدره جيدا في البداية، وفي الوقت نفسه كنت أشعر بأسى لحالته لاسيما بعد ما سمعته من زوجته بخصوص مرضه العصابي. وما أن استغرق في المنام إلا ويبدأ يكيل شتائمه المعتادة في مثل هذا الوقت لعمي.. وهذه المرة أضاف عمتي لقائمة الشتم. كانت تسمع من بعيد ما يقال وهي تضحك، فالمهم أن الرجل ساعة يكون مستيقظا سيكون طيبا. الغريب أنه في هذا المساء لم أره يدخن أبدا، لم تكن هذه عادته لربما لأنه غير ثمل.

7

هي الأقدار الإلهية الغامضة.. لا أحد يا ولدي يمكن أن يفهم ما الذي يجري اليوم ولا غدا. ولا أحد يفهم كيف للحياة أن تتصرف معنا. كان ذو القرط قد أوفى بوعده وسافر في الظهيرة إلى تركيا.. وكانت زوجته قد علمت بالأمر منه، وبدت فرحة أنه سيساهم في أن نكون سعداء، حتى لو أنها لم تكن مقتنعة بفكرة عمتي، وناقشتني في الموضوع على أنه احتيال، غير أنها كانت ترى أنه ما دام ثمة أمل فلابد من الإقدام عليه، لأن الإنسان عليه أن يجرب حتى الأشياء التي قد تبدو غير ذات جدوى. وسرعان ما مضى يوم. وآخر. ليحدث ما كان القدر يخبئه لنا.

في الصباح التالي، كنت قد خرجت للمحل الجديد، أفكر في كم تكون ثروة ذي القرط، فقد قالت عنه زوجته إنه من عائلة تملك الملايين والملايين فالذهب عندهم مثل التراب. أفكر في ذلك بحجم المفارقة ومقياس الكد والنجاح في الحياة، فأنا وعمي نعمل منذ سنوات طويلة ونظن أننا أثرياء، ليظهر موقف بسيط نكتشف فيه أننا ضعفاء عن مواجهة الأرقام.. الجشع البشري.. فالثري الحقيقي يكون قادرا على تلك المواجهة.. على فعل كل شيء.. كيف يصنع هؤلاء الناس هذا الثراء؟ كان السؤال يشغلني؟ ما الذي يمكن أن يفعلوه غير العمل ثم العمل.. لكن تذكرت أن الأعرج مرة قال لي إن المال الكثير جدا لا يأتي بالكفاح اليومي، وإنما بوسائل أخرى، لا يقدر أغلب الناس على الاستمرار فيها إما خوفا أو لأنهم يمتلكون الضمير.. فالشيء الوحيد الذي يتطلبه جمع المال أن تقتل قلبك وتسير بدونه. أنسى كل شيء سوى نفسك.

غاب ذو القرط.. ظننت أنها يومان ويعود.. هو لم يتأخر.. فقد بعث أحدهم قبله، لكي يأتي بالمال. كان الرجل قد وصل إلى المطار ليلا كما علمنا لاحقا، يحمل حقيبة مكدسة بالدولارات.. كان ثمة خطأ ما.. أو خديعة يرتكبها القدر، بحق هذا الغريب الذي يأتي إلى السودان لأول مرة.. وكان ثمة ترتيب آخر لا أفهم إن كان مقصودا أم لا أن يتأخر ذو القرط لكي لا يقع في الشرك، ويصطاد من قبل رجال الأمن الاقتصادي، الذي انتشروا يتكاثرون في الأيام الأخيرة، فالحكومة الجديدة فرضت قيودا عديدة على حركة المال، ولم يكن أحد يتوقع أن يصل الأمر إلى الإعدامات لأبرياء، وأحيانا وسطاء أو أصحاب عملات أجنبية لمجرد أن قرارا صدر من رجل يدعى مساعد الرئيس يقول إن أية عملة غير وطنية تضر بالاقتصاد الوطني ويعاقب حاملها بالقتل.. كان ذلك هو القانون والشريعة التي وجد الكثيرون ممن زج بهم في السجون أنفسهم مقابلها، وبعدها كان لا فرار البتة. ليس من مخلص بعد أن وقعت الخديعة.

كانت عمتي تظن أن ذا القرط مخادع ولهذا تأخر، ربما وصل إلى بلده وهناك علم بقيمة المال الذهب وقرر عدم العودة أو تناسى الأمر، لكن زوجته لم تكن تشك فيه أبدا، قالت:

"لم أعرفه يكذب ساعة يعاهد على عمل معين أو أمر ما"

كانت عمتي في أشد حالاتها بؤسا، وقد ضاق بها الحال، وكانت تتكلم بصوت عال وتقول لنا:

"كنت أعرف إنه مخادع.. أراد أن يهرب.."

يهرب ولأي شيء ولماذا؟ لم تكن لتحمل تفسيرا، أو توضح لأحد، فقط عليها أن تطلق الأحكام بعد أن فقدت منطقها في ظل تعثر حالة عمي، وإيمان العمة الكبير بأن الفرج لن يأتي إلا عبر تلك الدجالة الجالسة هناك في انتظار المال لكي تنهض وتعالج عمي. أنا أعرف أنه خداع، وكنت أنتظر عودة ذي القرط لكي تحل المشكلة، فقد كان يغمرني شعور مجهول السبب أن الرجل لا يكذب. وظللنا هكذا في الانتظار إلى جاءنا الخبر بعد عشرة أيام ساعة وصل محقق بزي مدني، في المحل الجديد، قدم بطاقته على أنه رجل أمن اقتصادي، وأن مكلف بالتحقيق معي.. وسألته ما السبب، أجابني:

"ساعة تصل إلى مكتبنا سوف تعرف كل شيء"

وهناك جلست في مكتب صغير لا يوجد فيه سوى كرسي واحد، وطاولة خشبية قديمة وثلاثة رجال يبصقون كثيرا على الأرض وهم يرتدون ملابس مدنية، أحدهم بنظارة سوداء داكنة يخيّل لي أنني رأيته من قبل، في إحدى تلك المرات القديمة ساعة دخلت المعتقل يوم هاجموا الكنيسة، ولم يكن ظني ليخيب هذه المرة، فقد كلمني الرجل:

"أيها المسيحي.. هل كنت تظن أنهم سوف يفعلون لك خيرا.. إنهم يستخدمونك ثم يرمونك.. كلهم يمارسون هذا الدور"

لم يبد أي مقدمة، فقط دخل في الموضوع مباشرة، وكأن حديثا كان بيننا من قبل، ثم قال لي:

"ليس مهما أن تعرفني أو تتذكرني.. لأنك الآن أصبحت مهما..

وضحك بصوت عال.. وبطريقة غير لائقة.. ثم اتجه إلى باب الغرفة خبط عليه، ثم نادى رجل آخر، وقال له:

"تعال لتتصرف مع هذا الأعرج ذي الظهر المقوس"

من جديد أجد نفسي في مواجهة عاهتي.. أصبحتا عاهتين.. هذا قدري.. وصمت لم أتكلم فقد اكتسبت قدرة على الصبر والمواجهة بالسكوت أمام هذه النوعية من البشر، هم مليئون بالحقد والحسد وكافة الأورام القبيحة من مصائب الدنيا.. هم انعكاسات لمرايا زمن فاسد.. كانت عمتي قد نعتتهم بهذه الصفة ساعة سمعت مني القصة لاحقا..

قال لي المحقق:

"لأي غرض سوف تستخدمون هذه الملايين؟"

"أي ملايين؟"

"لا تدعي أنك لا تفهم.. فنحن نفهم؟"

"أنتم تفهمون أما أنا فلا.."

اقترب الرجل مني ليصفعني.. في حين كان ذو النظارة السوداء يتسلى بالضحك والدعك على قضيبه الذي كان فائرا .. هؤلاء قوم لا حياء لهم.. طبعا لم أحك لعمتي هذه الجزئية.. فقد انصرفت لرواية بقية ما جرى معي..

المهم أنني علمت أن الأمر يتعلق بذي القرط.. وتحديدا بالرجل المسكين الذي صار ضحية.. هو الآن معتقل في سجن بعيد خصص لمافيا الدولار.. كما أطلقوا عليهم.. أخبروني أن الأموال قد صودرت ولا تراجع عن ذلك.. وأن الحكم سوف يصدر خلال يومين من خلال محكمة مختصة داخل السجن.. وغالبا سوف يكون بالإعدام.. ليس هناك عقوبة أقل لتقدم.. هذه تعليمات المساعد الكبير..

"لكن هذا الرجل لا ذنب له"

قلت، لأسمع ذو النظارة السوداء يواصل سوءه وهو يقول:

"كلهم يقولون ذلك.. إنهم أبرياء"

قاطعته:

"لكن هذا سوف يدخل البلد في مشكلة مع بلد آخر.. هذا ليس مواطنا"

ضحك ذو النظارة وهو يرد:

"الصقر الجارح لا يريد لبلادنا أن تعتمد على أحد.. ألم تسمع خطابه بالأمس.. وحدنا قادرون على بناء هذا البلد ومن الصفر... ههههه هههههه ...ههـ "

ما زالت تلك القهقهات تطاردني في الليل وأنا عاجز عن النوم في حين كانت عمتي تذرع الصالة ذهابا ومجيئا ثم تصل إلى البوابة الخارجية مع هزيم الريح التي كانت تضرب النوافذ والأبواب بعنف، وكأن يوم القيامة قادم على الأبواب. كانت الابنة قد دخلت منذ ثلاثة أيام في عزلة في غرفة قصية من البيت لا تخرج إلا نادرا وكأنما تكتب شيئا.. فقد رأيتها تكثر من بري الأقلام.. هي لا تكتب إلا بالرصاص كما أخبرتني مرة. أما عمي فقد كان في عزلته.

قبل أن يصدر الحكم.. أو نعرف بفحواه.. كان ذو القرط قد عاد.. وصل في الليلة التالية لاستجوابي، وكان الطقس سيئا.. ذلك الغبار الليلي القوي.. ورزاز مطر متناثر عاجز عن هزيمة العواصف الترابية.. وكانت عمتي في مشيتها نفسها وقد وصلت الباب الخارجي، لتجده واقفا أمامها.. وقبضت عليه.. أراقبهما من بعيد.. لم أحدد طبيعة الموقف الذي قابلته به، وهي تضمه إليها.. هل هي سعيدة بعودته.. هل تمارس نوعا من الانتقام لأن المال قد ضاع.. كانت الأمور سيئة للغاية ومن الصعب العثور على تفسيرات لطبائع الناس، في ظل هذه الظروف.. فأحيانا نعجز عن فهم ما يدور حولنا وما يصدر من تصرفات من الآخرين، حتى لو أننا كنا نعيش بينهم لعشرات السنين. فالنفس البشرية معقدة جدا. هذه حكمتي في الحياة وليست من ميراث عمي.

سمعتها تخبره بما جرى.. لم أتبين الكلمات ولا العبارات بدقة.. غير أني فهمت من التمثيل الخارجي للمواقف ما الذي قيل.. وتلك خاصية كانت تميزني أحيانا.. وليس في كل الأحيان.. فمرات يتبلد دماغي.. ورأيته وقد بدا مهموما ووقع على كتف عمتي صريعا.. وكأنه يبكي أو يمارس

فعلا ما ليس لي من تأكيد مغزاه إلا أنه يقترب من الإحساس بالحيرة والحزن الممزوجين برغبة في الانتقام. ولم يقدم إلى داخل البيت، ليسلم علي أو يرى زوجته.. كان قد ضرب الباب الخارجي بقوة ثم غاب. وعادت عمتي للداخل، لتخبرني:

"هو يعرف الآن أن شقيقه يواجه الموت"

"شقيقه..!!"

لم أعرف ذلك من قبل ولم يكن لي أن أعرف، فالمحققون يأخذون إفادات ولا يقدمون معلومات سوى تلك الأخبار المزعجة المتعلقة بالموت والإعدامات.. كانت الابنة قد خرجت من غرفتها.. أحست بأن أمرا غريبا يجري.. وفهمت أن زوجها قد عاد.. وأن الشخص المعتقل الآن هو شقيق زوجها.. ولم تهتم كثيرا.. بباقي القصة.. وكأن الأمر لا يهمها.. ولم يكن لي أن أكلمها.. لا أعرف السبب الذي غير مزاجها في الأيام السابقة.. هل هو غياب ذي القرط يمكن أن يفعل فيها كل ذلك؟ أم أنه الانقطاع للكتابة، تلك الحرفة الغامضة التي أجهلها.

في ذلك المساء اللعين والقاسي.. إن جاز لي أن أسميه.. وأنا أتذكره اليوم بألم ولوعة يغمران قلبي، وأتذكر صورة عمي.. في ذلك الليل كان القدر المنسوج في حبال الغيب قد فرد أجنحة الرعب في المدينة الكبيرة، كأن ملاك عظيم هبط من السماوات العلية ليقول لنا إنها النهاية.. سمعنا صوت شاهق ينطلق من مكان قصي.. أعني سمعته أنا.. كان قد جاء من تلك الغرفة التي يرقد فيها عمي.. كان ينادي بأقصى ما استطاع.. بصوت جهور لا يمت للمرض بصلة.. ليس فيه تلك البحة النادرة ولا الجراح المثقلة لهذه الأيام العسيرة التي أوهنت جسده.. ووقفت أمامه.. ومن ورائي عمتي فابنته.. كان قد وقف مثل حصان هزم في المعركة يريد أن يلقي خطبته الأخيرة قبل الرحيل.. وأخذني إليه بقوة، ضمني إلى جسده النحيل، رأيته قويا لا كما لم أره من قبل.. كان قادرا على حمل جبل بتصوري.. وبكفة يده الأخرى أمسك بابنته وضمها إليه، قال لنا:

"كونا يدا واحدة.."

ومن ثم غاب عنا.. طواه الغيب الغريب.. كانت تلك القوة الساطعة التي فاضت فيه قد خفتت تدريجيا، وهو يرمق عمتي بمحبة فائقة يحدثها بلغة العيون، هي تفهم ما الذي كان يعنيه وانطفأ وهج تلك الروح، في حين تركت في المكان بسمة طبعت وجودها إلى اليوم يا ولدي.. أكاد أشعر بها تتمشى في كل موضع من هذا البيت الذي نحن فيه.. هذا بيت جدك.. إنه البيت الذي شكّل عالمي ودنياي.. يا ولدي.. البيت الذي كان من الممكن أن يضيع لو أننا بعناه.. ولضاعت معه ذكرياتنا عن تلك الأيام والسنوات.. فالحياة تمضي بكل ما فيها من أحداث ووقائع لن تترك لنا في نهاية الأمر إلا بصيص الخيالات التي علينا أن نتلمسها لنشعر ببعض من السعادة يغمر أرواحنا الشقية في هذا الوجود. ما هو الشقاء يا ولدي.. سوى أنك تشعر بالغربة وأنك تفتقد للذكريات في المكان.. غريب يعالج غربته بالبحث عن شبح في الليالي لذكرى قديمة سكنت هنا.

كانت وصية عمي التي كتبها منذ سنوات وقد حان الوقت لعمتي أن تخرجها من الخزانة الكبيرة في البيت، أن يدفن هنا في البلد الذي أحبه، وصار له ملاذا.. واكتشفت فيما بعد أن عمي يملك لغة جميلة مزوقة بالعبارات الآسرة، كنت أجهل ذلك. وقلت إنه السر الذي جعل أختي تصبح كاتبة.. كانت لدي القدرة على فرز الكلمات الرائعة المكتوبة بمحبة وضمير، وأخبرتنا عمتي أنا والرجال الذين كانوا حولي بأن نجهز المدفن في المقابر الكبيرة التي لا تقع بعيدا عن بيتنا.. فقبل أن يأتي فجر اليوم الجديد، كان البيت قد احتشد بالمعزين، من أين عرفوا بالخبر، وكيف هزموا الظلام والأمطار التي بدأت تهطل، ووصلوا إلى هنا.. بعد أن انقشعت العواصف القاسية في الليل. ليس الوقت للبحث عن إجابات.. كان الناس رغم كل شيء.. رغم قسوة السلطة الجديدة في البلاد ورغم مدرعات الجيش التي لا تزال في الشوارع والجسور، رغم العنف والخديعة.. رغم كل ذلك، قد قاموا بالواجب تماما.. حفروا القبر وجهزوا الجنازة ونثروا العطر في الأرض يفوح مع رائحة التراب المبتل بالمطر والذي ذكرني صورة أبي وهو يغامر في ليلة ممطرة ليدخل البيت سكرانا ويبدأ في ضرب أمي.. حذفت الصورة الأخيرة من ذهني لأركز في صورة أبي القديم يبدو لي كائنا يستحق الشفقة، مقاوما لأوجاع قديمة في طفولته، ربما في لحظات لا أفهمها أو غائبة عني.. وذرفت الدموع مني مدرارة، لا أعلم بالضبط لمن تنتمي لأبي القديم أم أبي الجديد.. للسنوات التي مضت من عمري وأنا أعيشها بين الحلم واليقظة، مع العائلة التي أحبتني.. كانت الابنة قد احتضنتني كثيرا وهي تبكي، وكان الشخص الوحيد الغائب عن هذا المشهد هو ذو القرط لا ندري أين ذهب.

كان أبي (عمي) يقول إن هذا الشعب رغم فيه من عمق المأساة والألم الذي بدأ يدق مساميره في ظهره، إلا أنه سوف يكون ذات يوم قادرا على الانتصار على أوجاعه، لهذا هو يحب هذه الأرض.. كان ذلك جزءا من الوصية المطولة التي تشتمل على أمور أخرى منها قصة الصك الذي باسمي وميراثي لنصف تركته تقريبا.. ومسألة الاعتناء بعمتي وأنني يجب أن أرعاها كأم حقيقية.. وأن أترك لها حرية العيش هنا أم هناك.. وكان عمي قد علق وهو يرسم وجوها ضاحكة في الوصية بجوار تعليقه.. لا أظن أنها سوف تتركني وتعود إلى أرض الأجداد.. لكن لو فكرت قليلا سوف تجد أن هناك الكثير من الأجداد قد دفنوا تحت هذه الأرض قبل قرن من الزمان. كان يعني بالضبط الأتراك الذين حكموا السودان في القرن التاسع عشر الميلادي.

انتهت مراسم الدفن، كانت عمتي صامدة وقوية جدا.. لم أرها تنهزم أمام موت زوجها أبدا.. كانت شجاعة بما يكفي لتنال احترام الجميع، على الرغم من أن بعض النساء كن ينظرن إليها كخائبة لم تعرف كيف تبكي رفيق دربها بشكل جيد. هنا بعض النساء يفكرن بهذا الشكل، لابد للمرأة أن تذرف الكثير من الدموع وأن تبكي بعويل مرتفع لكي يقال إنها كانت تحبه. أنا كنت متأكدا من تلك المحبة التي تسكن قلبها وكنت أعرف أن عمتي إنسانة تعيش الحياة كما تريدها وبالصفة التي ترغب في أن تبدو بها حتى لو أنها في بعض المرات تجاري أمورا خرافية وغير

منطقية. لكنني كنت أقول إن كل منا لديه مثالبه وأخطاءه وعثراته لا يوجد إنسان كامل في العالم. تلك كانت أيضا حكمة عمي.

يومان على وفاة عمي، ولم يظهر ذو القرط، بحيث بات ذلك شاغلا بالنسبة لي شخصيا خاصة عندما كانت أختي تحركني بأن أفعل شيئا وهي تقول لي:

"لا يمكن أن يغيب كل هذا الوقت.. ربما فعلوا به شيئا"

البداية من ذلك المكان الذي تم التحقيق معي فيه.. ليس غيرهم.. لكن قبل أن أقوم بخطوة عملية، حيث إنني لم أجد الوقت الكافي نسبة لأن المعزين لم ينقطعوا.. كان قد وصل البدين، وقد استعاد صحته رغم تقدم سنه.. كيف عرف بالنبأ وأين كان.. لم يكن الوقت مناسبا للسؤال، استقبلته ولم أتمالك نفسي، لأننا وجدنا أننا نبكي سويا.. كان يبكي بحرقة وألم، وكان يرفع صوته بنداءات لكائنات مجهولة أن تحفظ ميراث العم، وكان يقوم بين كل نداء وآخر ليضمني إليه ويواصل العويل.. وطلب أن يقابل العمة ليعزيها. وقد كان.. وتمرق في التراب أمامها، كان صادقا في كل تفاصيل ما قام به.. ثم استأذنني ومضى دون أن يحل ألغازي بشأنه. ومع الأيام كان لي أن أنسى كعادتي لا أظل احتفظ بالتفاصيل كثيرا.

بخروجه، وفي منتصف الظهيرة، كان علي أن أفعل شيئا بشأن ذي القرط، كان هناك أحد الزبائن الكبار الذين يتعاملون معنا، قد جاء للعزاء، واعتذر بأنه تأخر لأنه كان مسافرا، أعرف أنه يعمل في تلك المناطق السرية من الجهات الأمنية، لكن أين؟ لست متأكدا.. كان لابد أن استعين بأحد، أخذته جانبا وقصصت له الأمر، قال لي:

"إنهم أولاد حرام يمكن أن يفعلوا كل شيء"

"ماذا تعني.. أن شقيقه قد يموت؟"

"كلاهما قد يواجهان أي مصير.. أنا أعرف جماعتنا جيدا.. ولكن دعني سأحاول التصرف"

لم أكن لأثق في ردة فعله وتجاوبه، ولكن ماذا علي أن أفعل سوى أن أتحرك بأي شكل كان.. وأن أخبر الرجل بقصة التحقيق معي وباقي التفاصيل إلى قبل ليلتين.. والذي رجاني بأن انتظر فقط حتى المساء، وألا أتحرك أبدا لأي شخص آخر. وبقيت منتظرا بين الشك واليقين استقبل المزيد من المعزين، وأغلبهم من أصدقاء العم، وحضر ممثل للجالية التركية ومعه السفير الذي ألقى خطبة عن العلاقات المتينة بين البلدين، وكان معه مجموعة من الشباب يحملون كاميرات تصوير وفيديو، وانتهت هذه الصور إلى الصحافة في اليوم التالي. وقبلها. وأنا أودع السفير ورجاله، خطر لي أن أخبره بما جرى، فالموضوع هنا سيتحول إلى شأن سياسي، وسيكون لأي إجراء غير محسوب انعكاسا سيئا على العلاقات الوطيدة التي يتحدث عنها الدبلوماسي. وفي الوقت الذي كان فيه من المفترض أن أتكلم، حتى لو أنني عاهدت ذلك الرجل، كان ذو القرط قد ظهر من بعيد وهو يصطحب رجلا معه يبدو شبيها له في كل شيء حتى القرط المتدلي، إنه شقيقه دون شك، فقد تم التحقيق معي لكن لم يسمح لي برؤيته.

كان مبتسما كما لو أن أمواله ردت إليه، وقد أخبرني أن المسألة عولجت ولكني دون رد الأموال. قال:

"المهم أن شقيقي قد نجا من حبل المقصلة.. هذا الصقر الجارح يمكن أن يفعل أي شيء لكي يجمع المال ويستمر في الحكم"

رغم أن الوقت لم يكن مناسبا لإبداء علامات الضحك، إلا أن أساريري تكشفت، لأعلق قائلا:

"كنت مبتهجا يوم ظهر الرجل في التلفزيون وكأنك وزيره"

لم يبد اهتماما بما قلت، أكمل قائلا:

"صاحبك هذا رجل رفيع المنصب.. هو الذي تكفل بكل شيء.. لولاه لما حلت المشكلة.. أي منصب يتولاه؟"

لم تكن لدي أدنى فكرة، فقط ما أعرفه أنه من رجال السلطة السريين، أخبرته:

"لا أعلم عنه شيئا.."

سألني ذو القرط وهو غير مهتم بسماع باقي إفادات بخصوص موضوع شقيقه، قال:

"ماذا كان يفعل هذا السفير هنا؟"

"هل تعرف أنه السفير؟"

"أعرفه جيدا إنه انتهازي كبير.. لقد كان مرشحا في دائرتنا بالبلدة هناك في تركيا.. وفاز بعد أن ضخ كل ما عنده ليكسب الجولة"

أنا نفسي كنت مستغربا من وجود السفير فعمي لم تكن له علاقة بهذه الأوساط، طوال حياته، كان يحافظ فقط على علاقات في محيط عمله اليومي. ونادرا ما يصاحب أناس من بلده الأم. هل أتى السفير بسبب ذي القرط؟ لربما كان ذلك صحيحا. تخيلت أنه عند رأى السفير ذا القرط وهو يتقدم باتجاهنا عرفه، وحاول أن يتقدم ليسلم عليه، لكن ذا القرط حاول تجنبه أو أنه تفاداه في الأساس ولم يتقدم باتجاهه إلى أن اضطر السفير للمغادرة.. وقلت إنها مجرد خيالات في دماغي وتقاضيت عن الأمر لا أفكر فيه. وانصرفت لترتيب الشؤون العادية في الحياة.

في الصباح التالي كانت الصحف تدجن كعادتها، نشرت صورا للسفير التركي وظهرت فيها أنا بخصلات شعري المتدلية غير المرتبة، وكنت ألبس طاقية طويلة، وقميصي مفتوح، لم يحدث أن لبست الجلباب والعمامة التقليديين، وكتب تحتي ابن المرحوم.. وكتب أيضا بخط عريض.. عائلة تركية تعشق هذا البلد وأهله.. وتصنع مجدها فيه..

لا أحد يمكنه أن يتعرف علي بسهولة إن كان من أقاربي.. أو حتى أصدقائي المقربين.. وأنا لا أصدقاء لي سوى عائلتي وعملي.. بين ليلة وضحاها أصبحت جزءا من صانعي المجد في هذا البلد بسبب صورة.. كثيرون قابلوني بعدها، كانوا يسألوني بحذر، هل أنت ذلك الشاب التركي الذي نشروا صوره في الصحف، هل أنت ابن المليونير التركي الذي أحب بلادنا؟ ولم يرض إلا أن

يدفن فيه؟ وقال لي أحدهم: أتعلم أن المئات منا يموتون بالخارج ويحملون بالتوابيت إلى هنا، أبوك هذا قد أحب هذه الأرض حقا، شكرا له.. وجاء صحفي آخر في المحل بعد أيام قال إنه يريد أن يجري حوارا معي ليصنع به سبقا، فحواه أن يحث الشباب على وقف الهجرة إلى الخارج لأن هذا البلد فيه فرص وإمكانيات لمن أراد، فهاهم الأتراك ينجحون في صناعة حياتهم هنا، في حين يفكر كل شاب في أن خلاصه بالخارج. ورفضت فكرة الحوار تماما، قطعت الباب أمام أي أحد يفكر في استغلال قصة عمي ليراهن على وطنية كاذبة يروج لها في وسائل الإعلام، كنت قد بدأت أفهم أن الذين يتكلمون عن هذا البلد ونمائه هم أكثر الذين يعملون على تدميره وقتل مواهبه. ولم تمض أيام على تفكيري هذا وقد دخلت البلاد في الحرب مجددا، كانت غابات الجنوب تشتعل نارا، وكان الصقر الجارح يرسل بالشباب إلى براكينه الثائرة هناك ليموتون بلا هوادة باسم الله واسم الرسول وتلك الكذبة، الوطنية.

كانت الحياة عسيرة بعد وفاة عمي.. فقد وجدت أنه أوجد فراغا حقيقيا في حياتي.. وأنه كان بالفعل الإنسان الوحيد في هذا العالم الذي أحببته بصدق أكثر من أي أحد آخر.. أكثر ممن تسميهم القوانين والأعراف أهلي ورحمي.. كنت أتذكره فأشرع في البكاء ولا أتحكم في تصرفاتي، في حين كانت عمتي هي الأخرى غير قادرة على التصديق، لقد ذهبت كل قوتها واحتمالات صمودها التي أبدتها أمام المعزين، الآن وأمام الوحدة ليس لها من مواجهة سوى الماضي والذكريات والحنين، تتخيل أنه لم يمت، تخاطبه في ممرات البيت وفي الساحة الخارجية وتدخل إلى غرفته لأسمعها تدير معه حديثا طويلا، وهي تخبره أن ابننا قادم، هو لم يمت.. كانت تقصد ابنها القديم، لكنها تخلط أحيانا، لتمسك بي وتقول لعمي الذي تتخيله أمامها.. هاهو ابننا.. هاهو قد جاء.. هل تسمعه.. وتطلب مني أن أسلم عليه وأن أقبله على جبينه، وأفعل ذلك مع الفراغ المجهول، في حين تكون هي مسرورة لما يحدث. وكان يحدث ذلك، في الوقت الذي فرغ البيت إلا مني ومنها. فقد غادرت الابنة ومعها ذو القرط، لم يبقيا سوى أسبوع واحد بعد الوفاة، كانت الابنة حزينة، لكنها كانت تقول بهدوء ماذا سنفعل إنه القضاء.. رأيتها مؤمنة وقوية على المواجهة. أما ذو القرط، فرغم اعتقادي لبعض من الوقت أنني فهمت هذه الشخصية إلا أن ذلك كان مستحيلا، فهو يبدو غريب الأطوار مرة أخرى. كان يمسك بشعرة طويلة في رأس شقيقه، يشدها بقوة وهما يغادران ليلعنه على أنه أضاع مالهما.. ثم ينظر نحوي ليقول له إنه سبب هذا البلاوي، هو سارقنا الحقيقي. ولم أكن لأحفل بما أسمع، فهما سيسافران على أية حال.

كان الوقت يمضي متثاقلا، كأن قانونه قد تغير. وتخيلت أن الحياة أحيانا وساعة نفقد أناسا نحبهم بجد تجعلنا واهمين قصاد كل شيء، ليس بوسعنا أن نفهم، أو نعيش بالقناعات الأولية التي نحن عليها. يحدث ذلك فعلا. ومع مرور الأيام يتدفق وهج الحياة من جديد، ليجد الإنسان أنه يدخل تارة أخرى في وهم آخر، أنه حي خالد وعليه أن يستمر في صيرورة وجوده وصناعة ذاته الزائفة في هذا العالم. ولهذا كان علي بعد مُضي عدة أشهر أن أعود ذلك الشاب المثابر الذي يقرأ كتب

تطوير الذات ومهارات النجاح، ثم يكد ويجتهد بأقصى ما عنده متنقلا بين المحل الجديد والقديم، بعد أن غيّرت الكثير من التفاصيل وعلقت صورة عمي عند المدخل، في المحلين، رمزا للكفاح الذي علي أن أسير في دربه.

مررت بصعوبات جمة، في العمل، بعد حوالي العام، لأن الدولة فرضت ضرائب مهولة على التجارة بكافة أشكالها، حتى لو بيع المرطبات في الشارع العام للمكتوين من الحر الشديد في النهار. كان الكل مطارد من قبل رجال السلطة لأجل أن يدفع المال الذي يجمع لهدف واحد، هو القتال، وكنا نسمع يوما بعد آخر أن عشرات الجنود قد أبيدوا عن بكرة أبيهم، لكن الحقائق لم يكن لها مكان على الأرض. من الصعب أن تفهم ما يجري واقعا. ولم أكن لأهتم بذلك. أعرف أن السياسة تؤثر في عملي، وكنت مضطرا لكي أحل مشاكلي المتعلقة بهذا الجانب المعقد، بأن أمارس ما ظللت اعتقد أنني لن أقدم عليه ذات يوم.. أدفع الرشاوى لرجال الضرائب ولمتعهدي السلطات البلدية ورجال التراخيص والصحة والنظافة، فقد وصلت لقناعة أنه لكي تستمر يجب أن تفعل ذلك، فقد كانت البلد تنحدر إلى أسفل سافلين في القيم، هل كان الأمس كذلك أم أنني كنت صغيرا على الاستيعاب. أتذكر أن عمي قال لي ذات مرة: إن الحياة هي.. كما هي.. لا تتغير.. والناس على سلوكهم نفسه طوال الدهر.. لكن الإنسان لا يفهم الأشياء بدقة إلا ساعة يكون قد اكتمل وعيه وكبر حقا.

إذن فقد كبرت أنا اليوم حقا. وكبرت معي أشياء كثيرة وقناعات وعناد على نسيان الماضي البعيد بشكل مطلق، فأنا.. أنا.. لست شخصا آخر.. أنا ذلك الذي يحب نفسه كما يحبها لا كما يريده الآخرون.. فالإنسان هو ذاته لا غيرها.. كنت لا أهتم بسوى نفسي وعمتي لشيء غامض يشدني إليها، ربما ذلك الإحساس بالأمومة المنهوب مني، ذات الإحساس الذي كان يخالجني باتجاه المرحوم عمي. وهي الأخرى كانت اضطرت مع الوقت لتتأقلم مع حقيقة أنني الوحيد الذي يهتم بها في هذا العالم. فليس لها من حبيب ولا صديق ولا قريب.. وليس من سيرة لأهل هم في المجهول والنسيان.. وكانت قد اضطرت أيضا سواء بسبب الانتباه أو ربما هي لعنة الحياة وقسوتها ساعة تصرُّ على تأكيد أشيائها، أن تدرك أن عمي قد مات.. أخذتني ذات مساء إلى المقابر، ووضعت أكاليلَ من الزهور على القبر، وهو طقس نادر ما يحدث عندنا.. لا أحد في بلدنا يحمل الورد للموتى، ولهذا كان منظرنا في المقبرة مستغربا للذين شاهدونا وهم في أشد الحيرة لما يحدث.

ونحن عائدان إلى البيت، بالسيارة التي كنت قد اشتريتها قبل أسابيع وأقودها بنفسي، كجزء من قوانين حياتي الجديدة.. خطر لذهني أن أسأل عمتي عن أهلها، أين هم؟ عن تاريخها؟ عن تاريخ عمي؟.. قلت لها:

"هناك قصص كثيرة كان من المفترض أن يرويها عمي لي قبل أن يموت ولكن.."

قاطعتني وهي تعاين في الفراغ المحيط بنا في الليل، أظنها تحاول أن تتلمس إن كان القمر موجودا في السماء أم لا، قالت:

"التاريخ ليس عنده معنى إن لم يكن له أثر على حاضرنا.."

لم أعرفها حكيمة كعمي لكنها اليوم تبدو مشبعة بحكمة نادرة.. هي الحياة تصقل الإنسان في مرات عديدة وتجعله يرى ما لم يدركه في الأمس.. القريب جدا.. وفهمت أنها لا ترغب في الحديث عن ذكريات طفولتها ولا عن علاقتها بعمي كيف نشأت وتطورت أو كانت من الأساس.. هي لا تحب أن تتذكر تركيا سواء بخير أو بشر.. هل لديها ذكريات سيئة هناك وماض مظلم.. أخجل أن أسألها وهي لا ترغب.. لكن ربما يأت اليوم المناسب، إن كان السؤال مهما ويحتاج إعادته مرة أخرى كما أشارت هي.

ومرت بي أيام بعد زيارة المقبرة أرى في المنام بالليل أنني أسافر إلى تركيا وأتزوج أختي بعد أن مات زوجها ذو القرط، أو أنني قتلته بالأحرى. لقد بدا لي شريرا شرسا وكان لابد أن أتخلص منه لأفوز بحبي. فقد رأيت في النوم أنني أحب أختي جدا. وأنني يجب أن أتزوجها بأي شكل كان. وطبعا حيث لا يوجد منطق في الأحلام، فقد كان حبي جارفا وفعلت كان ما أرغب فيه. وفي اليقظة كنت أحار من شكل العلاقة التي كانت تربطني بابنة عمي التي أسميها أختي.. هل أنا أحببتها حقا؟ ما الذي يجعلها تملأ قلبي وأشعر بخفقان قوي يضرب في كل مكان بجسدي ساعة استعيد صورتها في خيالي، ويحدث ذلك بعض المرات أثناء العمل لدرجة أن أحد العمال معي لاحظ ذلك علي أكثر من مرة فنبهني أن ثمة شيئا غريبا يحدث، وقال لي ممازحا، وهو أمر قليل عندي في العمل:

"هل وجدت ما يعبئ مساماتك الداخلية يا سيدي؟"

ابتسمُ له بطريقة تحذيرية أن لا يكرر هذه الممازحات السخيفة، وأن يخلص لواجبه، وهو يفهم أنني أتعمد ذلك، وأنني أحب من يعمل مخلصا معي ولا أبخل عليه. وتمضي مثل هذه اللحظات ثم تمر أيام وأنساها تماما أي أختي، ثم أعود لتذكرها ثم أنسى. وبعد أن انقطعت تلك الأحلام بت من النادر أن أتذكرها إلا في ساعات أكون جالسا فيها وحدي في الليل، قبل منامي.. أتخليها تجلس قبالتي في الصالة في تلك الأيام التي قضتها بالبيت معنا، ثم أرسم لها صورة وهي تحتضنني وتقبلني وأحيانا أتأملها عارية في يقظتي.

هكذا ظل حالي إلى أن جاء نهار وأنا أجلس بالمحل الجديد، الذي صار قديما، ساعة وقفت أمامي امرأة ناضجة.. شابة قوية وجسورة.. عرفتها للتو بلونها الأسمر وزيها المرسوم بالألوان المطرزة الزاهية، كانت قد كبرت بعض الشيء.. أو هي الحياة تتقدم بنا ولا نتذكر إلا فجأة ساعة ننتبه، وأسرعت لمصافحتها، وجلست على مقعد عال قريبا من الحائط، وهي تحرك رأسها يمينا ويسارا، تتأمل المحل، وسألتني:

"أهذا لك.."

"نعم هو لي.."

قالت بجدية:

"كنت أفكر فيك كثيرا.. وكنت متأكدة أنك سوف تصبح مهما ذات يوم"

قلت لها ساخرا بطريقة مقتضبة:

"مجرد محل شاورما.. هل هذه الأهمية التي ترينها في رجل"

ردت بجدية:

"أبوك البابا كان يقول عنك إن مشكلتك أنك لا تأخذ أي أمر بجدية"

كانت تلك النتيجة بالنسبة لي عسيرة الهضم.. أو قد لا تشكل قناعة لي.. أنا اعتقد بأنني جاد جدا.. وهي الآن تقول العكس.. هل تعني الجدية أن تتعامل مع الأشياء بمزيج من الفوضى والصرامة، وهذا ما ينقصني أن أوجد الفوضى في حياتي.. أن أضحك مثلا أو أسهر مع شلة، أو أعاقر الخمر.. أو على الأقل أدخن سيجارة..

هي كانت تراقبني، في حين رأيت في تقاطيع وجهها ملمحا غريبا.. هناك نقاط سوداء دقيقة في جبينها.. كأنها مرسومة بدقة بآلة حادة.. هذه النقاط لم تكن موجودة من قبل، ورغبت في أسألها. لكن بدا لي أن السؤال يعني عدم الجدية، فعلي الانتباه للأشياء المهمة الآن.. وبدلا عن ذلك سألتها:

"أين كنت طوال هذه السنوات؟"

"سافرت لأمريكا أكملت دراستي هناك في العلوم السياسية بدعم مباشر من قائد جيش التحرير"

نظرت نحوي لتؤكد بعد هذه الكلمات على أنها أصبحت هي الأخرى مهمة، وأشارت تلوح بأصبعها، لتريني خاتما ذهبيا رائعا يدل على الخطبة، قالت لي وهي تكسر صرامتها لأول مرة، منذ أن دخلت المحل:

"لقد سألت عنك كثيرا حتى وصلت إلى هنا.. كنت أحس بأن شيئا يجذبني إليك منذ تلك الأيام.. لكن الحياة لا تسير وفق إرادة المرء."

كان فيها شيء من الحزن، يشبه ذلك الذي يكسو وجه أختي التركية أحيانا.. ربما تتشابهان بشكل ما يُكوِّنه ذهني ومزاجي.. تشابه قد لا يجده الآخرون غيري.. شعرت بقلبي يخفق ويختلط الخفقان عندي بالخوف.. قد يكون صحيحا أنني لم أفكر فيها منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه إلى الكنسية وعملت مع البابا، وهي التي أوصلتني له.. لكنها اليوم وهي تقف أمامي بعد أن نهضت من المقعد الطويل، وهي تنفض تنورتها.. وتعدل سلسلها المنتهي بصليب صغير؛ تزرع في مكان غير محدد من نفسي بذرة غامضة، كهذه الحياة.. وهذه اللحظة التي تبدو كما لو أنها حلم.. أهي

تلك الصبية التي كانت تثير انتباهي في الصباحات البعيدة يوم كنت متسكعا ومشردا. لست متأكدا. ففي بعض المواقف نجهل ماذا حدث بالأمس فعلا!.

كنت أرغب في أن أفهم كيف وصلت هنا؟ أو لماذا بذلت وقتا لكي تعثر علي؟ وماذا تريد مني؟ وبدت لي هذه الأسئلة أنانية وغير مهمة.. هي تهتم بي وهذا هو المهم في الأمر.. وأنا الآن اكتشف أنني على الأقل أشعر بسعادة معها.. قلت لها:

"مهما يكن الأمر أرجو ألا تنقطعين عني"

ردت وهي آسفة يبدو ذلك من تعابير وجهها، قالت:

"أحيانا هناك أشياء لا نفعلها إلا مرة واحدة.. ربما لن نلتقي مرة أخرى.. سأسافر غدا فجرا بالطائرة إلى نيروبي هناك أشياء كثيرة تنتظرني.. لدينا معارك طويلة مستمرة.. لا أعرف متى سوف تنتهي الحرب ليكون لي أن أفكر ولو قليلا من الوقت مع نفسي.."

قلت لها:

"ألا تخشين أن يقبضوا عليك.. لو عرفوا أنك هنا"

كشفت عن أسنان بيضاء مسبوكة بدقة ومشدودة بواسطة سلك معدني، وهي تجيبني:

"لا أحد سواك يعرف أنني هنا في الشمال.. لو حدث شيء.. فهذا يعني أنك أنت"

وضحكت بغير المتوقع.. نهضت وبشكل خاطف كانت قد طبعت قبلة على خدي.. ما أشعرني بالخجل أمام الزبائن.. وهربت متوارية وراء الزحام في الشارع.. لم أعد أرى شيئا وأنا أخلع النظارة فقد تداخلت الأشياء أمامي.. واستعدت النظارة مكانها فلم أشاهد سوى زحام من السيارات وأناس يهربون باتجاه مصائرهم.. كانت الأوضاع عسيرة على الكل.. والخناق الخارجي على البلد يتسع مع تصنيفها في قائمة الإرهاب الدولية.. وكانت شائعات متناقلة تفيد بأن أحد شيوخ الدين الكبار قد وصل للاستقرار هنا بعد أن ترك أفغانستان.. وهذا بلاشك يعقد الوضع كما كان بعض الرجال الجالسين في المحل يدردشون بأصوات هامسة وهم يأكلون.. يخشون أن يسمعهم أحد. ولكنهم يقولون مردفين: لكن ربما عملت أموال هذا الشيخ على إحداث انفراجة في الأحوال.. يقولون إن ماله كثير جدا.

مضت السنوات، ولم تعد الفتاة السمراء ابنة الجنوب مرة أخرى.. يبدو أنها انشغلت مع الحرب والترتيب لمفاوضات السلام التي كان الجميع يتحدث عنها خاصة بعد أن ضخ النفط في الحقول الجنوبية، وهذا انعكس قليلا على الأوضاع الاقتصادية رغم أن الضيق العام لم ينته ورغم اشتعال حرب جديدة في غرب البلاد، أنا كنت في خطي نفسه وتعاهدي مع ذاتي بأن أسير إلى صناعة مجدي.. وصية عمي بأن أفنى في العمل.. وعمتي صارت تؤازرني كثيرا بعد أن توصلت لقناعة أن الحياة يجب أن تستمر. كانت تأتي إلى المحل القديم لقربه من البيت، تقضي معظم الوقت وتدير الحسابات هناك، في حين أنصب تركيزي على المحل الجديد. وضاعفنا عدد العمال بعد أن انتعش

الحال قليلا، وكان الزبائن قد تضاعفوا أيضا، بعد عودة جنود الحرب الذين كانوا عشاقا من الدرجة الأولى للشاورما.

وكعادتي ساعة أندمج في شيء أنسى ما سواه، فقد مضت الأيام مع العمل وفي الليل نجلس لساعة أنا وعمتي.. نرتب أمور الغد ونعيد الحسابات وننام، وفي الصباح يبدأ اليوم الجديد على شاكلة سابقه.. وقد ساعدتني السيارة كثيرا في تذليل أموري وحركتي.. إلى أن قررت ذات يوم بموافقة عمتي أن نفتح محلين آخرين، أحدهما تعهدا داخل سكنة الجيش بعد أن فزت بعطاء كبير كنت قد تقدمت به، وبذلت كثيرا من الوقت والمال لأفوز به، لم تكن مهمة سهلة غير أني كنت شديد الثقة بنفسي، أن العطاء سيكون من نصيبي. المحل الثاني كان في حي سكني حديث في المنطقة الجديدة شرق النهر الأزرق، حيث أنشأت الدولة جسرا جديدا وتوسعت الأحياء السكنية بذلك الاتجاه، لا أعرف طبيعة القرار الذي دفعني لاختيار تلك المنطقة لكنني كنت في بعض الأمور أعالج الموقف من خلال قلبي، لأتعرف على الجواب المناسب، وكان عمتي قد أشارت لي ساعة أخبرتها بالفكرة بأن هذا الموقع لا يخطر على بال أحد.

كنت أشعر بأنني لم أعد أتعلم فحسب، بل أمارس وأنفذ خبرات متراكمة تعلمتها عبر السنوات، سواء من عمي أو من جهدي، ومعاركاتي اليومية مع الناس والحياة.. وكنت أحتار ساعة أجد بعض الشباب يتسكعون في الشوارع بلا وظائف ولا شيء له قيمة يقومون به.. لماذا لا يعملون، لا يكافحون من أجل الغد؟!.. كان عمي يقول إن هذا البلد فيه ذهب ولكن لا أحد يراه.. بالنسبة لي كنت أرى أنني لو أنه مثلا أكملت تعليمي وربما كان ذلك مستحيلا في ظروفي القديمة، وتخرجت من الجامعة، ماذا كنت سأكون، هل سأكون أحد هؤلاء المتسكعين بلا هدف في الشارع؟.. معجزة أن تصبح لك قيمة في هذا المكان في ظل الأوضاع العسيرة وهيمنة أناس بعينهم على كل شيء..

كانت الحياة بالنسبة لي قد أصبحت كمسار مخطط سلفا وعلي أن أسير فيه، أو أنا سائر في الأصل دون أن انتبه لذلك، ومضت شهور قليلة بعد توقيع اتفاقية السلام وعودة المقاتلين من الجنوب، لأجد نفسي مشغولا في جل وقتي مع عمل دائب لا ينتهي خاصة في سكنة الجيش التي باتت تأخذ جل المصروفات وتدر المدخول الأعلى، وكان يخطر علي بالي وسط النهارات الطويلة وانشغالاتي أن الفتاة الأنيقة السمراء سوف تعود لأن الجميع قد عادوا، لكنني لم أسمع عنها ولم أرها. وبدلا عنها سمعت أخبارا سيئة عن صديقي القديم الملمع الذي كان يساكنني في تلك الغرفة التي قام محلها مبنى مرتفع لسبعة طوابق يمتلكه أحد ضباط الجيش، فكل شيء صار تقريبا للعساكر في الأيام الأخيرة بعد أن أزاحوا المدنيين أمثال خالي تماما، وحيث لم أعد أسمع عنه خبرا، ولا عن ابنته أو أسرته. كان ذلك النهار سيئا ساعة جلس شاب من المقاتلين العائدين بعد توقيع الاتفاقية في إحدى البلدان الأفريقية المجاورة، وراح يحدث زملاءه عن أهوال الحرب والملايين الذين قضوا هناك، وكيف أن الجيوش كانت لا تفكر بسوى الموت، وجاء ذكر صديقي عرفته من الاسم، وتأكدت فعلا من خلال الأوصاف التي دققتها من خلالهم. كان من المفترض أن أبكي وأن

تنهمر دموعي أو أشعر بحزن كبير، ولم يحدث أي شيء من ذلك، هل بت قاسيا بلا قلب، كان ذلك يحيرني، أن أتحجر وأصبح بلا مشاعر، ولم أفسر تلك الحالة إلا لأن زمنا طويلا قد مضى ولم نلتق منذ تلك الأيام ولهذا كان لابد أن ما تبقى من المساحات في القلوب سوف ينزاح تدريجيا ويتم محوه وهذا ربما ما حدث معي. هذا هو التفسير الأهون حتى لا أصف نفسي بأي صفة أخرى تجردني من الجانب الإنساني.

خلال شهور أخرى.. وبعد أن تضاعف المال معي، وأصبحت خبيرا في الرشاوى واقتناص الفرص وسط تجار السوق ورجال السياسة والعساكر وهذه الفوضى التي اسمها الحرص على المصالح العليا، كما يقال في برامج التلفزيون.. وبعد أن أصبح كل شيء يدار بالهاتف النقال والكمبيوتر والإنترنت، كنت قد استفدت من هذه التقنيات الجديدة في عملي.. وأصبحت حساباتي تدار بأسلوب عصري كما يقول زبائني، الذين يعتقد الكثير منهم أنني تركي ابن تركي.. ولم أكن حريصا على التوضيح، نفيا أم إثباتا، أتعامل تماما كما في السابق، لم أكن في حاجة لكي أقنع أحدا بالعكس.. وكنت أحيانا استغل هذه الوضعية، كوني أجنبيا لأحصل على امتيازات فقد صار الغرباء في القرن الجديد أصحاب مميزات في بلدنا، وصارت لهم مشاريع ممتدة ومتعددة أينما ذهبت، لهذا كان بعضهم ينسب نجاحي لهذه الصرعة الأخيرة، حيث يضيفونني لقائمة الشوام والخليجيين والإيرانيين والمغاربة وغيرهم، الذين دخلوا البلد في السنوات الأخيرة وحققوا مكاسب في أعمال مختلفة كالزراعة والصناعات والمطاعم، حتى المدارس الخاصة.

فجأة اكتشفت أن المال وفي لحظة من حياة الإنسان، إذا ما تحققت معادلة معينة غامضة، يتدفق من كل صوب، وهذا ما حدث معي. لم أكن أعرف كيف كانت تنهمر هذه الأنهار من الأموال التي تذهب يوميا إلى حسابي بالبنك. وبدلا من محلين قديمين ومحل بسكنة الجيش وآخر بذلك الحي الشرقي الجديد. اتسعت تجارتي لأكثر من عشرة محلات بالمدينة تحمل شعارها تلك اللوحة القديمة التي رسمها صديقي.. لذلك الولد المشرد الذي وجد طريقه للحياة في محل شاورما.. واشتريت قطعة أرض بوسط المدينة الكبيرة قريبا من البنك الكبير الذي شهد ذات يوم تأملاتي العجيبة لغرابته كمبنى مهول ذي طراز فريد، ولم تمض سوى شهور قليلة إلا وارتفع البناء عاليا، كانت الخرسانة المسلحة سحرا من نوع جديد بدأ يجتذب حياتي، بدأت تستهويني البنايات والعمارات والبيوت المبنية على طراز القصور، واتفقت مع شركة كبيرة على أن أبني بيتا فخما بجوار النهر الأزرق، بعد أن اشتريت الأرض من زوجة وزير معروف، كانت تدير شؤونه وأعماله الخاصة، وهذه ليست بدعة، ففي كل الحكومات السابقة كان المنهج نفسه، النساء هن من يتولين القيام بإدارة شؤون المال والفساد كما قال الوزير نفسه مرة ضاحكا، ساعة التقينا في بيته لتوقيع عقد شراء الأرض، أنا وعمتي التي كانت فرحة جدا. وخرجنا بالسيارة العالية الجديدة التي استبدلت بها القديمة قبل أسابيع، وعمتي تكاد تطير جنونا، وطلبت مني أن نذهب لرؤية موقع البناء، كان النهر قريب جدا وطيور القماري والزرازير تحلق في المكان وكثير من الحمام لا نعرف

من أين جاء، قد يكون يسكن قريبا من هنا. كان الطقس معتدلا وثمة برودة طفيفة تنعش الأبدان. وتأملت السماء أمامي صافية، لم يكن من مستحيل أمامي.

وأنا أتابع البناء في الفيلا بعد أن أكتمل المبنى التجاري متعدد الطوابق بوسط المدينة، وذات نهار توقفت سيارة قديمة بالقرب من موقع البناء، نزل منها رجل لم أكد أتبين ملامحه من على البعد، فقد كانت نظراتي مشوشة بفعل الغبار في الجو، ومع اقتراب الرجل مني وبجواره فتاة في نهاية الثلاثينات تقريبا، متوسطة الجمال تبدو شاحبة الوجه، عرفت على الفور إنه خالي، ما الذي جاء به إلى هنا وكيف عرف أنني يمكن أن أكون هنا. وأسرع لاحتضاني، كغير عادته لم يكن يحمل غليونه، وتلمست فيه نوعا من الحزن العميق وقد كبر كثيرا أسرع مما تصورت، ليس بإمكاني أن أفسر سبب شحوبه، إلى أن أسمع منه قصته، وقال لي بألم:

"لقد أتيتك في خدمة وآمل ألا تردني.. لقد تغيرت الأوضاع وساء الحال كثيرا بسبب هذا الصقر الجارح"

أشار إلى الفتاة التي ترافقه، والتي عرفتها فهي ابنة خالي، لكنها ليست تلك التي كانت تجلس في ذلك الحفل ذات مساء، وليست تلك صاحبة الصورة القديمة.. هي السنوات تقدمت ولاشك أن كل شيء في هذا الحياة يعطب ويفسد مع الأيام.. هي كبرت بلا ريب.. لكن هناك شيء آخر فيها وفي خالي.. سأفهم ذلك، علي ألا أكون عجولا.

قال خالي لابنته:

"سلمي على ابن عمتك.. لا أظن أنكما تقابلتما من قبل"

صافحتها كان ملمس يدها قوي، لا يعكس مظهر أنثى تلبس بنطلون جينز وقميص أبيض أنيق محروق الأطراف.. وسمعت خالي يمازحها موجها الحديث نحوي:

"أليس من شاب لطيف.."

خمنت ما الذي يقصده، إن لم أكن مخطئا أو مغترا بحالي.. يبدو أنه يعرف أموري وأخباري جيدا، حتى لو أنني لا أعلم عنهم شيئا من وقت طويل.. منذ تلك الأيام التي قيل إن الابنة جاءت وتولت منصبا إداريا كبيرا في إحدى الوزارات.. هو يتحدث عن الزواج، هل جاء ليعرض ابنته علي.. وسمعتها تقول:

"هو لطيف فعلا.. لم أتخيله بهذه الوسامة يا أبي"

ضحك بصعوبة، وأخذني جانبا، قال لي:

"ليس من سبيل سوى أن تساعدني.. أنا استعد لصفقة كبيرة في تجارة المواشي.. أريد تصدير كمية لدول الخليج.. ولا أحد يمكنه أن يقدم لي قرضا ماليا سواك.. أحد أصدقائي من الوزراء القدامى نصحني بالذهاب إليك.. قال لي لديك ابن أختك وتريد أن تذهب بعيدا.. إنه يعين الكثيرين والأقرباء أولى بالمعروف"

لم أفكر كثيرا ولم أسأله من هذا الوزير الذي يعرفني جيدا.. ولا أعلم إن كان قراري صحيحا أم لا، وهذا ما أربكني لاحقا، فقد أسرعت لسؤاله كم تريد ومن ثم سجلت له المبلغ المطلوب، دون أن أشغل بالي بأنه كثير أم قليل، كان المال قد أصبح لعبة مسلية لي. أخذ الشيك كطفل وجد عائلته بعد ضياع في مدينة ملاهي، كان يتقافز فوق الطين بجوار النهر وكانت ابنته هي الأخرى تتقافز مثله، وقال لي قبل أن يحرك سيارته ذات المحرك المزعج:

"لا تنسى أن تزورنا.. ليس في البيت القديم فقد أخذته الحكومة منا.. نسكن في...

لم يكمل.. صمت قليلا، قال لي:

"نسيت أن أخبرك أن عمتك توفيت منذ سنة تقريبا.. مرض لعين أخذها عنا.. رحمها الله..

ترحمت عليها.. وشريط من الذكريات ينهال أمامي لها في مواقف مختلفة يصعب تجميعها مرة واحدة، خاصة تلك الليلة العجيبة مع ذلك الولد الحقير ابن الحارس.. قلت له:

"هذا هو حال الدنيا ماذا يفعل الإنسان مع الموت؟"

رد عجولا قبل أن يتأكد أكثر من مرة أنه وضع الشيك في جيبه:

"مصيرنا كلنا.. إنه مصيرنا.."

وأنطلق بالسيارة مسرعا.. يتوارى عن الأنظار مخلفا مزيدا من الغبار وراءه مضافا للغبار الكثيف في الجو. في حين بقيت أفكر في تلك الأيام كيف أن الدنيا يمكن أن تنقلب أحوالها، فهاهو خالي الآن يتسول مني بدلا من أن أكون ضيفا ثقيلا عليه في بيته، وهاهي زوجته التي مارست شتى أنواع العنف الأسري والقهر ضد الجميع تموت، وببساطة هو لا يهتم.. قد يكون حزينا لكن لا يبدو عليه ولا على ابنته أنهما يتذكرانها جيدا.. ربما هو عامل الوقت.. فلكي لا أظلمهما علي أن أتذكر نفسي، ماذا فعلت بحق عمي، هل عدت أذكره وهو السبب الحقيقي وراء كل نجاحاتي هذه، في الحياة.

منذ ذلك اليوم وأشياء كثيرة تحدث، بات يظهر أناس قدامى في حياتي فجأة.. لا أعرف من أين يطلون وكيف يستدلون على مكاني. حاولت أن أعلل الأمر بأنها ضريبة الشهرة والجاه.. ليس من سبب آخر.. وهذا ما قالته لي عمتي، التي أصرت على أن تشعل لي البخور وتقرأ تعاويذها التي تؤمن بأن لها دورا كبيرا في حمايتي من العين، قالت لي:

"المال يذهب إن لم تتم حمايته يا ولدي.. لابد من فعل هذا الطقس أسبوعيا على الأقل"

وماذا سأقول لها، وليس من سبيل للرفض. في كل صباح تقوم عمتي بالواجب، قبل أن أهرع لمسابقة عملي الذي توسع وعقاراتي وشؤوني المتعددة بعد أن أسست مكتبا في الطابق السابع من البناية الحديثة لي في وسط المدينة. كان عملائي يأتون لي هناك وأصدقائي الجدد من أصحاب المنافع الذين تعرفت عليهم في السنوات الماضية، بعضهم سياسيون وآخرون من عشاق كرة القدم الذين يبحثون عن دعم مالي لأنديتهم الكبيرة وقد رشحوني لتولي منصب الرئاسة في إحدى الأندية

المعروفة، مشددين أن ذلك فخر لهم، وللنادي. اعتذرت لهم فأن لا أحب الظهور، ولكن كان علي أن أتبرع لهم ماديا لفريق الكرة الأول. وبهذه الطريقة كان علي أن أرفض لقاءات صحفية وتلفزيونية وغيرها. لا اعتقد أن الإنسان الذكي والذي يحقق نجاحات حقيقية يكون مشغولا بأن يطل على الناس، على العكس هم يبحثون عنه. أيضا جاءني عرض آخر من غرفة التجارة في المدينة التي طالبوني بالانضمام لهم. هذه قبلتها لأنني رأيت فيها مصلحة لعملي. فوجودي كعضو في الغرفة سوف يسهل لي أموراً كثيرة، ففي هذا التوقيت من تاريخنا يجب أن تمد أطرافك في الأماكن التي تفيدك ليكون عليك أن تستمر في عملك بشكل جيد.

كان الكثيرون في تلك الأيام يتشككون في استمرار النظام الحاكم، لاسيما بعد أن بدأت محاولات من الشد والجذب بين العائدين من الحرب والحكومة، بعد أن دخلوا في شراكة سياسية على السلطة. يتحدث بعضهم عن إمكانية عودة الحرب، غير أن الاحتمال الأكبر الذي كان يراه الجميع تقريبا أن الجزء الجنوبي من الوطن الأم في طريقه للانفصال كبلد جديد. ما يهمني أن أموري كانت تسير في البلد بخير، رغم الحصار المتعاظم على الدولة من الخارج بما في ذلك دول الجوار، ولم أكن لأهتم بما يقال عني أنني استفدت من الوضع الجديد وأنني منتفع وغيرها من الأقاويل التي كان هناك من يروج لها لأهدافه التي أعلم بعضها وأجهل البعض الآخر. وكان بعضهم يقول إنني ابن النظام المدلل، وهناك من وصفني بأنني أدير أموال الرئيس نفسه، أي أنني بالمعنى المباشر وكيل للصقر الجارح في عملياته التجارية التي لا يريد أن يظهر أنه صاحبها أمام الكل. لم انشغل ذات يوم بأن أرد على أحد أو أدافع عما يقال. وما عقد أموري أنني يوم افتتحت أحد محلاتي الأكثر شهرة في الشارع الرئيسي بوسط المدينة، القريب من المطار، ليس بعيدا عن المحل القديم. كانت العشرات من الصحف والفضائيات التي كثرت في تلك الأيام قد هرعت لتغطية الحدث وفوجئت بأن رئيس الجمهورية نفسه يتقدم الحضور. فالصقر الجارح كان يأتي لمناسبات اجتماعية وتجارية وغيرها أحيانا دون سابق إنذار، ربما لغرض التسلية لا غير. أنا متأكد أن الرجل جاء ليس لأي سبب من تلك التي نسجتها الشائعات وتناقلتها البلد إنه جاء ليفتتح واحدا من استثماراته الشخصية في المطاعم.

كانت عمتي أكثر الناس بهجة في ذلك اليوم وهي ترى الصقر الجارح يتقدم ويقص شريط الافتتاح، وطلقات رصاص مدوية في الفراغ السماوي تنطلق قوية تصحبها ألوان الألعاب النارية. وشعرت بسرور عظيم يعبئ كياني مع إحساس طفيف بالألم أنني كنت أتمنى لو أن عمي حضر ذلك اليوم السعيد، لكان قد تأكد أن غرسه قد نجح، فطالما راهن علي في حياته أنني سوف أكون شيئا عظيما ذات يوم. وأكثر ما أسعدني أن الرئيس الذي ألقى خطبة قصيرة، أشار إلى أني مثال للشباب المثابر وأقدم نموذجا حقيقيا لحب الوطن. أما المهم جدا من كلامه، فقد زاد الرجل ريبة وشكوك من يظنون أنني تركي ولست سودانيا، ساعة قال:

"أسمع البعض يقول إن ابننا من تركيا الصديقة، لكن أقول ليس مهما من أين أنت.. المهم أنك ابن هذا البلد ساعة تخدمه وتقدم له"

في المساء المتأخر وبعد أن انفض كل شيء. قالت عمتي تسألني:

" أنت لست سهلا يا ولد قد وصلت للرئيس نفسه"

كنت مطرقا أفكر في الأمر، قلت لها:

"لا أعرف كيف خطر له أن يأتي إلى هنا.. بقدر ما أنا مسرور إلا أني متوجس"

قالت لي:

"لا تفكر في الأمر ما دام قد حدث.. فالرئيس لديه أمور أخرى سوف تشغله، لا تنسى أن هناك حرب شعواء في غرب البلاد.. وأنت يجب أن تنشغل بالأمور التي تهمك، لديك تحديات أكبر فكلما تقدم الإنسان في الحياة للأمام يكون الطريق أضيق وأصعب وليس العكس كما يتصور الناس أنه يكون سهلا ومفروشا بالورد"

لم تكن عمتي على حق أن الرئيس لديه ما يشغله أكثر.. فهو في الواقع آلة معقدة تعمل في كافة الظروف وفي كل الاتجاهات.. حيث لم تمر سوى أيام قليلة.. لم أحسبها، ووصلني في مكتبي بالطابق السابع رجل وامرأة عرفا نفسيهما على أنهما من مكتب الصقر الجارح، وأنه يرسل لي الرسالة الآتية.. كان مغلقا أسرعت لفتحه لأقرأ الترويسة المكتوب عليها رئاسة الجمهورية.. مكتب الصقر الجارح.. ومن ثم.. طلب مني بأن أسرع للاستجابة لنداء الوطن بتحويل مبلغ معين إلى حساب تم تحديده.. وأنني يجب ألا أتأخر لأن هناك التزامات على البلاد أن تفي بها وأن على الناس أمثالي أن يقوموا بواجبهم مبكرا.. ولم يكن ثمة تهديد صريح.. فقط اشتممت أن الصيغة التي كتبت بها الرسالة والموقعة باسم الرئيس، كانت ذات لهجة توحي بالتحذير المغلف بأن أقوم فورا بالمهمة.. الضيفان لم يتكلما كثيرا ولا قليلا.. أسرعا لتوديعي بأدب جمّ، هكذا تبدو الأمور في البداية ومنذ سنوات طويلة في هذا البلد.. ذلك درس تعلمته وحفظته جدا.

وبقيت في مكتبي لساعة أفكر في الأمر.. لست بخيلا.. ولا جبانا.. ولكن هل هذا هو المقصود من كل تلك الحكاية. أن يأتي الرجل ويقوم بهذا الدور التمثيلي لأجل هذا الهدف.. ثم أن المبلغ ليس بسيطا.. إنه ابتزاز مباشر وصريح ومن أعلى سلطة في البلد.. ماذا سأفعل؟ ليس من قانون لأذهب إليه؟.. ولكن علي أولا أن أتأكد من الأمر. ولم اتصل بعمتي لأخبرها، ما سيقلقها. أعرف أنها ستنشغل كثيرا. كما أنني نادرا ما أدخلها في مثل هذه الأمور طوال السنوات الماضية، أضعها فقط أمام النتائج لا المقدمات.

تطورات سريعة وأمور غير محسوبة في دفاتري حدثت ففي اليوم الذي وصلني فيه هذا الطلب الرئاسي، كنت قد عدت للبيت مبكرا على غير العادة أفكر ماذا سأفعل وليس أمامي متسع من الوقت.. أعلم ذلك.. رغم أنه لا الرسالة ولا الضيفين أشارا إلى وقت محدد.. ولم أكن لأحتاج لأتأكد

من قصة الابتزاز.. لأنه حتى لو لم يكن الصقر الجارح هو من أرسل الرسالة، فالابتزاز حاصل بشكل أو بآخر.. وثمة تهديد يجب التعامل معه بجدية.. أمر يتعلق بمستقبلي.. أعمالي وثروتي ونجاحي والسنين التي أنفقتها وأنا أكد في الحياة بعد أن فارقت أهلي الأوائل وبعد أن ضحيت حتى بمشاعري وأشواقي وبنيت عالما آخر.

ما حدث أنني وصلت البيت لأجد عمتي في ظرف غير عادي. كانت تتنفس بصوت عال وتشهق، وهي تقبض على قلبها. لم يحدث أبدا أن عانت من أوجاع في القلب ولا الصدر ولا منطقة البطن أبدا لم يحدث ذلك. يقولون إن المصائب لا تأتي فرادى.. هذا ما حدث معي بالضبط. ولدقائق قلت إن عودتي المبكرة كانت إذن لسبب آخر لم أكن لأعلمه.. سبحان الله.. وأسرعت لتنويمها على الأريكة في الصالة وهي عاجزة عن الكلام، ثم أخذتها على عجل إلى المستشفى، ولم تمض سوى لحظات حتى أخبرني الطبيب بالأمر المحزن:

"البقاء في حياتك.. روحها صعدت إلى السماء"

لم أعرف ماذا أقول. أو أحكي. أهي الحياة على هذا الشاكلة من التفاهة. تأتي بنا لكي تقهرنا ثم تطردنا دون أي استئذان؟ كنت أقول لنفسي ثم استغفر الله وأتذكر انشغالات الحياة ومن ثم تقفز إلى ذهني صورة الصقر الجارح وطلبه مني بتسديد ضريبة الوطن. هذا الشيء الهلامي الذي لا وجود له في الأساس سوى في كتب المدارس الممزقة والقصص القديمة في حكايات الجدات. وهل هذا وقته هذا الصقر، يجب أن أسرع لإكرام عمتي وإجراء اللازم. سيكون علي أن أقاوم دموعي وألمي وأوجاعي فتقريبا هي الشخص الوحيد الذي تبقى لي من الناس الذين أحببتهم بحق أو الذين ألفتهم لو كنت دقيقا في الوصف. ما كنت أظن أن نهايتها ستأتي عجولة بهذا الشكل. فعمي مات بعد فترة طويلة من المرض، أما هي فقد سارعت بالصعود إلى السماء. وسألت الطبيب الذي كان يقف أمامي ربما يتأمل حيرتي والدموع التي تقافزت من محجري بلا توقف:

"هل من سبب؟ ما الذي حدث؟"

رد علي وهو يحرك سماعته كأنه غير مكترث بما جرى:

"لا شيء. إنه القدر ساعة يأتي لا طبيب ولا جن يوقفه"

سددت مصاريف المستشفى.. وأسرعت لاستلام عمتي جثة بعد أن جئت بها تنبض بالحياة حتى لو أن قلبها يتألم أو لا تقدر على الكلام. ثم انهمكت في تفاصيل الروتين المتعلق بالموتى ولم يكن ثمة أحد حقيقي ليقف معي. صحيح أن هناك العشرات وربما المئات من جاءوني، وآزروني إلى النهاية. لكن لا أحد كان في واقع الأمر بالنسبة لي يبحث عن مساعدتي بالوجه الطيب الذي تنسجه أساطير الزمان الأول، والذي ربما لا وجود له في الأساس إلا في المخيلة.

تخيلت أن الرئيس سوف يكون معزيا في وفاة عمتي. أمي. لكن الرجل لم يظهر. الصقر الجارح بدلا عن ذلك كان يتحدث في البرلمان في مساء يوم الدفن، كان المعزون يتحدثون عن خطابه الذي

أعلن فيه أنه سمح للجنوبيين بإجراء استفتاء على تقسيم البلاد، إن شاءوا بأن يكون لهم بلد خاص بهم. وعبرت لذهني صورة الفتاة السمراء. وشعرت بوحشتي. وتذكرت أختي التركية. ثم نسيت كل شيء. ولم أعد أفكر بسوى عمتي. ثم طلب الصقر الجارح. متناسيا الناس الذين كانوا يسدون المساحة أمامي وهم يبادلوني كلمات العزاء.. رحمها الله. تقبلها الله. أحسن الله إليكم.. وغيرها من التطييبات التي لا تجدي، بعد أن وقع القدر.

في الليل المتأخر، كنت وحدي أنام في البيت الذي دخلته ذات يوم ضيفا، ودون ترتيب مني ولأني متعب جدا فقد وجدت أنني أرقد في الغرفة التي شهدت مبيتي لأول مرة.. كانت الإنارة خافتة وثمة أصوات بعيدة كأنها تأتي من البلدة من عند أهلي. يملأني الحنين لهم، وبين اليقظة والمنام أكون قد سرحت في عوالم جميلة رغم حزني. أرى عمتي تلوح لي من بعيد في مكان جميل مطرز باللون الأخضر، ومن ثم رأيت عمي يكلمني بعبارات أفهمها جيدا لكني لا أعود أتذكرها بعد أن استيقظ في الصباح. كانت الحياة رغم الرهق والأوجاع والأحزان جميلة. رغم كل مخاوفي من تهديدات الصقر الجارح وعدم قدرتي على التنبؤ بما سيحدث في الغد.

8

في الأفق البعيد دائما ما تلوح الحلول، ودائما ما يوجد ما يمكن أن يشكل مخرجا للإنسان من مأزقه. في الصباح الباكر اتصلت بذي القرط في تركيا، لم أكلمه منذ وقت طويل. أخبرته بأن عمتي توفيت وأنني في أشد لحظاتي حياتي ضيقا واتساعا، قلت له:

"أعيش حالة يصعب علي أن أفسرها.. ولا يمكنني التكهن بالقادم.. فليس لي من أحد هنا"

توقفت قليلا وأخبرته بما كنت أنتوي فعلا، ذلك القرار الذي جاءني غرة الفجر المبكر:

"لا أعتقد أنني سأبقى هنا كثيرا.. هذا المكان لن يعود يحتملني"

كان ذكيا ليفهم ما الذي أقصده.. وكان الكلام كثيرا في الهاتف يعني تسريب أمور قد يكون قولها مدعاة لنتائج سلبية في شأن ما انتويته.. أنهى المكالمة بالقول:

"من جانبي.. سنرتب لك كل شيء قم بما قررت"

ولم يمض سوى نهار، إلا وأنهيت الكثير من الأشغال المتراكمة. لم أحفل بموضوع الصقر الجارح وطلبه، سيكون علي النفاذ بأكبر ما يمكن من النصر، هكذا قررت أنني لن أجعل سنوات عمري الماضية تضيع سدى. قمت بحصر أرصدتي في البنوك وممتلكاتي. لم يكن من أحد أثق فيه جدا في هذا البلد واعتمد عليه ليكون لي سندا في ترتيب ما تبقى من أشيائي، هذه خلاصة تجربتي مع هذا المكان بعد ما حدث أن أعلى سلطة تبتزني. وبمعرفتي بالناس الذين يمكن أن يخدموني مقابل المال والرشاوى كنت قد هربت أموالي في حسابات بالخارج، حيث قام ذو القرط بكل ما يلزم في الطرف الآخر. كنت واثقا فيه ولم يتملكني شك في أنه سيقوم بالواجب تماما منذ أن قررت أنه هدفي الذي سيقف معي. أنهيت توكيلات بأسماء مستعارة لأناس سيقومون بإدارة أعمالي المتبقية إلى تصفيتها وبيع العقارات، ما دامت تدفع فكل شيء سيتم على ما يرام.. وظللت لعشر أيام مختفيا عن الأعين، لا أحد يعرف مكاني ولا أين أنا بالضبط. في الواقع كنت أستأجر غرفة في فندق قديم بوسط المدينة الكبيرة، قريبا من بنايتي ذات الطوابق. ومن داخل غرفتي بالفندق وعبر النافذة كنت أتأمل البناية وأنا أتذكر كم أنفقت من الوقت والمال لكي أجعلها تقف هكذا صامدة. أنا اليوم مضطر لتركها مع أشياء كثيرة. كان لابد أن يحدث ذلك، فماذا سأفعل قصاد هذا الوضع الذي لن يكون معه استمرار بأية حال. فبدء الابتزاز يعني أنه لن يتوقف. في الماضي كان علي أن أدفع رسوما محددة أو رشاوى لأناس بعينهم، اليوم أقف بمواجهة الدولة والسلطة والقانون. الصقر الجارح. لا يمكنني أن أقاوم إلى النهاية، الحل الوحيد كان ما فكرت فيه لا غير.

كان هروبي عبر الحدود البرية إلى دولة مجاورة ومن ثم عبر الطائرة إلى اسطنبول، في أول رحلة لي خارج الوطن، واستقبلتني أختي التركية، ابنة عمي واعتذرت لي بأن ذا القرط مشغول وسوف يلتقيني فيما بعد. كان استقبالها بحفاوة شديدة، قالت لي:

"أتابع ما يجري هناك.. لا أحد يمكنه الاستمرار إلا أن يكون معه عصا موسى".

وتكلمنا سويا عن عمي وعن عمتي، وعن كيف أنهما أحبا ذلك البلد، أسرعت لتقدم لي كتابها الجديد الذي أصدرته قبل أقل من شهر، لم يكن الموضوع ليشغلني كثيرا فقد كان جانبه معقدا يتعلق بصراعات في تركيا وهويتها في مرحلة جديدة وهي تتنازع ما بين الانتماء لأوروبا والحفاظ على الهوية الشرقية، لكنني نسيت أنني سوف أصبح مواطنا هنا لربما لبقية عمري، فأسرعت للقول:

"سأقرأه كاملا وبأسرع وقت"

واستلمت منها نسخة بتوقيعها. كانت قد أهدته لروح والدها. عمي الذي أوجد هويته الخاصة في مكان آخر كما أسمته. وقلت لها:

"أنا اليوم ربما سأجد هويتي هنا.. لست متأكدا من المستقبل"

ردت علي:

"لا تخف ولا تعايش الظنون.. كل شيء سيكون بخير.. تأكد أن أختك معك"

واحتضنتني في صالة الفيلا الكبيرة، كان أحد الخدم يراقبنا من بعيد بتلصص، وكأنه يؤكد أن خيانة ترتكب ضد السيد الكبير باسم هذا الغريب الذي جاء قبل قليل والذي لم يره من قبل. قبلتها بقوة، لا أعرف ما السبب الذي دفعني لأفعل ذلك. لكنني لم أتمالك نفسي. وأخذتها بيدي أو هي أخذتني لا أدري. كنا قد دخلنا غرفة ذات أفرشة ملونة بالبنفسج اللون المحبب بالنسبة لي. جلسنا بجوار بعضنا. كانت قد نامت إلى كتفي، كأنها لم تنم منذ وقت طويل أو هي مرهقة. قالت لي بهمس خفيض:

"كم اشتاق ليكون لي أخ مثلك"

قلت لها:

"أنا هنا أخوك.. لا تفكري في أحد آخر غير موجود"

قالت لي:

"لطالما أحببتك منذ رأيتك أول مرة ومنذ أن سمعت والدي يتكلم عنك كثيرا"

أجبتها وأنا أشعر بشيء غريب يدغدغ مسامات روحي:

"أنا لا استحق ذلك مجرد إنسان شارد لا أهل ولا بلد له"

ابتسمت وهي تغلق عينيها، قالت:

"هذا ليس صحيحا.. لن يكون ممكنا لي أن أنساك يوما ما.. لطالما أحبك أبي.. ولطالما سأحبك.. كنت متأكدة يوما ما انك سوف تكون بجواري"

مررت يدها على خدي بهدوء.. كانت تلك التمريرة الصغيرة كفيلة بأن أفهم بأنها لمسة حنان خاصة معناها الأخوة والحاجة للحب الدافق المليء بالمشاعر الإنسانية الصادقة.. لا شيء آخر..

ليس وراءها أي نوع من الشهوات المبتذلة.. أبدا.. لدقائق وأحيانا كانت تخميناتي تسوء.. أشعر بانزعاج وهي تصرٌّ على أن تضمني نحوها بقوة.. كأنها سكرى أو تقاوم حالة وجودية غريبة من الإحساس العدمي.. أنها غير موجودة في حيز المكان..

كنت أنظر حولي، وسألتها:

"لماذا تأخر ذو القرط عن المجيء؟"

"لقد كان لطيفا معك لم يحرجك.. قام بالواجب لأنه يقدرني رغم أننا انفصلنا منذ زمن"

كان الخبر محزنا ومفرحا بالنسبة لي ولم أهتم بمعرفة الأسباب.. لم أتبين طبيعة مشاعري بالضبط.. وأنا أضمها نحوي كما هي تضمني.. ارتشف رحيق شفتيها المضمختين بعذوبة الاستانة وعبق الشرق التركي.. أسرح في فضاء بعيد، أنسى نفسي.. أكون قد نمت بجوارها.. لا أعلم ماذا حدث بعدها بالضبط.

..المهم يا ولدي..

تعال لأريك شيئا.. خذه هذه المخلاة.. إياك أن تفرط فيها.. فربما يعود صاحبها ذات يوم..

نهاية